الاستنباط الإشاري

في القرآن الكريم

دراسة تأصيلية وتطبيقية



دار دريم بن للطباعة والنشر

العنوان : مدينة العبور - الحي السادس فيلا ٨ مدخل ١

هاتف : 01003288596

بريد إلكتروني : Dream.pen92@gmail.com

الاستنباط الإشاري في القرآن الكريم

دراسة تأصيلية وتطبيقية

محمد يحيى جادو

الطبعة الأولى، القاهرة ٢٠٢٠م

غلاف : عمار المانيعي

تصميم فني: الديوان للتصميم وخدمات النشر

رقم الإيداع : 28547 / 2019

I.S.B.N: 978-977-85628-7-3

الاستنباط الإشاري
في القرآن الكريم
دراسة تأصيلية وتطبيقية

محمد يحيى جادو



تنويه

أُنوِّه–بادئ ذي بدء– إلى أنني ما كنت يومًا من الأيام تابعًا ولا مقلِّدًا لشيخ بعينه، ولا معتمدًا كلامه جملة، ولا متبنيًّا لمواقفه كلها، ولا منحازًا لطائفة، ولا لحزب، ولا لفصيلٍ له توجه خاص، ولا كنت يومًا عالـمًا، ولا أعدو أن أكون طالب علم على سبيل نجاة، أو بالأحرى طالبًا للحق من بابه من عند أهله، رادًّا للباطل بأدب، ولم أتبع (ولن أتَّبع إن شاء الله) أحدًا إلا النبي ولم أنتسب (ولن أنتسب إن شاء الله) إلى جماعة إلا جماعة المسلمين على منهاج النُّبوَّة، وعلى هذا تربيتُ، وهذا هو منهجي، وعلى هذا أرجو أن ألقى الله ، فإذا بينتُ لك هذا، ثم أصررتَ على تصنيفي ونسبتي إلى طائفة أو حزبٍ إلا جماعة المسلمين؛ فأنا بريءٌ من ذلك، والعهدة عليكَ. والله المستعان.

* * *

إهداء

إلى أمي –رحمها الله –، فما هذا إلا حسنة من حسناتها، وثمرة بذرتها، راجيا من الله أن يجعلها مع الصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا.

إلى والدي–حفظه الله– فهو من فتح أعيننا على العلم، ولكم تعب، وذاق المشاق، كي يوفر لنا سبل العلم، فالله يجزيه خير الجزاء

إلى شيخنا ومولانا العالم الرباني الدكتور محمود روزن؛ فهو من علمنا وربانا، وما خفي علينا فمرده إليه، وهو بريء من كل خطأ في كتابي، مشارك في كل خير فيه، ومثله سيدنا ومولانا الدكتور سعد سعيد أحمد عبده، حفظه الله، فقد تابعنا في مراحل البحث، وذلل لنا الصعاب، وحل لنا المشكلات، فالله يجزيه وشيخنا خير الجزاء.

إلى أهلي وأصهاري وأصحابي وأحبابي –جميعا–فهذا كتابهم، وأنا ابنهم وأخوهم، فجزاهم الله خير الجزاء، على ما صبروا علي حال انقطاعي عنهم وعن كل شيء، أثناء تحرير هذا الكتاب.

* * *

تقريظ سماحة الدكتور
سعد سعيد أحمد عبده

الحمد لله الرحيم الرحمن الذي علم القرآن وخلق الإنسان علمه البيان، والصلاة والسلام على النبي العدنان، المبلغ عن الواحد الديان، نبينا محمد عليه الصلاة والسلام الأتمان الأكملان الأدومان المتلازمان.

وبعد

فقد بعث الله النَّبيَّ ﷺ، بدين الإسلام العظيم، وأنزل عليه الكِتاب والحِكمة، وأمره أن يبلِّغ هذا الدِّين للنَّاس كافة فقال: وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون (سبأ: ٢٨) وقال تعالى: تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا(الفرقان: ١) ، ثم حدَّد له ما هو مطلوب منه، وحذَّره من مخالفة أمره؛ فقال تعالى: ياأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته (المائدة: ٦٧) بل حصر مَهمَّته في هذا الهدف فقال تعالى: إن عليك إلا البلاغ (الشورى: ٤٨) وبيَّن له أنه ليس بِدعًا من الرُّسُل، فمهمَّته هي مهمَّة كافة الرُّسُل من قبْلِه، فقال تعالى: فهل على الرسل إلا البلاغ المبين (النحل: ٣٥) ، فظهر لكل ذي عينين أن مَهمَّة الرُّسل هي بلاغ رسالات الله لنَّاس[1].

(١) يقول ابن فارس «(بَلَغَ) الباء، واللام، والغين، أصلٌ واحد، وهو الوُصول إلى الشيء. تقول بَلَغْتُ المكانَ، إذا وَصَلْتَ إليه». معجم مقاييس اللغة (ص١١٢)، وقال الراغب الأصفهاني: «بلغ: البلوغ، والبلاغ؛ الانتهاء إلى أقصى المقصد والمنتهى؛ مكانًا كان أو زمانًا، أو أمرًا من الأمور المقدَّرة». المفردات (١/ ٧٦)، أقول: قد ظن البعض أن البلاغ هو مجرد إسماع الناس الكلام، فمن نعق فيهم بشيء فقد أدى ما عليه، ولكن البلاغ له معنى أعمق من الإسماع وهو إيصال مقصود الكلام، أي إيصال مراد المتكلم إلى السامع، فمن لم يوصل مراد المتكلم إلى السامع فما بلَّغ كلام المتكلم وإن تكلم بكلامه، فافهم ترشد.

وحقيقة هذا البلاغ هي بيان مُراد الله من كلامه.

قال الحسن البصري: «ما أنزل الله آية إلا وهو يحب أن يُعْلم ما أراد بها»[(١)].

قال ابن تيمية: «رب العالمين أولى أن يكون كلامه أحسن الكلام، وأتمه بيانًا، وقد قال تعالى: وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم)إبراهيم: ٤) فهو إنما أرسل الرُّسل بلسان قومهم الذين خاطبوهم ليبين الرسول ما أراده، وما أوحاه الله إليه من الرسالة»[(٢)].

وعليه فمن تكلم في كلام الله بغير مراد الله فقد عبَّد الناس بدين غير دين الله لإله غير الله، وافترى على الله كذبًا، لذا اجتهد المفسرون في بيان مراد الله من كلامه، وكل كان له أسلوبه وطريقته، فمنهم من فسر القرآن بالقرآن، ومن فسر القرآن بالسنة، ومن فسر القرآن بلغة العرب، وغير ذلك كثير، ومن ذلك التقاط بعض الإشارات من بعض الآيات، وقد أُطلق عليه التفسير الإشاري، وقد عُني به بعض الطرقيين والمتصوفة، ولكن هذا النوع من التفسير يعوزه جدة في البحث، وتحرير وضبط لتمييز الغث فيه من السمين، وبين يديك هذا البحث الذي عرضه علي ابننا الحبيب/ محمد يحي جادو وهو بعنوان «الاستنباط الإشاري دراسة تأصيلية تطبيقية»، وهو جيد فيما وضع من أجله، ولن أتسوَّر على فكرك، أو أصادر رأيك وإنما أتركك لتقف على ما فيه من الحق بنفسك.

وأسأل الله أن ينفع به كاتبه وقارئه وناشره والدال على ما فيه من الخير

كتبه

د./ سعد سعيد أحمد عبده

دكتوراه في العقيدة والفلسفة

عضو المركز العالمي للبحوث بالقاهرة

محاضر دولي

---

(١) درء التعارض (١/ ٢٠٨).

(٢) بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (٨/ ٤٦٤).

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، أنزل القرآن بلسان عربي مبين، وجعل لأوليائه فيه فهما فلا يدركه إلا ذو عقل رصين، وأرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون؛ أما بعد:

فالقرآن كلام الله المعجز، أنزله على عبده ونبيه محمد ﷺ هدى وبيانا للناس، فأودعه أسراره، وكنوزه، وجعله ميدان سباق الأفهام، وهدى لمضلة الأنام، وجعل فيه على كل حادثة دليلا أو إشارة، وهذا القرآن متضمن لمراد الله تعالى من عباده أمرا، ونهيا، فكل الشرع إنما مرده إلى القرآن، فكان على العباد أن يفهموا هذا الوحي ويعتنوا به إذ لا سبيل إلى ربهم موصل إلا الذي دل عليه هذا الكتاب، ولما كان هذا القرآن معجزا بإطلاق، كان من إعجازه أن يكون له وجوه، وأن تحتمل اللفظة الواحدة من المعاني والأسرار ما لا يحيط به من قعد أو سار، أو من أنجد أو أغار، فمعاني كلام الله لا تحد بحد، ولا تفنى على كثرة الأخذ والرد، ومن هنا لم يقف أهل العلم الراسخون من القرآن موقف الجامدين على ألفاظه، بل غاصوا في استنباط دقائق المعاني، ليخرجوا لنا درر التأويل، وجواهر التنزيل، وراحوا يستنبطون فوائد أخرى تدل عليها كلمة(سياق)، الآية لا لفظها، وراحوا يمعنون في ما تشير إليه معاني القرآن مستأنسين بقرائن عددية، أو ما شابهها من المؤنسات لاستنباط الإشارات، يدفعهم إلى ذلك أن الله قال عن كتابه هذا{وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ}. وقال: {مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ}. فبحثوا عن بيانه في كل حادثة، وعن إشاراته في كل نازلة، ويدفعهم إلى هذا المسلك ما جاء في السنة المشرفة، عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ ﷻ أَنْزَلَ هَذَا الْقُرْآنَ آمِرًا، وَزَاجِرًا، وَسُنَّةً خَالِيَةً، وَمَثَلًا مَضْرُوبًا، فِيهِ نَبَؤُكُمْ، وَنَبَأُ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَخَبَرُ مَنْ بَعْدَكُمْ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ، مَنْ

قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ خَاصَمَ بِهِ فَلَجَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ، وَمَنْ تَمَسَّكَ بِهِ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، لَا يُخْلِقُهُ طُولُ الرَّدِّ، وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ»(١)

وهكذا كان فهم السلف الصالحين من الصحابة والتابعين، وطريقتهم في النظر إلى هذا الكتاب العظيم، فعنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: ((مَنْ أَرَادَ الْعِلْمَ فَعَلَيْهِ بِالْقُرْآنِ، فَإِنَّ فِيهِ (خبر) الأولين والآخرين))(٢)علق البيهقي على ذلك بقوله: أراد به أصول العلم. (٣)

وقال ابن مسعود أيضاً: أنزل في القرآن كل علم وبين لنا فيه كل شيء ولكن علمنا يقصر عما بين لنا في القرآن، (٤)

وهكذا درج الأئمة المتبوعون فهذا الإمام الشافعي،يقول: جميع ما تقوله الأمة شرح للسنة وجميع شرح السنة شرح للقرآن(٥)

وقال ابن برجان. ما قال النبي -ﷺ- من شيء فهو في القرآن أو فيه أصله قرب أو بعد. فهمه من فهم، أو عمه عنه من عمه، وكذا كل ما حكم أو قضى به. (٦)

فلا تظنن أن ما في القرآن مقتصر على المدلولات الظاهرة، فعلوم القرآن لا تتناهى ولا تنحصر.

قَالَ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا: وَعُلُومُ الْقُرْآنِ وَمَا يستنبط مِنْهُ بَحْرٌ لَا سَاحِلَ لَهُ(٧)

وقدر كل امرئ من العلم بقدر ما يستنبط من كتاب الله، والناس في ذلك متفاوتون، وإنما الفقيه من يفهم عن القرآن ما لا يفهمه غيره، ويرى في القرآن من

---

(١) التفسير من سنن سعيد بن منصور ٢/ ٢٧٢
(٢) التفسير من سنن سعيد بن منصور ١/ ٧
(٣) الإكليل في استنباط التنزيل ١/ ١١
(٤) الإكليل في استنباط التنزيل ١/ ١٢
(٥) الإكليل في استنباط التنزيل ١/ ١١
(٦) الإكليل في استنباط التنزيل ١/ ١٢
(٧) الإتقان ٤/ ٢١٦

الدلالات والإشارات ما يقصر عنه طرف غيره.

وَقَالَ ابْنُ سَبُعٍ: وَرَدَ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ أَنَّهُ قَالَ: لَا يَفْقَهُ الرَّجُلُ كُلَّ الْفِقْهِ حَتَّى يَجْعَلَ لِلْقُرْآنِ وُجُوهًا[(١)]

ولا شك أن العبد يُفتح له بقدر ما يفتح هو من أبواب الاتصال بكتاب الله، دراسة وفهما وتدبرا، ولا يحيط بكل ما في القرآن إلا النبي -ﷺ-، يقول المرسي: جَمَع القرآن علوم الأولين والآخرين بحيث لم يحط بها علماً حقيقةً إلا المتكلم به، ثم رسول الله -ﷺ -، خلا ما استأثر به سبحانه، ثم ورث عنه معظم ذلك سادات الصحابة وأعلامهم مثل الخلفاء الأربعة، ومثل ابن مسعود وابن عباس حتى قال: لو ضاع لي عقال بعير لوجدته في كتاب الله، ثم ورث عنهم التابعون بإحسان، ثم تقاصرت الهمم وفترت العزائم وتضائل أهل العلم وضعفوا عن حمل ما حمله الصحابة والتابعون من علومه وسائر فنونه، فنوعوا علومه وقامت كل طائفة، بفن من فنونه فاعتنى قوم بضبط لغاته، وتحرير كلماته، ومعرفة مخارج حروفه وعددها وعدد كلماته وآياته وسوره وأحزابه وأنصافه وأرباعه وعدد سجداته والتعليم عند عشر كل آيات، إلى غير ذلك من حصر الكلمات المتشابهة والآيات المتماثلة من غير تعرض لمعانيه. ولا تدبر لما أودع فيه، فسموا القراء.

واعتنى النحاة بالمعرب منه والمبني من الأسماء والأفعال، والحروف العاملة وغيرها وأوسعوا الكلام في الأسماء وتوابعها وضروب الأفعال واللازم والمتعدي ورسوم خط الكلمات وجميع ما يتعلق به حتى أن بعضهم أعرب مشكَله، وبعضهم أعربه كلمة كلمة.

واعتنى المفسرون بألفاظه فوجدوا منه لفظاً يدل على معنى واحد، ولفظاً يدل على معنيين ولفظاً يدل على أكثر، فأجروا الأول على حكمه وأوضحوا معنى الخفي منه، وخاضوا إلى ترجيح محتملات أحد ذي المعنيين والمعاني، وأعمل

(١) الإتقان ٤/ ٢١٦

كل منهم فكره، وقال بما اقتضاه نظره.

واعتنى الأصوليون بما فيه من الأدلة العقلية والشواهد الأصلية والنظرية مثل قوله: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا}

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة، فاستنبطوا منه أدلة على وحدانية الله ووجوده وبقائه وقدمه وقدرته وعلمه وتنزيهه عما لا يليق به وسموا هذا العلم بأصول الدين.

وتأملت طائفة منهم معاني خطابه فرأت منها ما يقتضي العموم. ومنها ما يقتضي الخصوص إلى غير ذلك، فاستنبطوا منه أحكام اللغة من الحقيقة والمجاز وتكلموا في التخصيص. والإضمار، والنص، والظاهر، والمجمل، والمحكم، والمتشابه، والأمر، والنهي والنسخ، إلى غير ذلك من أنواع الأقيسة واستصحاب الحال والاستقراء وسموا هذا الفن أصول الفقه.

وأحكمت طائفة صحيح النظر وصادق الفكر فيما فيه من الحلال والحرام وسائر الأحكام فأسسوا أصوله وفروعه وبسطوا القول في ذلك بسطا حسناً وسموه بعلم الفروع، وبالفقه أيضاً.

وتلمَّحت طائفة ما فيه من قصص القرون السابقة والأمم الخالية ونقلوا أخبارهم ودونوا آثارهم ووقائعهم حتى ذكروا بدء الدنيا وأول الأشياء، وسموا ذلك بالتاريخ والقصص.

وتنبه آخرون لما فيه من الحكم والأمثال، والمواعظ التي تقلقل قلوب الرجال، وتكاد تدكدك الجبال، فاستنبطوا مما فيه من الوعد والوعيد، والتحذير والتبشير، وذكر الموت والمعاد، والنشر والحشر، والحساب والعقاب، والجنة والنار، فصولاً من المواعظ وأصولاً من الزواجر فسموا بذلك الخطباء والوعاظ.

واستنبط قوم مما فيه من أصول التعبير مثل ما ورد في قصة يوسف من البقرات السمان وفي منامي صاحبي السجن وفي رؤية الشمس والقمر والنجوم

ساجدات، وسموه تعبير الرؤيا. واستنبطوا تفسير كل رؤيا من الكتاب، فإن عز عليهم إخراجها منه فمن السنة التي هي شارحة للكتاب، فإن عسر فمن الحكم والأمثال، ثم نظروا إلى اصطلاح العوام في مخاطباتهم وعرف عاداتهم الذي أشار إليه القرآن بقوله: {وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ}.

وأخذ قوم مما في آية المواريث من ذكر السهام وأربابها وغير ذلك علم الفرائض، واستنبطوا منها ذكر النصف، والثلث والربع والسدس والثمن حساب الفرائض ومسائل العول واستخرجوا منه أحكام الوصايا.

ونظر قوم إلى ما فيه من الآيات الدالات على الحكم الباهرة في الليل والنهار. والشمس والقمر ومنازله والنجوم والبروج وغير ذلك، فاستخرجوا منه علم المواقيت.

ونظر الكتاب والشعراء إلى ما فيه من جزالة اللفظ، وبديع النظم. وحسن السياق والمبادي والمقاطيع والمخالص. والتلوين، في الخطاب والإطناب والإيجاز، وغير ذلك فاستنبطوا منه المعاني والبيان، والبديع.

ونظر فيه أرباب الإشارات وأصحاب الحقيقة فلاح لهم من ألفاظه معان ودقائق جعلوا لها أعلاماً اصطلحوا عليها مثل الفناء، والبقاء والحضور، والخوف، والهيبة والأنس، والوحشة، والقبض، والبسط، وما أشبه ذلك.

هذه الفنون التي [استنبطها علماء الأمة][(١)] منه، وقد احتوى على [إشارات دالة على أصول] علوم أخر من علوم الأوائل مثل الطب، والجدل، والهيئة، والهندسة، والجبر والمقابلة، والنجامة، وغير ذلك.

أما الطب فمداره على حفظ نظام الصحة، واستحكام القوة، وذلك إنما يكون باعتدال المزاج تبعاً على الكيفيات المتضادة، وقد جمع ذلك في آية واحدة وهي قوله: {وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا}.

---

(١) تصرف يسير منا.

وعرفنا فيه بما يعيد نظام الصحة بعد اختلاله وحدوث الشفاء للبدن بعد اعتلاله في قوله: {شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ}. ثم زاد على طب الأجساد بطب القلوب وشفاء الصدور.

وأما الهيئة ففي تضاعيف سوره من الآيات التي ذكر فيها من ملكوت السموات والأرض، وما بث في العالم العلوي والسفلي من المخلوقات.

وأما الهندسة ففي قوله: {انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ (٣٠) لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ} فإن فيه قاعدة هندسية وهو أن الشكل المثلث لا ظل له.

وأما الجدل فقد حوت آياته من البراهين والمقدمات والنتائج والقول بالموجب والمعارضة وغير ذلك شيئاً كثيراً، ومناظرة إبراهيم أصل في ذلك عظيم.

وأما الجبر والمقابلة فقد قيل إن أوائل السور ذكر مدد وأعوام وأيام لتواريخ أمم سالفة، وأن فيها تاريخ بقاء هذه الأمة وتاريخ مدة الدنيا وما مضى وما بقي مضروب بعضها في بعض. وأما النجامة ففي قوله: {أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ} فقد فسره ابن عباس بذلك. وفيه من أصول الصنائع وأسماء الآلات التي تدعو الضرورة إليها، فمن الصنائع: الخياطة في قوله: {وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ}. والحدادة في قوله تعالى {آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ}. {وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ} الآية والبناء في آيات والنجارة {أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ} والغزل {نَقَضَتْ غَزْلَهَا} والنسيج {كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا}.

والفلاحة {أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ}. في آيات أخر، والصيد في آيات، والغوص، {وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ}. {وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً}. والصياغة {وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلا}. والزجاجة {صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ}. {الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ} والفخارة {فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ}. والملاحة {أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ}.

والكتابة {عَلَّمَ بِالْقَلَمِ}في آيات أخر. والخبز، والطحن، {أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ}. والطبخ {بِعِجْلٍ حَنِيذٍ}. والغسل، والقصارة، {وَثِيَابَكَ

فَطَهِّرْ}. {قَالَ الْحَوَارِيُّونَ} وهم القاصرون، والجزارة {إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ}. والبيع والشراء في آيات كثيرة والصبغ {صِبْغَةَ اللَّهِ}. {جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ}. والحجارة {وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا}. والكيالة، والوزن في آيات كثيرة، والرمي: {وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ}. {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ} وفيه من أسماء الآلات وضروب المأكولات والمشروبات والمنكوحات وجميع ما وقع في الكائنات ما يحقق معنى قوله: {مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ}(١)

علق الإمام السيوطي على كلام المرسي بقوله: قد اشتمل كتاب الله على كل شيء! أما أنواع العلوم فليس منها باب ولا مسألة هي أصل إلا وفي القرآن ما يدل عليها، وفيه على عجائب المخلوقات، وملكوت السموات والأرض، وما في الأفق الأعلى، وتحت الثرى، وبدء الخلق، وأسماء مشاهير الرسل والملائكة، وعيون أخبار الأمم السالفة، كقصة آدم مع إبليس في إخراجه من الجنة، وفي الولد الذي سماه عبد الحارث، ورفع إدريس، وإغراق قوم نوح، وقصة عاد الأولى والثانية، وثمود، والناقة، وقوم لوط، وقوم شعيب الأولين، والآخرين، فإنه أرسل مرتين قوم تبع، ويونس، وإلياس، وأصحاب الرس، وقصة موسى في ولادته وإلقائه في اليم وقتله القبطي ومسيره إلى مدين، وتزوجه ابنة شعيب، وكلامه تعالى بجانب الطور، وبعثه إلى فرعون وخروجه وإغراق عدوه، وقصة العجل والقوم الذين خرج بهم وأخذتهم الصعقة، وقصة القتيل وذبح البقرة، وقصته في قتال الجبارين، وقصته مع الخضر، والقوم الذين ساروا في سرب من الأرض إلى الصين، وقصة طالوت وداود مع جالوت وقتلته، وقصة سليمان وخبره مع ملكة سبأ، وفتنته، وقصة القوم الذين خرجوا فرارا من الطاعون فأماتهم الله ثم أحياهم، وقصة إبراهيم في مجادلته قومه ومناظرته النمروذ، ووضعه إسماعيل مع أمه بمكة، وبنائه البيت، وقصة الذبيح، وقصة يوسف وما أبسطها، وقصة مريم وولادتها عيسى وإرساله ورفعه، وقصة زكريا وابنه يحي وأيوب وذي

---

(١) الإكليل في استنباط التنزيل ١/ ١٢-١٨

الكفل، وقصة ذي القرنين ومسيره إلى مطلع الشمس ومغربها وبنائه السد، وقصة أصحاب الكهف، وقصة أصحاب الرقيم، وقصة بُختُنَصَّر، وقصة الرجلين اللذين لأحدهما الجنة، وقصة أصحاب الجنة، وقصة مؤمن آل فرعون، وقصة أصحاب الفيل، وقصة الجبار الذي أراد أن يصعد إلى السماء.

وفيه من شأن النبي -ﷺ- دعوة إبراهيم به وبشارة عيسى، وبعثه وهجرته ومن غزاوته بدر في سورة الأنفال، وأحد في آل عمرن، وبدر الصغرى فيها، والخندق في الأحزاب، والنضير في الحشر، والحديبية في الفتح وتبوك في براءة وحجة الوداع في المائدة، ونكاحه زينب بنت جحش وتحريم سريته، وتظاهر أزواجه عليه، وقصة الإفك، وقصة الإسراء، وانشقاق القمر، وسحر اليهود إياه، وفيه بدء خلق الإنسان إلى موته، وكيفية الموت وقبض الروح، وما يفعل بها بعد صعودها إلى السماء، وفتح الباب للمؤمنة وإلقاء الكافرة، وعذاب القبر والسؤال فيه، ومقر الأرواح، وأشراط الساعة الكبرى العشرة، وهي نزول عيسى، وخروج الدجال، ويأجوج ومأجوج، والدابة، والدخان، ورفع القرآن، وطلوع الشمس من مغربها، وغلق باب التوبة، والخسف، وأحوال البعث من نفخة الصور والفزع والصعق والقيام، والحشر، والنشر، وأهوال الموقف، وشدة حر الشمس، وظل العرش، والصراط، والميزان، والحوض، والحساب لقوم ونجاة آخرين منه، وشهادة الأعضاء وإتيان الكتب بالأيمان والشمائل وخلف الظهور، والشفاعة، والجنة وأبوابها وما فيها من الأنهار والأشجار والأثمار والحلى والألوان والدرجات، ورؤيته تعالى، والنار وما فيها من الأودية وأنواع العقاب وألوان العذاب والزقوم والحميم إلى غير ذلك، مما لو بسط جاء في مجلدات.

وفي القرآن جميع أسمائه تعالى الحسنى[1] كما ورد في حديث، وفيه من

(١) القول بأن أسماء الله الحسنى كلها ذكرت في القرآن لا يصح إذا أريد بذلك أنها ذكرت نصا، إذ هناك أسماء اختصت بها السنة، لكن إن أريد مقامات الأسماء الحسنى، فلا شك أن القرآن لم يأت إلا شارحا لمقامات الأسماء الحسنى، مثل اسم الله القابض، وهو لم يأت بنصه، ولكن ذكرت مقاته .

أسمائه مطلقا ألف اسم[١]، وفيه من أسماء النبي ﷺ جملة، وفيه شعب الإيمان البضع والسبعون، وفيه شرائع الإسلام الثلاثمائة وخمس عشرة، وفيه أنواع الكبائر وكثير من الصغائر، وفيه تصديق كل حديث ورد عن النبي ﷺ.

وقد أفرد الناس في أحكامه كتبا كالقاضي إسماعيل وبكر بن العلاء وأبي بكر الرازي والكيا الهراسي وأبي بكر بن العربي وعبد المنعم بن الفرس، وغيرهم وكل منهم أفاد وأجاد، وجمع فأبدع غير أنها محشوة بالحشو والتطويل مشحونة بالاستطراد إلى أقوال المخالف والدليل، ومع ما فاتها من الاستنباطات العلية، والاستخراجات الخفية. [٢]

وقال ابن تيمية: (لا ريب أن الله يفتح على قلوب أوليائه المتقين وعباده الصالحين – بسبب طهارة قلوبهم مما يكرهه، واتّباعهم ما يحبه – ما لا يفتح به على غيرهم وهذا كما قال عليٌّ: إلا فهما يؤتيه الله عبدا في كتابه وفى الأثر: من عمل بما علم ورّثه الله علم ما لم يعلم، وقد دل القرآن على ذلك في غير موضع)[٣] انتهى

وقال ابن القيم: (والمقصود تفاوت الناس في مراتب الفهم في النصوص وأن منهم من يفهم من الآية حكما أو حكمين ومنهم من يفهم منها عشرة أحكام أو أكثر من ذلك ومنهم من يقتصر في الفهم على مجرد اللفظ دون سياقه ودون إيمائه وإشارته وتنبيهه واعتباره)[٤] انتهى

وقال ابن القيم أيضا: وأسرار كلام الله أجل وأعظم من أن تدركها عقول البشر[٥]، وإنما غاية أولي العلم الاستدلال بما ظهر منها على ما وراءه وأن نسبة

---

(١) هذا كلام ابن العربي وهو خطأ. .

(٢) الإكليل في استنباط التنزيل ١/ ١٨–٢٠

(٣) مجموع الفتاوى ١٣/ ٢٤٥

(٤) إعلام الموقعين ١/ ٣٥٤

(٥) ولعل الإمام ابن القيم يقصد الإحاطة بأسرار القرآن.

باديه إلى خافيه يسير[١]

وقال أيضا: وَأَسْرَارُ التَّنْزِيلِ فَوْقَ هَذَا وَأَجَلُّ مِنْهُ[٢]، وَلاَ سِيَّمَا أَسْرَارُ الْأَمْثَالِ الَّتِي لَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ[٣]

كل هذا وقد ظهر في تاريخ الأمة الإسلامية، مع عرف بالتفسير الإشاري، وهو قائم على استلهام الفوائد واللطائف من كلمة الآية، وقد كثر عند أهل التنسك والتزهد الأوائل كسهل بن عبد الله التستري، وغيره، حتى أفردوا له تفاسير تعنى به، ومع وجود هذا النوع من الاستنباط في عصور الأمة المختلفة، وعلى دقته، وخطره، ولم أجد عناية كافية به، ولم أقف على دراسة شافية وافية في هذا الموضوع الخطير تأصيلا وتطبيقا –في حدود علمي–، فأحببت أن أسلط الضوء على تأصيل هذا الأمر الخطير الذي إن أسيء فهمه كان بابا واسعا يلج منه الزنادقة لتحريف مراد الله من كلامه، ويتخذونه دينا يتدينون به، ولو علموا حقيقة أمرهم لعلموا على أنهم على دين مبدل، وشرع خلاف الشرع المنزَل

وأسأل الله القبول والوصول.

كتبه / محمد يحيى جادو.

* * *

(١) إعلام الموقعين ١/ ١٤٥

(٢) يقصد ما ذكره من لطائف وأسرار للأمثال القرآنية

(٣) إعلام الموقعين ١/ ١٤٥

الباب الأول

مصطلحات تأسيسية في البحث

تمهيد

لا يخفاك –أيها القارئ الكريم– أن ضبط الاصطلاح وتسمية الأمور بأسمائها الصحيحة هي أول خطوة في الطريق إلى معرفة حقائق الأشياء، فإذا استقام لك هذا الأمر فما بعده أيسر، وإن لم تستبن سبيل المصطلحات بحدود واضحة مفصحة جامعة مانعة، فإنك تسير في غير المسار، وتفرش في غير دار، ولا يزيدك التطبيق إلا بُعدًا عن الحقيقة، وهذا يبدأ أولا بأن ننحي مقولة (لا مشاحة في الاصطلاح) جانبًا، فما نزاعنا الآن إلا في تحرير المصطلحات، بل إنك لترى اعتماد الشرقيين على تأصيلات الغربيين ونظرياتهم اعتماد الضرير على البصير الذي به يسير، وما ذاك إلا لشدة اعتنائهم بضبط المصطلحات، فنزاع أصحاب المناهج العلمية والعلوم الإنسانية اليوم منصب على تحرير المصطلحات حتى أن الجادين من العلماء والباحثين في العلوم الشرعية قد لاحظوا هذا الأمر، وبدأت تتعالى صيحات الحق بضرورة تحرير المصطلحات، فهذا الدكتور سعد سعيد أحمد عبده ينادي في أحد أهم كتبه بضرورة هذا الأمر وشدة حاجتنا إليه بقوله: لقد تطرَّقتُ بالدِّراسة للعديد من الموضوعات، في عدة مجالات مختلفة، وفي كل مرَّة كانت تعرض لي ذات القضية ألا وهي أهميَّة ضبط الاصطلاح، وهي قضية في غاية الأهميَّة والخطورة لما يترتب على التَّقصير فيها من ضياع للدِّين، ومسخ للشَّريعة، فتجد اصطلاحات ضُبطت على غير القياس العربي ونسجت على غير منهاج النُّبوَّة ثم انتشرت بين الدُّعاة وطلبة العلم، وراج استعمالها حتى يعتقد أصحابُها أنها أصل الدِّين وينبوع العلم، وهي في حقيقتها زَبَد سرعان ما يذهب جُفاء إذا وُجِّهت إليه سهام منهاج النُّبوَّة، وكل يوم يمرُّ أزداد يقينًا بأنه ما حصلت الفُرقة بين طوائف الأُمَّة وما مُسخ العلم بين أفرادها في هذا العصر إلا

لأسباب أهمها: الأوَّل عدم ضبط الاصطلاح[١]، الثَّاني: النَّظر إلى المخالِف في هذا الاصطلاح غير المنضبط على أنه محلّ عداء لا محلّ دعوة. [٢]

وهذا كلام بصير، ولا ينبئك مثل خبير، ثم إنه قد قيل: «الألفاظ قوالبُ للمعاني»، فكل لفظة قالب لمعنىً معيَّن لا يُطابقها فيه لفظة أخرى، وإن اشتركا في المعنى فلا بُد أن تزيد إحداهما على الأخرى أو تنقُص، وإن بدت اللَّفظتان متقاربتيْن أو متطابقتيْن في المعنى فهناك ولا بُدّ فروق دقيقة تجعل كل لفظة منها تنفرد بمعنىً خاصّ بها؛ وإن اشتركا في الأصل الكُلي لكل منهما. ولقد سمعت مولانا العلامة محمد إبراهيم عبد الباعث الكتاني يقول: إن الترادف بين الألفاظ لا يقول به المحققون من أهل العلم.

قال أبو هلال العسكري: «كل اسميْن يجريان على معنى من المعاني، وعيْن من الأعيان، في لغة واحدة، فإن كل واحد منهما يقتضي خلاف ما يقتضيه الآخر، وإلا كان الثَّاني فضلًا لا يُحتاج إليه، وإلى هذا ذهب المحقِّقون من العُلماء»[٣].

وقال: «وكما لا يجوز أن يدُلّ اللَّفظُ الواحد على معنييْن، فكذلك لا يجوز أن يكون اللَّفظان يدلَّان على معنى واحد لأن في ذلك تكثيرًا في اللُّغة بما لا فائدة فيه»[٤].

وقال: «لا يجوز أن يكون (فَعَل وأفعل) بمعنى واحد، كما لا يكونان على بناء واحد إلا أن يجيء ذلك في لُغتين؛ فأما في لُغة واحدة؛ فمُحال أن يختلف

---

(١) أعتقد أن السَّبب الرَّئيس في عدم ضبط الاصطلاح إشاعة بعض المحسوبين علماء، برغم ما بينهم وبين العلم من بون شاسع عبارة «لا مشاحة في الاصطلاح» ثم يسرح بخياله كيف يشاء فيأتي باصطلاحات ما أنزل الله بها من سلطان تتعارض مع الدِّين من كل وجه، وتقوِّض ثوابته في كل فن، وإن ذهبت لتقوِّم اصطلاحه المعوج صرخ قائلا: «لا مشاحة في الاصطلاح» أقول: صدق، فهناك ألف مشاحة، لا مشاحة واحدة.

(٢) كتاب الحسد حقيقته أنواعه –مصادره–الوقاية منه–علاجه ص ٥٥٢

(٣) الفروق اللغوية ص (٢٢).

(٤) الفروق اللغوية ص (٢٣).

اللَّفظان؛ والمعنى واحد؛ كما ظنَّ كثير من النَّحويين واللُّغويين»[(١)].

وقال: «إذا كان اختلاف الحركات يُوجِب اختلاف المعاني؛ فاختلاف المعاني أنفُسها أولى أن يكون كذلك»[(٢)].

ومِنْ ثَمَّ فـإن «لكل كلمة مع صاحبتها مقامًا، وأن غيرها لا يُغني عنها، ولا يكون ذلك إلا بإدراك الفروق الدَّقيقة بين ما يُسمى بالمرادِفات»[(٣)]. [(٤)]

ونحن هنا أمام عدة مصطلحات وجب علينا أولا أن نعيد النظر في تحريرها، ومن ثم التفريق بينها، وهذا قدر لا يصح فيه الاختلاف، إذا الاختلاف فيه يفضي إلى تخالف الطرق، وتخبط الحكم في النتائج، وعدم وضوح منهج في الحكم على التطبيقات، فيا أيها القارئ الكريم، أعرني قلبك وعقلك في هذا الباب إذ لو استقام لك استقام لك سائر الكتاب، وإلا فلا، ولا يصدنك عن أخذ الحق الذي تجده؛ مخالفتي لنظريات بعض المعاصرين، فإن الحق يُعرَف بأنه حق، موافق لأصول النظر الصحيحة لا بالرجال القائلين به، فدونك هذه التحريرات وعض بنواجذك عليها، فهي محررة محققة، أزعم أنك لن تجدها في غير كتابي -بحمد الله- فإن التحرير عزيز، والتدقيق رقيق، ولله در من أتى بالجديد الجيد ليحرر مراد الله من كلامه ويميزه عن غيره.

* * *

(١) الفروق اللغوية ص (٢٤).

(٢) الفروق اللغوية ص (٢٤).

(٣) قاله؛ محمد إبراهيم سليم في مقدمة تحقيقه للفروق اللغوية ص (٧).

(٤) الحسد لسعد سعيد ص ٢٧-٢٨

المبحث الأول

التفسير

تدور مادَّةُ «فَسَرَ» في لُغةِ العربِ على معنى البيانِ والكشفِ والوضوحِ[١] ومما وردَ في ذلكَ: فَسَرْتُ الذِّراعَ: إذا كشفتُها. وفسَّرتُ الحديثَ: إذا بيَّنتُه.

وقد زعم قوم أن «فسر» مقلوب من «سفر[٢]»، وهذا القول ليس بسديد؛ لأن الأصل أن يكون للفظة ترتيبها، ودعوى القلب خلاف الأصل. كما أنه يكون لها المعنى الخاص بها الذي تستقل به. واشتراكها مع غيرها في معنى أصل المادة لا يعني أنها مشتقة منها، ولو ادعي العكس لما كان هناك ما يبين صحة إحدى الدعويين.[٣]

قال الآلوسي: «والقول بأنه مقلوب السفر مما لا يسفر له وجه»[٤]

والصحيح أنه كما بين المادتين تقارب في اللفظ، فكذلك بينهما تقارب في المعنى، كما قاله الراغب الأصفهاني [٥]

فعلى هذا يكون التفسير: هو شرحٌ وبيانٌ للقرآنِ الكريمِ، فما كانَ فيه بيانٌ، فهو تفسيرٌ، وما كان خارجاً عن حدِّ البيانِ، فإنَّه ليس من التَّفسيرِ، وإن وُجِدَ في كتبِ المفسِّرينَ. [٦]

وهذا البيان قد يكون بآية، وقد يكون بتفسير نبوي، وقد يكون بسنة عامة،

---

(١) ينظر في ذلك: مقاييس اللغة، لابن فارس (٤: ٥٠٤). وينظر مادة «فسر» في معاجم اللغة

(٢) ينظر على سبيل المثال: مقدمتان في علوم القرآن (ص: ١٧٣)، والبرهان في علوم القرآن (٢: ١٤٧)، والتيسير في قواعد علم التفسير (ص: ١٣٢).

(٣) مفهوم التفسير والتأويل لمساعد الطيار ص ٥٣

(٤) روح المعاني (١/ ٤).

(٥) ينظر: مقدمة جامع التفاسير، للراغب، تحقيق: الدكتور أحمد حسن فرحات (ص: ٤٧).

(٦) مفهوم التفسير والتأويل لمساعد الطيار ص ٥٣

وقد يكون بسبب نزول، وقد يكون باللغة، وقد يكون بذكر قصة الآية، وقد يكون بغيرها من المصادر التي هي من أنواع البيان عن معنى آي القرآن.

وهذا يعني أن المعلومات الخارجة عن حد البيان للآيات التي يذكرها المفسرون، ليست من صلب التفسير، وذكرهم لها في تفاسيرهم ليس حجة في إدخالها، لهذا قد يذكر بعضهم اعتراضات على بعض المفسرين، أو يذكر تنبيهًا في عدم دخول بعض المعلومات في التفسير، ومن ذلك:

١ - قال ابن عطية الأندلسي في تفسير قوله تعالى: {يا أيها النبي إذا طلقتم النساء} [الطلاق: ١]: «وطلاق النساء حل عصمتهن. وصور ذلك وتنويعه مما لا يختص بالتفسير»[١] [٢]

٢- قال أبو حيان: نَحْنُ: ضَمِيرُ رَفْعٍ مُنْفَصِلٌ لِمُتَكَلِّمٍ مَعَهُ غَيْرُهُ أَوْ لِمُعْظَمٍ نَفْسِهِ، وَفِي اعْتِلَالِ بِنَائِهِ عَلَى الضَّمِّ أَقْوَالٌ تُذْكَرُ فِي النَّحْوِ[٣]

٣-وقال ابن عطية: قال أبو حيان الأندلسي في تفسير قوله تعالى: {فاتوا بسورة من مثله} [البقرة: ٢٣]: «وقد تعرض الزمخشري هنا لذكر فائدة تفصيل القرآن وتقطيعه سورا، وليس ذلك من علم التفسير، وإنما هو من فوائد التفصيل والتسوير»[٤]

٤-وقال الشوكاني: في أول سورة الإسراء: «واعلم أنه قد أطال كثير من المفسرين، كابن كثير والسيوطي وغيرهما ـ في هذا الموضع بذكر الأحاديث الواردة في الإسراء على اختلاف ألفاظها، وليس في ذلك كثير فائدة، فهي معروفة في موضعها من كتب الحديث، وهكذا أطالوا بذكر فضائل المسجد الحرام والمسجد الأقصى، وهو مبحث آخر، والمقصود في كتب التفسير ما

(١) المحرر الوجيز، طـ: قطر (١٤/ ٤٨٩)
(٢) انظر مفهوم التفسير والتأويل للطيار ص ٥٥
(٣) البحر المحيط ١/ ١٠٠
(٤) البحر المحيط (١/ ١٦٩).

يتعلق بتفسير ألفاظ الكتاب العزيز وذكر أسباب النزول وبيان ما يؤخذ منه من المسائل الشرعية وما عدا ذلك فهو فضلة لا تدعو إليه حاجة»[١]

قال الطاهر بن عاشور في تفسير قوله تعالى: {الذين يظاهرون منكم من نسائهم} [المجادلة: ٢]: «ولم يشر القرآن إلى اسم الظهر، ولا إلى اسم الأم إلا مراعاة للصيغة المتعارفة بين الناس يومئذ، بحيث لا ينتقل الحكم من الظهار إلى صيغة الطلاق إلا إذا تجرد من هذه الكلمات الثلاث تجردًا واضحًا، والصور عديدة، وليست الإحاطة بها مفيدة، وذلك من مجال الفتوى، وليس من مهيع التفسير»[٢]

وأما إذا أردت مثالًا لعملية التفسير فكما نقول في معنى:

١- قوله تعالى: {نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين) أي: المسافرين. سموا بذلك: لنزولهم القواء وهو: القفر. فيكون المعنى: إنَّ في النار متاعًا للمسافرين إذ ينضجون بهم طعامهم، ويستدفئون بها، ويستصبحون بها، كما أنَّ فيها تذكرة بنار جنهم للمسافرين من دار الدنيا إلى دار الآخرة.

٢-ومثل قوله تعالى: {وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى (٤٨)}

أي وأن ربك هو أغنى من أغنى من خلقه بالمال وأقناه، فجعل له قنية أصول أموال. [٣]

فلم نزد، على أن بينا معنى لفظة (أغنى) ومعنى لفظة (أقنى) في سياقهما، وهذا هو حد التفسير لا أكثر من ذلك.

٣- ومثل قوله تعالى (فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ (٥٥)

---

(١) فتح القدير (٣/ ٢٠٨). علق مساعد الطيار بقوله: وكتابه لم يسلم من هذه الفضلة التي لا تدعو إليها حاجة.

(٢) التحرير والتنوير (٢٨/ ١٢)

(٣) تفسير الطبري ٢٢/ ٥٤٨

فعن ابن عباس قوله: (شُرْبَ الْهِيمِ) يقول: شرب الإبل العطاش[(١)]

ومثله عن عكرمة، وعن جمع من المفسرين [(٢)]

فانتهى حد التفسير للكلمة عند بيان معنى اللفظة في سياقها، وهذا القدر توقيفي على ما عند السلف من الأقوال.

فهذا القدر من المعنى وإن اختلفت العبارات في بيانه هو حد التفسير، ومثله يكون في الألفاظ المحتملة لأكثر من معنى، فكل من هذه الأوجه بيان وإن اختلفنا في تحديد أي منها مراد.

وقد أجاد الدكتور مساعد الطيار في تطبيق هذا المصطلح عند تفسيره لسورة الكوثر، وأنقله بتمامه لمطابقته لما حددناه في التعريف يقول: قوله تعالى: {إنا أعطيناك الكوثر * فصل لربك وانحر * إن شانئك هو الأبتر} [الكوثر: ١ - ٣].

أولاً: التفسير:

يخبر ربنا تبارك وتعالى نبيه، عن ذلك النهر العظيم في الجنة الذي اسمه الكوثر، وهو جزء من الخير الكثير الذي أعطاه إياه.

ثم أمره الله بأن يؤدي شكر هذه النعمة بأن تكون الصلاة والذبح له سبحانه لا كما يفعل المشركون الذين يذبحون للأصنام.

ثم أخبره أن مبغضه هو المنقطع عن كل خير، بخلافك أنت فيما أعطاك الله من الخير.

* * *

(١) تفسير الطبري ٢٣/ ١٣٥

(٢) تفسير الطبري ٢٣/ ١٣٥

وجوه التفسير في السورة:

ليعلم أن المراد هنا ذكر وجوه التفسير التي وردت في هذه الكتب، وليس المراد تصحيح هذه الوجوه أو تضعيفها؛ لأن المقام مقام بيان كونها تفسيرًا فحسب، وإليك ألفاظ الآية وما ورد فيها من وجوه:

الكوثر:

الوجه الأول: الكوثر: الشيء الكثير، ويكون المعنى: إنا وهبناك شيئًا كثيرًا، وهذا يشمل كل خير أعطاه الله لنبيه من خير الدنيا والآخرة، من النبوة، والقرآن، وكثرة الأتباع، والشفاعة، والحوض، وغيرها.

الوجه الثاني: الكوثر: النهر الذي أُعطيه في الجنة، ويكون المعنى: إنا وهبناك نهر الكوثر الذي في الجنة.

وفي الكوثر غير هذه الأقوال، قال أبو حيان معلقا عليها: «وينبغي حمل هذه الأقوال على التمثيل»[١]

الصلاة والنحر:

الوجه الأول: الصلاة والنحر على عمومهما، فيشمل كل صلاة وكل نحر، ويكون المعنى: اجعل صلاتك كلها، وذبائحك كلها لله ربك.

الوجه الثاني: صل يوم النحر صلاة العيد لأجل ربك، واذبح أضحيتك بعدها.

الوجه الثالث: اجعل صلاتك لله ربك، واجعل يديك على صدرك، قريبا من نحرك.

الوجه الرابع: اجعل صلاتك لله ربك، وارفع يديك عند الافتتاح للصلاة إلى نحرك.

---

(١) البحر المحيط (١٠/ ٥٥٦).

الوجه الخامس: اجعل صلاتك لله ربك، واستقبل القبلة بنحرك.

الشانئ الأبتر:

لم يقع خلاف في معنى الشانئ الأبتر، وأن معناه: إن مبغضك هو المقطوع؛ أي: عن الخير.

وما ورد من تحديد بعض الأعيان الذين نزل فيهم الخطاب لا يعني أن هذه التحديدات أقوال أخرى، بل هي أمثلة لمن يتصف بأنه مبغض للرسول، وأن هذا المبغض هو الذليل المقطوع عن كل خير[١]

وجملة القول أن ليس كل ما وجد في كتب التفسير هو من التفسير، والتفسير ما يكون به حد البيان لألفاظ القرآن.

* * *

(١) النقل بتمامه من مفهوم التفسير والتأويل لمساعد الطيار ١/ ٧٥-٧٧

المبحث الثاني

التأويل

تدورُ كلمةُ «أَوَلَ» في اللُّغةِ على معنى الرُّجوعِ[1]

وهو الرُّجوعُ به إلى مرادِ المتكلِّمِ، وهو على قسمين: **الأولُ**: بيانُ مرادِ المتكلِّمِ، وهذا هو التَّفسيرُ.

الثَّاني: الموجودُ الذي يؤول إليه الكلامُ، أي ظهورُ الـمُتكلَّمِ به إلى الواقعِ المحسوسِ.

فإن كانَ خبراً، كان تأويلُه وقوعُ الـمُخبَرِ به؛ كمن يقولُ: جاء محمَّدٌ، فتأويلُ هذا الكلامِ مجيءُ محمَّدٍ بنفسِه.

وإذا كانَ طلباً (أي: أمرًا أو نهيًا)، كان تأويلُه أن يفعلَ هذا الطلبُ.

وهذان المعنيان هما الواردان في القرآن والسنة وتفسير السلف واللغة.

الفرق بين معنيي التأويل السابقين: أن تفسير الكلام ليس هو نفس ما يوجد في الخارج، بل هو بيانه وشرحه وكشف معناه. فالتفسير من جنس الكلام، يفسر الكلام بكلام يوضحه.

وأما التأويل الذي هو فعل المأمور به، وترك المنهي عنه، وكذا وقوع المخبر به، فليس هو من جنس الكلام[2].

---

(١) جعل الراغب في مفردات ألفاظ القرآن (ص: ٩٩) التأويل من الأول؛ أي: الرجوع إلى الأصل، وأقره بن فارس في مقاييس اللغة.

(٢) انظر تفسير سورة الإخلاص، لابن تيمية، تحقيق: عبد العلي عبد الحميد حامد (ص: ١٦٧ - ١٦٨).

فالتفسير بيان بالمقال، والتأويل بيان بالحال، والله أعلم.

ومثال ذلك:

١ – ساق الطبري عن قتادة {جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب} [ص: ١١]، قال: «وعده الله وهو بمكة يومئذ أنه سيهزم جندًا من المشركين، فجاء تأويلها يوم بدر»(١)

٢– وساق عن معمر، عن أيوب، قال: لا أعلمه إلا عن عكرمة: أن عمر قال: «لما نزلت {سيهزم الجمع} [القمر: ٤٥]، جعلت أقول: أي جمع يهزم. فلما كان يوم بدر، رأيت النبي يثب في الدرع، ويقول: سيهزم الجمع ويولون الدبر»(٢).

أورد البخاري تحت تفسير قوله تعالى: {فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} [النصر: ٣]، عن عائشة قالت: «كان رسول الله يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي، يتأول القرآن»(٣)

علق النووي على هذا الحديث بقوله: مَعْنَى يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ يَعْمَلُ مَا أُمِرَ بِهِ فِي قَوْلِ اللَّهِ تعالى فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ توابا وَكَانَ ﷺ يَقُولُ هَذَا الْكَلَامَ الْبَدِيعَ فِي الْجَزَالَةِ الْمُسْتَوْفِي مَا أُمِرَ بِهِ فِي الْآيَةِ وَكَانَ يَأْتِي بِهِ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ لِأَنَّ حَالَةَ الصَّلَاةِ أَفْضَلُ مِنْ غَيْرِهَا فَكَانَ يَخْتَارُهَا لِأَدَاءِ هَذَا الْوَاجِبِ الَّذِي أُمِرَ بِهِ لِيَكُونَ أَكْمَلَ(٤)

فبيَّن أن تأويل الأمر أداؤه، وهو الذي فعله رسول الله ﷺ.

ويؤيدنا في ذلك الحافظ ابن حجر بقوله: يتأول القرآن يجعل ما أمر به من التسبيح والتحميد والاستغفار في أشرف الأوقات والأحوال(٥).

(١) تفسير الطبري، ط: الحلبي (٢٣/ ١٣٠).
(٢) تفسير الطبري، ط: الحلبي (٧/ ١٠٨)
(٣) ينظر: فتح الباري، ط: الريان (٨/ ٦٠٥)
(٤) شرح النووي على صحيح مسلم ٤/ ٢٠١
(٥) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٨/ ٧٣٤

وعن سعيد بن جبير، عن ابن عمر: «أنه كان يصلي حيث توجهت به راحلته ويذكر أن رسول الله ﷺ كان يفعل ذلك، ويتأول هذه الآية: {فأينما تولوا فثم وجه الله} [البقرة: ١١٥][(١)]

وروي عن الثوري: أنه بلغه أن أم ولد الربيع بن خثيم قالت: كان إذ جاءه السائل، يقول لي: يا فلانة، أعطي السائل سكرًا، فإن الربيع يحب السكر.

قال سفيان: يتأول قوله: {لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون} [آل عمران: ٩٢][(٢)]

والتأويل - كذلك - هو ما تؤول إليه حقائق الأشياء، مثال ذلك قول الإمام ابن كثير عند قوله تعالى(وَما أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَها كِتابٌ مَعْلُومٌ (٤) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَها وَما يَسْتَأْخِرُونَ (٥)

يخبر تَعَالَى إِنَّهُ مَا أَهْلَكَ قَرْيَةً إِلَّا بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهَا وَانْتِهَاءِ أَجَلِهَا، وَإِنَّهُ لَا يؤخر أمة حان هلاكها عن ميقاتهم وَلَا يَتَقَدَّمُونَ عَنْ مُدَّتِهِمْ، وَهَذَا تَنْبِيهٌ لِأَهْلِ مَكَّةَ وَإِرْشَادٌ لَهُمْ إِلَى الْإِقْلَاعِ عَمَّا هَمْ عليه مِنَ الشِّرْكِ وَالْعِنَادِ وَالْإِلْحَادِ الَّذِي يَسْتَحِقُّونَ بِهِ الهلاك. [(٣)]

فتفسير هذه الآيات أن الله لا يُهلك أمة إلا بأجل بعد قيام الحجة عليهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب، لكن نلاحظ أن الإمام ابن كثير انتقل من ظاهر اللفظ إلى بيان ما سيقَ اللفظ له، وهو تهديد أهل مكة ومن على شاكلتهم بمن سبقهم وبسنة الله الماضية في العصاة المكذبين، فالتأويل قدر زائدٌ عن تفسير الظاهر، ينتج عن تدبر الآية وهذا نوعٌ من التأويل.

والتأويل ناتج مراد - أصالة- من كلام الله تعالى، وهو مستخرج الأحكام

(١) تفسير الطبري، تحقيق: شاكر (٢: ٥٣٠).
(٢) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٤: ١٣٣).
(٣) تفسير ابن كثير ٤/ ٤٥٢

التكليفية، وكثير من أدلة الشرع إنما هي بموجب التأويل، مثال ذلك: ما رواه عَلْقَمَةَ، قَالَ: «لَعَنَ عَبْدُ اللَّهِ، الوَاشِمَاتِ وَالمُتَنَمِّصَاتِ، وَالمُتَفَلِّجَاتِ لِلْحُسْنِ المُغَيِّرَاتِ خَلْقَ اللَّهِ» فَقَالَتْ أُمُّ يَعْقُوبَ: مَا هَذَا؟ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: «وَمَا لِي لاَ أَلْعَنُ مَنْ لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ، وَفِي كِتَابِ اللَّهِ؟» قَالَتْ: وَاللَّهِ لَقَدْ قَرَأْتُ مَا بَيْنَ اللَّوْحَيْنِ فَمَا وَجَدْتُهُ، قَالَ: « وَاللَّهِ لَئِنْ قَرَأْتِيهِ لَقَدْ وَجَدْتِيهِ: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا} [الحشر: ٧][١]

فإذا أخرجنا كلمة (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) عن خصوص سببها إلى عموم لفظها، ومفهومها أمر المؤمنين باتباع السنة فإنها من مَا شَرَعَهُ النَّبِيُّ لِأُمَّتِهِ فَيَلْزَمُ اتِّبَاعُهُ فِي ذلك [٢]

ومن باب التأويل ما استفاده الأئمة من تحريم الاستمناء باليد من قوله تعالى (والذين هم لفروجهم حافظون، إلا على أزواجهم. . . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون) لأن عموم لفظ (ما وراء) يشتمل على كل ما خلا الزوج وملك اليمين، فدخل فيه ذلك[٣]

ومن ذلك ما أخذ منه الإمام الشافعي حجية الإجماع من آية ((وَمن يُشَاقق الرَّسُول من بعد مَا تبين لَهُ الْهدى وَيتبع غير سَبِيل الْمُؤمنِينَ نوله مَا تولى ونصله جَهَنَّم وَسَاءَتْ مصيرا) فكأنه يقول لا تخالفوا جماعة المؤمنين، ومفهومه: وافقوهم حال إجماعهم ولا يكون العقاب على ترك شيىء إلا كان واجبا[٤]

فلما كان التأويل من مراد الله أخذت منه الأحكام التكليفية، إذ لا يصح أخذ الحكم إلا من أمر مراد، وإلا بني الدين على الأقاويل والتكهنات

* * *

(١) أخرجه البخاري برقم ٥٩٣٩

(٢) انظر الفقيه والمتفقه ص ٢٥٨

(٣) انظر تفسير القرطبي ١٢/ ١٠٦

(٤) انظر المحصول لابن العربي ص ١٢٢، وانظر باب الإجماع في كتب أصول الفقه.

المبحث الثالث

الاستنباط

تدورُ مادَّةُ «نَبَطَ» على أصلٍ واحدٍ، وهو استخراجُ شيءٍ[1]، والألف والسين والتاء في استنبط تدلُّ على تطلُّبِ الشيءِ لأجلِ حصولِه، وكأنَّ فيها معنى التَّكلُّفِ في إعمالِ العقلِ الذي يحتاجُه المستنبطُ حال الاستنباطِ، واللهُ أعلمُ. [2]

ومن هذا المعنى اللغوي للاستنباط يتبين أنه عملية عقلية لها وسائل ومقدمات ومخرجات.

قال الطبري: «وكل مستخرج شيئا كان مستترًا عن العيون أو عن معارف القلوب، فهو له مستنبط، يقال: استنبطت الركية: إذا استخرجت ماءها»[3]

وبالتأمل في كلام الطبري تجده يؤكد كون الاستنباط عملية عقلية، فشبهها بحال مستخرج الماء، ولا شك أن الاستخراج هذا عملية عقلية أو بدنية، فقاس الاستخراج المعنوي على الاستخراج الحسي ليتبين مراده بالاستنباط

ومثله قول الصغاني: «وكل شيء أظهرته بعد خفائه: فقد أنبطته واستنبطته. وقوله تعالى: {لعلمه الذين يستنبطونه منهم} [النساء: ٨٣]؛ أي: يستخرجونه.

ويقال: استنبط الفقيه: إذا استخرج الفقه الباطن بفهمه واجتهاده»[4]

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة (٥/ ٣٨١)، والعباب الزاخر واللباب الفاخر، للصغاني، تحقيق: محمد حسين آل ياسين (حرف الطاء: ٢٠٨).

(٢) مفهوم التفسير والتأويل للطيار ص ص ١٥٩

(٣) تفسير الطبري، تحقيق: شاكر (٨/ ٥٧١).

(٤) العباب الزاخر واللباب الفاخر، للصغاني، تحقيق: محمد حسين آل ياسين (حرف الطاء: ٢٠٧).

فعلى هذا فالاستنباط هو العملية العقلية التي يستخرج بها نواتج النص، بوسائل متنوعة كالنظر والتفكر والتدبر وغيرها، وهذا الناتج لا يخلو عن أن يكون مرادًا قطعا فذلك التأويل، أو أن يكون غير مراد أصالة، فتلكم الإشارة.

وأما وسائل الاستنباط فهي كل وسيلة تساعد في استنباط ما جل ودق من الآية ومن ذلك

١-التذكر: يكون باستحضار خبرة سابقة

٢-الاعتبار: قياس الغيب على الشهادة أو العبور من معرفة المشاهد إلى ما ليس بمشاهد.

٣-النظر: إعمال للعين ينقدح في القلب، فيستبصر

٤-التأمل: نظر مؤمّل متكرر.

٥-الاستبصار: تشوف للغائب ولو على غير قياس يجلى بقوة البصيرة.

٦-التفكر: أعم من حيث إنه لا يقتصر على قياس الغائب على الشاهد وإنما يكون مركبا من أكثر من شيء مما مر أو من مجموعها كلها، مما يدرك به العلم، فيبدأ تذكرا ـ، وينتهي استبصارا.

٧-التدبر: التفكر المجدود باستحضار المفقود، فكأنه مشهود، وكأن الناظر إليه من شدة استحضاره له ينظر إليه مقبلًا فمدبرا، فتستوي عنده قوادمه وخوافيه.

كل هذه الآليات هي آليات ووسائل يستخدمها المستنبط في أثناء عملية الاستنباط، ليخرج لنا بها نواتج من تفسير أو تأويل أو إشارة، فالاستنباط أعم من كل هذه النواتج الخاصة، فلا يصح أن نقف عنده، حتى لا تلتبس المخرجات ببعضها، وحتى نستطيع أن نفرق بين ما هو تفسير وبين ما هو تأويل وبين ما هو إشارة.

فمهم جدا أن نفرق بين عملية الاستنباط التي لها وسائلها وآلياتها وبين ناتج هذه العملية، وهي كمعادلة رياضية تجرى على النص الظاهر، فإعمال أدوات

الاستنباط وآلياته من فكر ونظر وتدبر وتفكر واعتبار. . الخ يعطي نواتج المعادلة وهي نوعان كما في المعادلات الكيميائية، ناتج أولي مراد، وهو الذي أجريت المعادلة لأجله، وناتج ثانوي لم يكن غرضا لنا ولا قائم بذهننا، حين إجراء المعادلة، ولكنه نتج من ذات المعادلة، فإذا ما سحبنا هذا المثال التقريبي لقضيتنا كانت صورتها كما يلي: نص ظاهر تعمل فيه آلات الاستنباط ليخرج ناتجان، ناتج أولي مراد وهو التأويل، وناتج ثانوي غير مراد ابتداءً وهو الإشارة. وما احتمله الناتجان فهو قدر متنازع بينهما.

ومثال آخر يتضح به المقال، لو أن مسافرا من بلد إلى بلد يقصد بيتا معينا، فإنه في سيره يسترشد بالمنازل والأمارات والعلامات التي يجدها في طريقه إلى مقصده، فالبيت الذي يقصده هذا هو مراده، وهو يقوم مقام التأويل الناتج من النص، لكنك تلاحظ أنه استفاد بهذه البيوت المنصوبة في طريقه واهتدى بها، وأنت تجزم أن هذه البيوت ما أنشأها أصحابها ليهتدي بها المارة في الطريق، بل أنشئت للمسكن والمعاش، لكن لم يمنع المسافر أن يهتدي بها ويسترشد من خلالها ، وهكذا نقول، إن مراد الله من كلامه إذا كان من ذات اللفظ هو التفسير كما بينا في مبحث التفسير، وإذا كان بما يؤول إليه النص، أو يدل عليه بدلالة عموم أو خصوص أو مفهوم أو مخالفة، فهو تأويل، وأما ما يمكن أن يستفاد من حكاية السياق وكلمته وهو غير مراد رأسًا فهو الإشارة.

وهذا التنظير والتقرير يتفق على كثير منه بعض المعاصرين، ولكن وقع كثير منهم في التناقض ومجانبة الصواب عند التطبيق، فمثلا نجد الأستاذ الدكتور مساعد الطيار يوافقنا في بعض كلامنا بقوله:

وعلى هذا يكون الاستنباط: ربط كلامٍ له معنى بمدلول الآيةِ، بأي نوع من أنواع الربطِ، كأن يكون بدلالة إشارةٍ أو دلالٍة مفهومٍ، أو غيرها. (١)

(١) مفهوم التفسير والتأويل لمساعد الطيار ص ١٦٢

وكلُّ كلامٍ رُبِطَ بمعنى الآيةِ فإنه من هذا الباب؛ لأنَّ الذي يقول به يرى أنَّ الآيةَ دلَّت عليه بأيٍ نوعٍ من أنواع الدِّلالة.

وقد يكون استنباطَ حكمٍ فقهيٍّ، أو يكونُ استنباطَ أدبٍ تشريعيٍّ عامٍّ، أو يكونُ استنباطَ أدبٍ أخلاقيٍّ في معاملةِ الناسِ، أو يكونُ استنباطَ فوائدَ تربويةٍ تتعلق بتزكيةِ النفوسِ، أو يكون استنباطَ فائدةٍ علميةٍ. [١]

ومع ذلك نجده يسمي النواتج النهائية لهذه العملية باسم العملية نفسها بقوله هي استنباطات فلم يحصل له التفريق بين التأويل والإشارة اللذين يحصلان بموجب هذه العملية وهى الاستنباط مما أدي إلى اضطراب قول الشيخ في هذا الباب جدا حتى قال بنفسه: وهذا الباب يمثل جانبا مشكلا في علم التفسير[٢]

ثم مثل على مفهومه بما يدل على التباس عنده وعدم تحديد واضح بين المفاهيم، لاسيما عند التطبيق، فهو يضرب مثلًا بقوله:

١ - ما يستنبط من قوله تعالى: {أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد تلك حدود الله فلا تقربوها كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون} [البقرة: ١٨٧]، قال الجصاص (ت: ٣٧٠): «وفيها الدلالة على أن الجنابة لا تنافي صحة الصوم لما فيه من إباحة الجماع من أول الليل إلى آخره مع العلم بأن المجامع في آخر الليل ـ إذا صادف فراغه من الجماع طلوع الفجر ـ يصبح جنبا، ثم حكم ـ مع ذلك ـ بصحة صومه بقوله: {ثم أتموا الصيام إلى الليل}»[٣]

---

(١) انظر مفهوم التفسير والتأويل لمساعد الطيار ص ١٦٢

(٢) مفهوم التفسير والتأويل لمساعد الطيار ص ١٧٦

(٣) أحكام القرآن، للجصاص (١: ٢٨٨).

نقول هذا المثال الذي ذكره الشيخ لا يقال عنه أنه استنباط كناتج، أما أنه جاء بطريق الاستنباط فهذا حق لا خلاف فيه، أما هو من حيث كونه ناتجا لا يخلو عن أن يكون تأويلا مرادا رأسا، أو يكون إشارة غير مرادة رأسا. وهنا نقول هل مراد الله هنا بيان صحة صيام الجنب؟ نقول ليس مراد الله أولا، بل مراده الأمر بالصيام من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، فبيان معنى الإتمام بالإكمال يسمى مقام تفسير، وصيام اليوم من أوله إلى آخره تأويل، واستفادة القول بصحة الصيام مع الجنابة مقام إشارة، إذ لم تأت الآية لبيان ذلك رأسا، وإنما هذا يستصحب من كلمة الآية لا من لفظها، فنقول الآية تشير إلى ذلك وهي إشارة فقهية.

ويوافقنا في ذلك الإمام الحافظ السيوطي بقوله: فيه إباحة الجماع وأنواع المباشرة والأكل والشرب إلى تبين الفجر وتحريم المذكورات نهاراً، واستدل به على صحة صوم الجنب لأنه يلزم من إباحة الجماع إلى تبين الفجر إباحته في آخر جزء من أجزاء الليل، ويلزم من ذلك بطريق الإشارة طلوع الفجر وهو جنب. [١]

فقد صرح الإمام السيوطي بكون هذا الناتج من عملية الاستنباط إشارة، ولم يقتصر على تسميته باللفظ العام وهو الاستنباط، بل يسميه بخصوصه وهو الإشارة.

ثم يتابع الشيخ الدكتور مساعد الطيار التمثيل على على فكرته هذه بنقل لشيخ الإسلام ابن تيمية في معرض حديثه عن الإسرائيليات، قال: «. . . . ولكن نقل الخلاف عنهم في ذلك جائز كما قال تعالى: {سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهرا ولا تستفت فيهم منهم أحدا} [الكهف: ٢٢]، فقد اشتملت هذه الآية الكريمة على الأدب في هذا المقام وتعليم ما ينبغي في مثل هذا فإنه تعالى أخبر عنهم بثلاثة أقوال، ضعف

(١) الإكليل في استنباط التنزيل ١/ ٤١

القولين الأولين وسكت عن الثالث، فدل على صحته، إذ لو كان باطلا لرده كما ردهما، ثم أرشد إلى أن الاطلاع على عدتهم لا طائل تحته، فيقال في مثل هذا: {قل ربي أعلم بعدتهم}، فإنه ما يعلم بذلك إلا قليل من الناس ممن أطلعه الله عليه، فلهذا قال: {فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهرا}؛ أي: لا تجهد نفسك فيما لا طائل تحته، ولا تسألهم عن ذلك فإنهم لا يعلمون من ذلك إلا رجم الغيب.

فهذا أحسن ما يكون في حكاية الخلاف: أن تستوعب الأقوال في ذلك المقام، وأن ينبه على الصحيح منها ويبطل الباطل، وتذكر فائدة الخلاف وثمرته لئلا يطول النزاع، والخلاف فيما لا فائدة تحته، فيشتغل به عن الأهم.

فأما من حكى خلافا في مسألة ولم يستوعب أقوال الناس فيها فهو ناقص، إذ قد يكون الصواب في الذي تركه، أو يحكي الخلاف ويطلقه ولا ينبه على الصحيح من الأقوال، فهو ناقص أيضا، فإن صحح غير الصحيح عامدا فقد تعمد الكذب، أو جاهلا فقد أخطأ.

كذلك من نصب الخلاف فيما لا فائدة تحته، أو حكى أقوالا متعددة لفظا ويرجع حاصلها إلى قول أو قولين معنى، فقد ضيع الزمان وتكثر بما ليس بصحيح، فهو كلابس ثوبي زور، والله الموفق للصواب»[١]

وعند تأمل كلام الإمام ابن تيمية نجده دليلا على ما قررناه، فتأمل –هداني الله وإياك للصواب – قوله (اشتملت الآية) تدل على تضمن الآية على مقامي التأويل والإشارة، وقوله (أرشد إلى) هو الدلالة على التأويل، فتأويل الأمر تنفيذه وهذا يقرره الدكتور مساعد نفسه –تنظيرا– بقوله: وإذا كان طلبا (أي: أمرا أو نهيا)، كان تأويله أن يفعل هذا الطلب. [٢]

وما قرره ابن تيمية –في هذه الآية – هو من باب الإشارة إذ لم تأت الآيات

(١)) مقدمة في أصول التفسير، تحقيق: عدنان زرزور (ص: ١٠٠ – ١٠٢).

(٢) مفهوم التفسير والتأويل لمساعد الطيار ص ٩٢

لبيان العدد وإلا لما اختلف المفسرون في بيان هذا، وهي إشارة لبيان العدد إن قبلت.

ثم إنك إذا ذهبت تفسر هذه الآية لقلت: رُوِيَ أَنَّ السَّيِّدَ وَالْعَاقِبَ وَأَصْحَابَهُمَا مِنْ نَصَارَى أَهْلِ نَجْرَانَ كَانُوا عِنْدَ النَّبِيِّ فَجَرَى ذِكْرُ أَصْحَابِ الْكَهْفِ، فَقَالَ السَّيِّدُ وَكَانَ يَعْقُوبِيًّا: كَانُوا ثَلَاثَةً رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ، وَقَالَ الْعَاقِبُ وَكَانَ نُسْطُورِيًّا: كَانُوا خَمْسَةً سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ.

وَقَالَ المسلمون: كانوا سبعة وثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ، فَحَقَّقَ اللَّهُ قَوْلَ المسلمين بعد ما حَكَى قَوْلَ النَّصَارَى، فَقَالَ: سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ، أَيْ: ظَنًّا وَحَدْسًا مِنْ غَيْرِ يَقِينٍ، وَلَمْ يَقُلْ هَذَا فِي حَقِّ السَّبْعَةِ، فَقَالَ: وَيَقُولُونَ يَعْنِي: الْمُسْلِمِينَ، سَبْعَةٌ وَثامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ، قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ، أَيْ: بِعَدَدِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ، أَيْ: إِلَّا قَلِيلٌ مِنَ النَّاسِ، فَلا تُمارِ فِيهِمْ، أَيْ: لَا تُجَادِلْ وَلَا تَقُلْ فِي عَدَدِهِمْ وَشَأْنِهِمْ، إِلَّا مِراءً ظاهِراً، إِلَّا بِظَاهِرِ مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ، يَقُولُ حسبك ما قصصنا عَلَيْكَ فَلَا تَزِدْ عَلَيْهِ وَقِفْ عِنْدَهُ، وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ، مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، أَحَداً أَيْ: لَا تَرْجِعْ إِلَى قَوْلِهِمْ بَعْدَ أن أخبرناك.[١]

وأما تأويل هذه الآية أنه من المكروه الجدال والمراء فيما لم يعلمه المرء بيقين، وأنه لا يسأل العبد أحدا شيئا لا عمل يبنى عليه، فتأويل الآية النهي عن المراء[٢]

ومثل ما رواه الإمام الشافعي بسنده عن عكرمة قال: دخلت على ابن عباس رضي الله عنهما، وهو يقرأ في المصحف - قبل أن يذهب بصره - وهو يبكي؛ فقلت ما يبكيك يا ابن عباس؟ جعلني الله فداك. فقال: هل تعرف (أَيلَةَ) ؟قلت: وما (أيلة) ؟ قال: قرية كان بها ناس من اليهود، فحرّم اللَّه عليهم الحيتان يوم السبت، فكانت حيتانهم تأتيهم يوم سبتهم

(١) انظر تفسير البغوي ٣/ ١٨٦

(٢) انظر مفاتيح الغيب للرازي ٢١/ ٤٤٩

شرعاً - بيض سِمان: كأمثال المخاض، بأفنيتهم وأبنيتهم، فإذا كان في غير يوم السبت لم يجدوها، ولم يدركوها إلا في مشقة ومؤنة شديدة، فقال بعضهم - أو من قال ذلك منهم -، لعلنا لو أخذناها يوم السبت، وأكلناها في غير يوم السبت، ففعل ذلك أهل بيت منهم: فأخذوا فشووا، فوجد جيرانهم ريح الشوي، فقالوا: واللَّه ما نرى إلا أصاب بني فلان شيء، فأخذها آخرون، حتى فشا ذلك فيهم فكثر، فافترقوا فرقاً ثلاثاً: فرقة: عملت. وفرقة: نهت. وفرقة قالت: (لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا) الآية. فقالت الفرقة التي نهت: إنا نحذركم غضب الله وعقابه، أن يصيبهم اللَّه بخسف، أو قذف، أو ببعض ما عنده من العذاب، والله لا نبايِتُكم في مكان، وأنتم فيه. قال: فخرجوا من البيوت فغدوا عليهم من الغد، فضربوا باب البيوت، فلم يجبهم أحد، فأتوا بسُلَّم، فأسندوه إلى البيوت، ثم رقى منهم راق على السور، فقال: يا عباد الله قردة، والله لها أذناب، تعاوي ثلاث مرات، ثم نزل من السور ففتح البيوت، فدخل الناس عليهم، فعرفت القرود أنسابها من الإنس، ولم يعرف الإنس أنسابها من القرود. قال: فيأتي القرد إلى نسيبه وقريبه من الإنس، فيحتك به، ويلصق، ويقول الإنسان: أنت فلان؛ فيشير برأسه، أي: نعم، ويبكي. وتأتي القردة إلى نسيبها وقريبها من الإنس، فيقول لها الإنسان: أنت فلانة؟ فتشير برأسها، أي: نعم، وتبكي، فيقول لها الإنسان إنا حذرناكم غضب اللَّه وعقابه، أن يصيبكم بخسف، أو مسخ، أو ببعض ما عنده من العذاب.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: واسمَع، اللَّه -ﷻ- يقول: فـ(أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ) الآية. فلا أدري ما فعلت الفرقة الثالثة. قال ابن عباس رضي الله عنهما: فكم قد رأينا من منكر، لم ننه عنه!

قال عكرمة: ألا ترى (جعلني الله فداك) أنهم أنكروا وكرهوا، حين قالوا: (لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا) ؟! الآية، فأعجبه قولي ذلك،

وأمر لي ببردين غليظين، فكسانيهما. [١]

وهذا الأثر إذا صح عن ابن عباس فهو من قبيل الإشارة-بلا ريب-فإن الآية ما جاءت إلا لتخبر- أصالة- عن نجاة الطائعين، وهلاك العاصين، ففهم هو معنى من سياق الآيات أو كلمة الجملة عدم وجود ذكر للطائفة الثالثة، ففهم أن الله سكت عن من سكت عن الأمر والنهي، وهذا لا يدل عليه ذات اللفظ ولا تأويله، فهو إشارة، ومما يدل على ذلك أن لو كان هذا من قبيل التفسير أو التأويل ما تردد في ذلك ابن عباس، وقبل كلام عكرمة إذ ما قاله عكرمة هو تفسير النص، وذلك مقدم على ما سبق إليه ذهن ابن عباس من الإشارة،

وقد وجدت من نصوص العلماء ما يؤكد ما ذهبت إليه، ومن النصوص المهمة في ذلك ما قاله الإمام أبو منصور الماتريدي: وقال بعضهم: ولكنا لسنا نعلم أنهم كانوا في الهلكى أو في الناجين، وليس لنا إلى معرفة ذلك حاجة، ولو كان لنا حاجة إلى ذلك لبينه لنا ولم يترك ذلك لآرائنا، سوى أنه بين من نجا منهم بالنهي عن الظلم والعدوان، وبين من أهلك وعذب بالظلم والعدوان بقوله: (أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ)[٢].

فلا يمكن أن يكون هذا تفسيرا أو تأويلا وهما مرادا الله تعالى، إذ لا يمكن أن يقول ابن عباس شيئا في مراد الله ليس له به علم، وإلا فهذا لا سبيل له إلا الإشارة

ثم كرر الأستاذ الدكتور مساعد نفس الإشكال في نقل عن الإمام السيوطي، لم يفرق فيه أيضا بين عملية الاستنباط وبين ناتجها من التأويل والإشارة، حتى إنه يختلف وصفه لها فيسميها أحيانا بالاستنباطات، ويسميها -أحيانا- بالفوائد[٣]، مما يدل على نقص في تحرير هذه المصطلحات، وعدم وضوح المنهج في تطبيقها، وإن كان الشيخ من كبار المحررين والمدققين -حفظه الله-.

---

(١) تفسير الإمام الشافعي ٢/ ٨٥٨-٨٥٩

(٢) تأويلات أهل السنة ٥/ ٧٣

(٣) انظر مفهوم التفسير والتأويل لمساعد الطيار ص ١٦٤

يقول الأستاذ الدكتور مساعد الطيار: من جملة الاستنباطات والفوائد في قصة موسى مع الخضر، التي ذكرها السيوطي قال: «فيها: أنه لا بأس بالاستخدام واتخاذ الرقيق والخادم في السفر.

واستحباب الرحلة في طلب العلم. واستزادة العالم من العلم.

واتخاذ الزاد للسفر، وأنه لا ينافي التوكل. ونسبة النسيان مجازا وتأدبا عن نسبتها إلى الله تعالى. وتواضع المتعلم لمن يتعلم منه، ولو كان دونه في المرتبة. واعتذار العالم إلى من يريد الأخذ عنه في عدم تعليمه ما لا يحتمله طبعه. وتقديم المشيئة في الأمر. واشتراط المتبوع على التابع. وأنه يلزم الوفاء بالشرط. وأن النسيان غير مأخوذ به. وأن الثلاث اعتبارا في التكرار ونحوه. وأنه لا بأس بطلب الغريب للطعام والضيافة. وأن صنع الجميل لا يترك ولو مع اللئام. وجواز أخذ الأجرة على الأعمال. وأن المسكين لا يخرج عن مسكنته بكونه له سفينة أو آلة تكسب أو شيء لا يكفيه.

وأن الغصب حرام. وأنه يجوز إتلاف مال الغير وتعييبه لوقاية باقيه؛ كمال المودع واليتيم. وإذا تعارضت مفسدتان ارتكب الأخف. وأن الولد يحفظ بصلاح أبيه[١]...»[٢]

وما ذكره الإمام السيوطي من فوائد إنما هي إشارات إذ لم تأت الآيات لتبين لنا هذه المرادات، وإنما هي إشارات تستفاد من حكاية الآيات وجملتها وكلمتها، لا من مفردات الألفاظ، وفي هذا تنبيه مهم جدا، وهو أنه ربما أشكل على البعض كون هذه الفوائد السهلة هي إشارات، لما شاع في أذهان الباحثين والقراء من ارتباط الإشارات بالخفاء والدقة، ولطف المأخذ، وهذا ليس بلازم أبدا، بل كثير من الإشارات سهلة قريبة المأخذ كأن نأخذ من قوله (بسم الله الرحمن الرحيم)،

---

(١) الإكليل في استنباط التنزيل (ص: ١٤٧)

(٢) مفهوم التفسير والتأويل ص ١٦٤-١

إثبات الصفات الذاتية لله تعالى[١] فهذه إشارة من البسملة، وليست بعيدة، ولا خفية، بل بادية ظاهرة

ومثل ما نستخرجه من الإشارة من قوله تعالى (هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشدا)

فيؤخذ منه استحباب التلطف في الطلب مع الشيوخ ، واستحباب الإستئذان في الأخذ عنهم

ومثل هذه الفوائد قريبة المأخذ، سهلة، ليس بها خفاء ولا عناء في استخراجها، وهي عند العلماء الأكابر إشارات، فلا يلزم أبدا أن تكون الإشارة دقيقة المأخذ، لطيفة خفية. . .

وكذا نقول في التأويل لا يلزم من كونه تأويلا أن يكون صعبا على الفهم، دقيقا على الذهن، فمثلا، لعل المعاصرين أو كثيرا منهم، يعجب أشد العجب حينما ننقل له كلام الإمام الرازي عند قوله تعالى: {ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون}

قال الرازي: يتضمن الأمر بالصلاة والزكاة. [٢]

وهذا الكلام على وضوحه وجلائه هو من باب التأويل، وكذا أيضا نقول إن كثيرا من المعاصرين يسبق إلي ذهنهم أنه متى كان المقام مقام تفسير فإنه يكون سهلا ويسيرا، وهذا غالب ولكنه ليس بلازم أيضا، بل هذا المتكلم إذا عرضنا عليه بعض الآيات وطلبنا منه تفسيرها، فإنه يستشكلها غاية الاستشكال، وما له لا يستشكلها وقد أشكلت على الكبار الفحول من أئمة التفسير، ومن أمثلة ذلك.

(١) انظر الإكليل في استنباط التنزيل ص ٢٥
(٢) انظر الإكليل في استنباط التنزيل ص ٠٢٧

(قروء)

(أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم به)

(قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا)

ما ذكره الإمام السمعاني عند قَوله: {وَإِن يَك صَادِقا يصبكم بعض الَّذِي يَعدكُم} قال الإمام: هَذِه آيَة مشكلة؛ لِأَنَّهُ قَالَ: {بعض الَّذِي يَعدكُم} وكل مَا وعده الرُّسُل ومُوسَى حق[1].

مع أن الآية واضحة الألفاظ، يبدو ظاهرها أنه ليس بغريب لكن المعنى المراد تفسيره مشكل مع معنى آية أخرى، وكل هذا ما زال في حيز التفسير!

ثم راح الإمام يجيب عن هذا الإشكال من وجوه بقوله:

وَالْجَوَاب عَن هَذَا من وُجُوه أَحدهَا: أَن معنى قَوْله: {يصبكم بعض الَّذِي يَعدكُم} أَي: كل الَّذِي يَعدكُم) فَيكون الْبَعْض بِمَعْنى الْكل، قَالَه أَبُو عُبَيْدَة، وَأنْشد:

(أَو يرتبط بعض النُّفُوس حمامها. . .)

أَي: كل النُّفُوس

وَأنْشد غَيره:

(قد يدْرك المتأني بعض حَاجته. . . وَقد يكون مَعَ المستعجل الزلل. . .)

وَقَوله: بعض حَاجته أَي: كل حَاجته.

وَالْوَجْه الثَّانِي: أَنه قَالَ: {بعض الَّذِي يَعدكُم} على طَرِيق الِاسْتِظْهَار، كَأَنَّهُ قَالَ: أقل مَا فِي تكذيبكم إِن كَانَ صَادِقا أَن يصبكم بعض الَّذِي يَعدكُم. وَفِي ذَلِك الْبَعْض هلاككم. وَزعم أهل النَّحْو أَن هَذَا أحسن من الأول؛ لِأَن الْبَعْض بِمَعْنى الْكل لَا يعرف فِي اللُّغَة.

---

(١) تفسير السمعاني ٥/ ١٦

وَالْوَجْه الثَّالِث: أَن قَوْله: {يصبكم بعض الَّذِي يَعدكُم} أَي: عَذَاب الدُّنْيَا، وَقد كَانَ وعدهم عَذَاب الدُّنْيَا وَالْآخِرَة.

وَالْوَجْه الرَّابِع: أَن قَوْله: {يصبكم بعض الَّذِي يَعدكُم} أَي: من الْعقَاب، وَقد كَانَ وعد الْعقَاب إِن أَنْكَرُوا، وَالثَّوَاب إِن صدقُوا، وَالْعِقَاب بعض الْوَعيد.[١]

وأيضا مثل قوله تعالى: «فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ»

علق الإمام ابن العربي عليها بقوله: قال ابن العربي: هذه آية مشكلة، عضلة من العضل[٢]

فهذا الإمام ابن العربي العلامة الكبير يستشكل مواضع وهي من التفسير لا أكثر

ومثل ذلك أيضا ما قاله هو عند قوله تعالى (والوالدات يرضعن أولادهن....) علق بقوله: هَذِهِ الْآيَةُ عُضْلَةٌ وَلَا يُتَخَلَّصُ مِنْهَا إلَّا بِجُرَيْعَةِ الذَّقَنِ مَعَ الْغَصَصِ بِهَا بُرْهَةً مِنْ الدَّهْرِ؛ وَفِيهَا خَمْسَ عَشْرَةَ مَسْأَلَةٍ....[٣]

ومثل ذلك ما ذكره القرطبي عند قوله تعالى {تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد (٢٥٣)

قال: وهذه آية مشكلة المعنى....[٤]

وقال مثل ذلك عند قوله تعالى: ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به

(١) تفسير السمعاني ٥/ ١٦-١٧
(٢) أحكام القرآن لابن العربي ١/ ١٧٠
(٣) أحكام القرآن ١/ ٢٧٣
(٤) تفسير القرطبي ٣/ ٢٦١

أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون (١١٠)

قال: هذه آية مشكلة، ولا سيما وفيها «ونذرهم في طغيانهم يعمهون». [١]

وقال أيضا عند قول الله تعالى: وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين (١٧٢)

قوله تعالى: (وإذ أخذ ربك) أي واذكر لهم مع ما سبق من تذكير المواثيق في كتابهم ما أخذت من المواثيق من العباد يوم الذر. وهذه آية مشكلة. . . . . وسنذكر فيها ما ذكره العلماء بحسب ما وقفنا عليه[٢]

وكقوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم} الآية.

قال مكي: هذه الآية أشكل ما في القرآن إعرابا ومعنى وحكما[٣]

وهو أيضا هنا لم يجاوز بعد مقام التفسير، ومع ذلك يستشكل الآية جدا، وهو من هو فهما وعلما ورسوخا في علم التفسير!

وعند قوله تعالى (اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته. . .)

قَالَ الْوَاحِدِيُّ: وهذه آية مشكلة، وليس للمفسرين ولا لأهل المعاني فيها بيان ينتهى إليه وأقوالهم مختلفة متدافعة[٤]

فما هو منتشر بين المعاصرين من ارتباط للخفاء بالإشارة، وارتباط الجلاء بالتفسير هو أمر أغلبي لكنه ليس بلازم، ولعل هذا لحق كثيرا منهم، لقلة معايشتهم لتطبيقات العلماء المفسرين من المتقدمين والمتأخرين، ولعل هذا مناسبا لنسوق

---

(١) تفسير القرطبي ٧/ ٦٥

(٢) انظر تفسير القرطبي ٧/ ٣١٤

(٣) الإكليل في استنباط التنزيل ص ١١٥

(٤) التفسير البسيط ٢١/ ٣٢١

نصيحة مهمة لطلاب علم التفسير، وهو أن يعضوا بنواجذهم على تطبيقات علماء السلف في التفسير فهم أكمل الناس عقلا، وأصفى الناس فهما، وكثير من النظريات المعاصرة خطأها من هذا الوجه، وهو قلة العناية بتطبيقات السلف، كما هو الحال في نظرة المعاصرين للإسرائيليات، وغيرها، ومثل هذا الباب باب الاستنباط الإشاري، وهنا أؤكد نصيحتي لطلاب العلم أن لا يعولوا – كثيرا – على المعاصرين، وأن لا يؤسس علمهم على مثل هذه النظرات المعاصرة التي تناقضت فيها الأقوال، واختلفت فيها الآراء، وأن يبنوا على العلم المؤصل علم السلف، ونظريات العلماء الراسخين في العلم، الذين اتفق الناس على رسوخهم، وثبات أقدامهم وأفهامهم، بهذا تترسخ العلوم، وتنضج الملكات، وأما سبيل أكثر المعاصرين، فلا تعود منه–غالبا– إلا بحفنة قد ملئت بالتراب، أو قبضة قد حشيت بالذباب، ولن يعود إن شاء الله بشيء، فكبروا كبروا، يا طلاب العلم، وعليكم بطريق الأوائل، فلن يقف على أرض صلبة إلا من سار على طريقهم، وجعل معتمده كلامهم، لا كلام غيرهم، والله المستعان.

* * *

المبحث الرابع
مصطلح الإشارة

من المهم جدا أن نصل معا، بعد هذا البسط المهم، إلى حد الإشارة وتعريفها، وفي هذا ينبغي أولا أن نتتبع هذا المصطلح في كلام العلماء، لنرى كيف يتصورونه، ثم نبين ما هو من حدوده وأركانه، وما هو خارج عن ذلك، ومن أول من تكلم عنه فيما وقفنا عليه: هو الإمام بدر الدين الزركشي (ت ٧٩٤هـ)، حيث عرف ما سماه بتفسير الصوفية بقوله: هِيَ مَعَانٍ وَمَوَاجِيدُ يَجِدُونَهَا عند التلاوة[(١)]

وبالنظر في كلامه يتبين ، أن هذه الإشارات هي معانٍ، وهذا صحيح، لكن لم نجد الإمام الزركشي يوضح هل هذه المعاني مرادة أم لا؟!

ثم قال(مواجيد)، وهي ما يجده المرء شعورا عند تذكر شيء. . . . ، لكنه لم يبين لنا ما علاقة هذه المواجيد بالآية المقروءة، وهل ذاتها عند كل آية أم تختلف!

فنجد كلام الإمام لا يؤخذ منه سوى أنها معانٍ، ولم يبين لنا ماهيتها أو حقيقتها.

ومن صنيع الإمام في هذا الباب يتبين لنا أن خلاصة موقفه أن يقف من هذه القياسات موقف الملتبس المتأمل غير الراضي عن أكثر هذه الإشارات التي كانت تتردد في عصره، فنقل في ختام كلامه رأي الإمام ابن الصلاح مستحسنا له وهو قوله: ويا ليتهم لَمْ يَتَسَاهَلُوا فِي مِثْلِ ذَلِكَ لِمَا فِيهِ مِنَ الْإِبْهَامِ وَالِالْتِبَاسِ[(٢)]

ومع شهرة فتوى الإمام ابن الصلاح في هذا الباب، ونشر المعاصرين لها على

---

(١) انظر البرهان في علوم القرآن ٢/ ١٧٠

(٢) انظر البرهان في علوم القرآن ٢/ ١٧١

تجويز كل ما خبث وطاب مما يظنونه إشارات، لكني ما وجدت أحدا تنبه لختام هذه الفتوى، وهى قوله (. . . لما فيه من إبهام وإلباس.) ولم يسأل أحد ماذا يقصد ابن الصلاح بقوله هذا؟!

والمقصود أن هذه القياسات مبهمة لانقطاع علاقتها باللفظ الظاهر، فمثلا. . قوله تعالى (قاتلوا الذين يلونكم من الكفار. .) فإن ما يفهمه العالم وغيره أن الله يأمرنا بقتال الكفار المقاتلين من جوارنا، فما معنى أن تدعي أنه يفهم من ذلك أي من هذه الآية بالخصوص أن الله أمرنا بقتال النفس وهو قتال هواها وشهواتها !! أليس هذا هو عين الإبهام ؟!! فإن قلت إن الله حقا أمرنا بجهاد النفس فلم تعترض؟ قلنا أمرنا بذلك حقا، لكن في آيات أخرى مثل قوله (قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دساها)، والحق أن جهاد النفس لا يؤخذ من آيات (قاتلوا الذين يلونكم من الكفار) بخصوصها، بل هناك فرق بين أن نقول إن الله أمرنا أن نجاهد أنفسنا، ولم يأمرنا بقتلها، بل على النقيض فهو قد أمرنا بأن نرفق بأنفسنا، وأن نتكلف من الأعمال ما نطيق، وهذا هو الدين الذي جاء به النبي ﷺ، من غير تحريف الغالين وانتحال المبطلين، فإذا كانت هذه الآية لا تدل على هذا المعنى، فما الذي يدعوك أن تذكر هذا المعنى عند هذه الآية ؟!

لا موجب لذلك لطالما أنه لا ارتباط بين المعنى والآية وهذا القدر ينبغي أن يتفق عليه عند العقلاء.

وأما الإلباس، فإنه لاشك يقع عند ذكر هذه المعاني التي لا تمت للآية بصلة، فيظن أن هذه هي المعاني المرادة، فإن قلت هي معاني ليست مرادة، كررنا لك، أنه لا موجب لذكرها طالما ليست مرادة، وأن هذا من التقول على الله، الموجب للذم، فإن تجرأ بقوله هي مرادة، قلنا: إذن هذا يلزم بأنك تقول بأن هناك سبيلا آخر يؤخذ منه المعنى المراد غير الألفاظ الظاهرة، وهذا عين قول زنادقة الباطنية. . . . ، أليس إذن يكون المعنى الظاهر حجابا عن هذه المعاني التي تتقولونها ؟!! وحينها جاز عند كثير من هؤلاء الطغام، ورؤوس جهلة العوام أن يصفوا العلماء

والفقهاء بأنهم أهل حجاب !! أفبعد هذا الضلال ضلال ؟!

فجملة ما يفهم عن الإمام ابن الصلاح والإمام الزركشي أنهم لم يرتضوا هذه القياسات والتمثيلات التي لا ترتبط بالنص، ولا يمكن أن تسند إليه بوجه من الوجوه، وودوا أن لم يتوسع هؤلاء في هذا الإيهام والإلباس.

ثم نجد الإمام الزرقاني يسميه بالتفسير الإشاري، ولعله أول من زاوج بين هاتين اللفظتين (التفسير)، و(الإشاري). ، وعرفه بقوله (هو تأويل القرآن بغير ظاهره لإشارة خفية تظهر لأرباب السلوك والتصوف ويمكن الجمع بينها وبين الظاهر والمراد أيضا.)[١]

يقول هو (تأويل)، نلاحظ أنه سماه تفسيرا، ثم عبر عنه بأنه تأويل، وهذا يدلك على عدم وضوح هذه المفاهيم بصورة واضحة عند الشيخ، وعلى ما سبق تحريره، فالإشارة ليست بتأويل، وليست بتفسير، والصواب أنه استنباط لكنه غير مراد أصالة.

ثم قال (بغير ظاهره) كأنه أراد أن يخالف بهذه العبارة بينه وبين معنى التفسير الذي هو الكشف عن معنى اللفظة بأصل الوضع.

قوله (إشارة خفية)خطأ لما بينا من عدم التلازم بين الخفاء والإشارة، وبين التفسير وبين الجلاء، كما سبق بيان ذلك.

ثم قال (تظهر لأرباب السلوك والتصوف)، وهذا أيضا ليس بحد لها، إذ فيه حصر للإشارة على لسان طائفة معينة، يستلزم منه أنها لا يمكن أن تصدر إلا من طريق هؤلاء، ويدلك على خطأ هذا الحد أن هذه الإشارات كانت على ألسنة الصحابة أنفسهم، فهل كانوا أهل سلوك وتصوف بالمعنى الاصطلاحي المتداول

وهذا تعريف بالقائل لا بالقول، وهذا حد غلط يستلزم نفي هذه الإشارات

(١) مناهل العرفان ٢/ ٧٨

عن كل الطوائف إلا طائفة واحدة، ومثل هذا الحد ينبغي أن تنزه عنه التعريفات.

ثم قال: (ويمكن الجمع بينها وبين الظاهر والمراد أيضا.)

وهذا حد مهم جدا، إذا لا بد من جامع بين الظاهر وبين المشار إليه، فإذا عرضت لك إشارة فلابد أن يكون لها جامع وتعلق بالمعنى الظاهر (أي يصح إسنادها إلى النص الظاهر)، فإن لم تجد فليست بإشارة.

ثم نجد الشيخ : محمد حسين الذهبي يتابع الزرقاني في قريب من تعريفه بقوله: هو تأويل آيات القرآن الكريم على خلاف ما يظهر منها بمقتضى إشارات خفية تظهر لأرباب السلوك، ويمكن التطبيق بينها وبين الظاهر المراد[١]

فلم يغير لفظة واحدة، ولم يستدرك، ولم يعقب، وهذا فيه أعظم الدلالة على أن كثير ممن يتكلم في هذا الباب يقلدون فيه، وينقل الخالف عن السالف، والممحص عزيز، والناقد قليل، والمفطوم معدوم.

وقد عرفه الصابوني بقوله: التفسير الإشاري هو تأويل القرآن على خلاف ظاهره، لإشارات خفية تظهر لبعض أولي العلم، أو تظهر للعارفين بالله من أرباب السلوك والمجاهدة للنفس، ممن نور الله بصائرهم فأدركوا أسرار القرآن العظيم، أو انقدحت في أذهانهم بعض المعاني الدقيقة، بواسطة الإلهام الإلهي أو الفتح الرباني، مع إمكان الجمع بينهما وبين الظاهر المراد من الآيات الكريمة) [٢]

ولم يزد في تعريفه إلا بعض تفصيل في حال (أصحاب السلوك والتصوف) وقد بينا أن الحد خطأ في أصله، وزاد أيضا بقوله (بواسط الإلهام الإلهي، والفتح الرباني)، وهنا نسأل، أصار الإلهام الإلهي مصدرا لاستنباط المعاني ؟!! فما بَعُد إذن، أن نجد من يأتي ليقول لنا: هذا معنى إشاريا قد استنبطته بواسطة الإلهام الإلهي، ولا شك أن هذا الحد كما يقول الفاضل ابن عاشور (. . . يفتح بابا من

(١) انظر التفسير والمفسرون ٢/ ٢٦١

(٢) انظر التبيان في علوم القرآن ص١٩١

الشر عظيم، إذ فيه ادعاء أن ثمة مصدرا آخر لتلقي المعاني غير اللفظ الظاهر وهو خلاف قول أهل السنة والجماعة. . .)[١]

ومما يحمد له أنه نبه على الحد المهم جدا وهو (أن يكون له علاقة (إسناد) إلى النص الظاهر.

ويقول الإمام ولي الله الدهلوي: هو بيان لطائف علم السلوك وعلم الحقائق بأدنى مناسبة لغوية بالآيات الكريمة، وهذا هو مشرب الصوفية المتنسكين[٢]

(بيان لطائف علم السلوك) حد غير صحيح، بل الإشارات منها إشارات فقهية كقوله تعالى: {وأنزلنا عليكم المن والسلوى كلوا}استدل به على أن الضيف لا يملك ما قُدم له وأنه لا يتصرف فيه إلا بإذن[٣]

وكقوله تعالى: {يا بني إسرائيل}

يستدل به على دخول أولاد الأولاد في الوقف على الأولاد[٤]

ومنها إشارات عقدية

كقوله: {وما رميت إذ رميت}

نفى الخلق وأثبت الكسب[٥]

ومنها إشارات أصولية كقوله تعالى: {وأني فضلتكم على العالمين} فيه ورود العام المراد به الخصوص لأن المراد عالم زمانهم[٦].

وكقوله تعالى: {وعلم آدم الأسماء كلها}

---

(١) انظر مقدمة تحقيق تفسير الثعلبي .
(٢) انظر الفوز الكبير في أصول التفسير ١/ ١٧٢
(٣) الإكليل في استنباط التنزيل ص ٢٩
(٤) الإكليل في استنباط التنزيل ص ٢٨
(٥) انظر الإكليل في استنباط التنزيل ص ٢٥
(٦) الإكليل في استنباط التنزيل ص ٢٥

استدل به من قال إن (أصول)[(١)] اللغات توقيفية. وضعها الله بالوحي وعلمها.[(٢)]

وكقوله تعالى {إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة}

أخذوا منه بالإشارة أن الآمر لا يدخل في عموم الأمر فإن موسى لم يدخل في عموم الأمر بدليل قوله {فذبحوها وما كادوا يفعلون} ولا يظن بموسى ذلك [(٣)]

فالقول بأنها فقط تقتصر على السلوكيات، ليس بصحيح كما مرت الأمثلة، والله أعلم.

لكن الشيخ أكد أيضا على حد مهم وهو (المناسبة بمعنى الآية)، فهو يؤكد شرط أن يصح إسناد هذا المعنى المخصوص للآية المخصوصة. .

ويقول مناع بن خليل القطان: ومن هؤلاء المتصوفة من يدَّعي أن الرياضة الروحية التي يأخذ بها الصوفي نفسه تصل إلى درجة ينكشف له فيها ما وراء العبارات القرآنية من إشارات قدسية، وتنهل على قلبه من سُحب الغيب ما تحمله الآيات من المعارف السبحانية، ويسمى هذا بالتفسير الإشاري[(٤)]

قوله (الرياضة الروحية) يبين ما يراه المتصوفة أعظم مقومات استخراج الإشارة. وهذا حد بالوسيلة أو الآلة.

قوله (يأخذ بها الصوفي نفسه) أيضا قصر للإشارة على أهل التصوف ، وهو وصف غير صحيح.

قوله (ينكشف له فيها ما وراء العبارات القرآنية من إشارات قدسية، وتنهل على قلبه من سُحب الغيب ما تحمله الآيات من المعارف السبحانية) وهذه العبارة مفهومها تعلق الإشارات بعلم السلوك،وهو غير صحيح كما سبق أن أسلفنا.

---

(١) أضفتها لأن بغيرها يكون كل ما نتكلم به قديم وهو غلط.

(٢) الإكليل في استنباط التنزيل ص ٢٨

(٣) انظر شرح الزركشي على جمع الجوامع، الإكليل في استنباط التنزيل ص ٢٩

(٤) مباحث في علوم القرآن ص ٣٦٨

ومن هذه التعريفات ومناقشتها نخلص إلى أن الإشارة: استنباط من الآية الكريمة غير مراد أصالة، له إسناد إلي الآية وشاهد من الشرع يؤيده.

قولنا (استنباط) ليخرج عن ذلك التفسير، فالإشارة استنباط لا تفسير، قال الإمام الزركشي: فَأَمَّا كَلَامُ الصُّوفِيَّةِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ فَقِيلَ: لَيْسَ تَفْسِيرًا[١]

ووافقه على ذلك السيوطي بقوله و كَلَامِ الصُّوفِيَّةِ فِي الْقُرْآنِ فَلَيْسَ بِتَفْسِيرٍ[٢]

وأصل هذا هو فتوى لابن الصلاح قال فيها: وَأَنَا أَقُولُ الظَّنُّ بِمَنْ يُوثَقُ بِهِ مِنْهُمْ إِذَا قَالَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ يَذْكُرْهُ تَفْسِيرًا وَلَا ذَهَبَ بِهِ مَذْهَبَ الشَّرْحِ لِلْكَلِمَةِ[٣]

فإذا رأيت من ينسب الإشارة إلى التفسير بأي وجه من النسب فلا تترد في تخطئته، إذا بان لك ما سبق أن بينت، ولا يصدنك كثرة استعمالها على الألسنة عن ردها، واستعمال ما صح بدلا منها، فكم من خطأ شاع وذاع، لاسيما على ألسنة الهمج الرعاع،

وأما المحققون فسبيلهم التحقيق والتدقيق ونسبة كل شيء إلى ما هو به حقيق، وإني كما ترى لم أقف على قول أحد سبق الشيخ محمد الزرقاني في هذه الإَضافة (التفسير الإشاري) كعنوان لهذا المبحث، وإلا فقد سماه ابن الصلاح، والزركشي، والسيوطي بتفسير الصوفية، ولعل عبارة(التفسير الإشاري) قد استخدمت عرضا عند الشاطبي ، وابن القيم، فهذا من قبيل الابتداع في الاصطلاح، وهو خطأ، فلا تظنن هذه النسبة الإضافية (التفسير الإشاري) وحيا معصوما، أو إجماعا متبعا، فيسبق ذهنك في نسبة الجرأة إلي، ورمي الخطأ علي، فالحق أحق أن يتبع، وليس ببعيد أن يفتح الله علينا ما أغلق على كثير من المتقدمين، فالعلوم منح ومواهب، وربك يزيد في الخلق ما يشاء.

---

(١) البرهان في علوم القرآن ٢/ ١٧٠
(٢) الإتقان في علوم القرآن ٤/ ٢٢٣
(٣) الإتقان في علوم القرآن ٤/ ٢٢٣

وأما قولنا (من الآية الكريمة) إذ القرآن الكريم هو متعلق البحث، وإلا فالإشارة ليست حصرا على القرآن، بل السنة أيضا محل لكثير من الإشارات، وقد أفادنا بعض إخواننا بأنهم مشرفون على رسالة جامعية بعنوان (الإشارة في السنة النبوية)، ولعلها فرصة مناسبة لنصوب أنظار الباحثين شطر باب الإشارة في السنة النبوية، ذلكم الطريق المهجور، الذي غفلت عنه عيون الباحثين ، على أنه باب خصيب، وزهر وطيب، ولم لا والسنة وحي، وما ينطق رسولنا عن الهوي، وهو الذي أوتي جوامع الكلم، لكننا في ذلك نؤكد على أهمية بل وجوب الانطلاق من هذه المنطلقات الصحيحة التي بيناها، واعتماد المصطلحات المحررة في التطبيق، وإلا عاد الأمر كتابة على الماء، ومحاولة لقبض الهواء، فما تراجع هذا الباب من العلم إلا جراء إهمال تحرير مصطلحاته، وركون الباحثين إلى الانضباع والتقليد الذي هو مسلك البليد.

وقولنا (غير مراد أصالة)، ليخرج بذلك التأويل الذي هو مراد الله أصالة، فمثلا قوله تعالى (وامرأته حمالة الحطب) مراد الله بذلك الإخبار عن كونها تحمل الحطب في النار تعييرا لها وتهديدا، أو إخبار من الله عن سعايتها بين الناس بالنميمة إذ حمل الكلام على المجاز، فأحد هذين التفسيرين هو مراد الله أصالة، لكنه قد يؤخذ منه إشارة غير مرادة أصالة وهي أنه لما عبر الله عن زوج أبي لهب ب(امرأته) كأن الله يشير بهذه اللفظة إلى أن نكاح أهل الجاهلية نكاح صحيح، لكن لا يُقال أبدا أن مراد الله الأصلي الذي يفهمه الأميون هو إرادة الإخبار عن صحة نكاح أهل الجاهلية.

وقولنا (له إسناد)، ونعني به المناسبة بين اللفظ الظاهر والمعنى المشار إليه، بحيث يصح إسناد هذا المعنى المشار إليه إلى هذا الآية المخصوصة، ولعلك تلاحظ -أيها القارئ الحبيب- أننا هنا نريد أن ننسب معنا معينا إلى آية معينة، فلا بد -عقلا- أن يكون هناك صلة معينة لهذا المعنى بالذات بهذه الآية بالذات دون غيرها، وإلا فاستنباط شيء من شيء لا علاقة له به؛ خطأ في العقل، وأما من ناحية

الشرع فالتقول على الله أمر جلل، واستخراج لطائف من آية لا تدل عليها نسبة كاذبة باطلة، وهذا الأمر لاشك وأنه يدخل في باب الكذب على الشرع والافتراء عليه، واقتفاء ما ليس للمرء به علم، وفي هذا ينبه الأستاذ الدكتور مساعد الطيار- حفظه الله – على خطورة هذا الفعل الجريء فيقول: واليوم، يقع في هذا بعض الوعاظ، ومتطلبو فوائد الآيات، والذين يكتبون في بعض المجلات الإسلامية، تحت عنوان: «آية العدد» أو «إشراقة آية» أو «في ظلال آية» أو غيرها من العناوين.

وإنك لتجد بعضهم يتكلف في استنباط الفوائد ويربطها بالآية، ويجعل الآية تدل عليها، أو يتكلف بإدخال بعض ما يراه في الواقع تحت حكم الآية، أو قد يجعل الآية مدخلا لموضوع من الموضوعات التي يريد الحديث عنها، فتراه يريد الحديث عن الحسد مثلا، ويذكر آية من الآيات التي ذكرت الحسد، ثم ينطلق يتحدث عن الحسد بتفصيل لا علاقة له بالآية التي ذكرها في أول موضوعه.

وكل هؤلاء المتكلفين ما لا يحسنون عليهم أن يتقوا الله، وأن يعلموا أنهم قد يدخلون فيمن يقول على الله بغير علم، فيكونون من أصحاب الرأي المذموم. (١)

فمن أهم ما يجب توفره في الإشارة أن يكون لها إسناد إلى اللفظ الظاهر، وسمينا هذا الشرط بشرط (الإسناد)، وليس ببدع من القول ما أقول بل نصوص العلماء متوافرة في التأكيد على هذا الشرط، وعلى رأسهم الإمام الشاطبي إذ يقول: يشترط في التفسير الإشاري أن يصح على مقتضى الظاهر المقرر في لسان العرب ويجري على المقاصد العربية وهذا لازم لكون القرآن عربيا فإنه لو كان له فهم لا يقتضيه كلام العرب لم يوصف بكونه عربيا بإطلاق ولأنه مفهوم يلصق بالقرآن ليس في ألفاظه ولا في معانيه ما يدل عليه وما كان كذلك فلا يصح أن ينسب إليه أصلا إذ ليست نسبته إليه على أن مدلوله أولى من نسبة ضده إليه ولا مرجح يدل على أحدهما فإثبات أحدهما تحكم وتقول على القرآن ظاهر وعند

(١) مفهوم التفسير والتأويل ص ١٨٢

ذلك يدخل قائله تحت إثم من قال في كتاب الله بغير علم والأدلة المذكورة في أن القرآن عربي جارية هنا)[١]

وهذا الكلام عمدة في الباب، فدونك هو لا يفارقنك في ميزان كل إشارة ترد عليك، فإذا صحت نسبتها وإسنادها إلى اللفظ العربي كانت مما يقبل ابتداء حتى تعرض على بقية الشروط، فإن استوفتها كانت مقبولة صحيحة، وإلا فهي على صاحبها مردودة، إذن فليس هذا الاعتبار من كيسي ولا هو من عند نفسي، بل هذا الشاطبي كما ترى يؤكد وينبه ويدلل على هذا الركن الركين في اعتبار الإشارة، وليس الشاطبي وحده من انفرد بتقرير هذا الأصل، بل وقفت على غيره من كبار المحررين من يؤيدون ما أقول ويقررونه ويؤصلنه، والفكرة الصحيحة يتتابع عليها المحققون وإن اختلفت بلادهم، وتباعدت أزمانهم، فهذا الإمام الكبير المحقق ابن قيم الجوزية، يسطر كلاما يوزن بماء الذهب يقرر ما ذهبنا إليه أيضا: وهذا التفسير الذي هو بالإشارة والقياس لا بأس به إذا توفرت فيه شروط ومنها. . . . . أن يكون في اللفظ إشعار به، وأن يكون بينه وبين معنى الآية ارتباط وتلازم فإذا اجتمعت هذه الأمور كان استنباطا حسنا) انتهى[٢] فيؤكد الإمام ابن القيم –رحمه الله– على ضرورة أن يكون في اللفظ إشعار بهذا المعنى يدل عليه، وأن يكون ثمة رابط بين اللفظ وبين المعنى المشار إليه.

وهذا الشيخ الزرقاني يقول هذا ويؤكده أيضا بقوله: (ومن شروط صحة الإشارة أنه يمكن الجمع بينها وبين الظاهر والمراد أيضا)[٣]

وهذا العلامة الصابوني يؤكد ذلك أيضا بقوله: وفي الإشارة يشترط إمكان الجمع بينهما وبين الظاهر المراد من الآيات الكريمة)[٤]

---

(١) انظر الموافقات، تحقيق مشهور سلمان (٤: ٢٣١ ـ ٢٣٢ (.

(٢) انظر التبيان في أقسام القرآن ص ٤٩

(٣) انظر مناهل العرفان بتصرف ٢/ ٧٨

(٤) انظر التبيان في علوم القرآن بتصرف ص١٩١

لعله ظهر لك –أيها القارئ الكريم– أن العلماء مجمعون على اعتبار هذا الشرط شرط صحة (ركن) في الإشارة، فإذا رأيته يخالف ذلك عند التطبيق ويعتبر إشارات لا ينطبق عليها هذا الشرط، ولا تتضمن هذا الركن، فخذ صوابه، ولا تقلده في خطأه، بل اعتذر له، وقل (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا)، فليس أحد له الكمال إلا رب العزة والجلال، وكل فمأخوذ من قوله ومردود عليه إلا رسول الله –ﷺ–

ولعله يحسن أن نضرب أمثلة من كلام المفسرين نوضح به هذا الشرط، فبالمثال يتضح المقال، ويفهم الرجال

يقول القشيري عند قوله تعالى: إِنَّما يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (١٦٩)

لاجترائه على الله يدعوك به إلى افترائك على الله.[١]

فهذه الإشارة صحيحة الإسناد إلى النص الظاهر، فظاهر النص أن إبليس جريء على الله يأمرك بالفحشاء حتى إذا هويتها أردت أن تجعلها حلالا وقد حرمها الله، فيدعوك ذلك إلى أن تفتري على الله، بأن تبدل أحكامه فتحل الحرام، وتحرم الحلال، فواضح الارتباط التام، وصحة إسناد هذا المعنى إلى هذه الآية، فهذا المثال يحقق هذا الشرط وهو صحة إسناد المعنى إلى الآية برابط وصلة.

ومثل قوله –رضي الله عنه– أيضا عند قوله تعالى: (قُلْ إِنْ كانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٩٤) وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٥)

من علامات الاشتياق تمنى الموت على بساط العوافي فمن وثق بأن له الجنة قطعا– فلا محالة– يشتاق إليها، ولمّا لم يتمنوا الموت وأخبر الله سبحانه أنهم لن يتمنوه أبدا– صار هذا التعريف معجزة للرسول صلوات الله عليه وعلى آله إذ كان كما قال.

(١) لطائف الإشارات ١/ ١٤٦

وفى هذا بشارة للمؤمنين الذين يشتاقون إلى الموت أنهم مغفور لهم، ولا يرزقهم الاشتياق إلا وتحقق لهم الوصول إلى الجنة، وقديما قيل: كفى للمقصر الحياء يوم اللقاء[١]

فاستنبط بالإشارة أن علامة الاشتياق تمني اللقاء، وهو ظاهر في اللفظ (إن كانت لكم الدار) أي تحبون الدار الآخرة، (فتمنوا) فيه محبة اللقاء

فلا يخفاك جمال هذه الإشارة وقوة ارتباطها بالظاهر، ووضوح إسنادها إليه.

ومثل كلام الإمام القشيري أيضا عند قوله تعالى: ثُمَّ عَفَوْنا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٢)

سرعة العفو على عظيم الجرم تدل على حقارة قدر المعفو عنه، يشهد لذلك قوله تعالى (مخاطبا أمهات المسلمين): «مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضاعَفْ لَهَا الْعَذابُ ضِعْفَيْنِ»، هؤلاء بنو إسرائيل عبدوا العجل فقال الله تعالى: «ثُمَّ عَفَوْنا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ»، وقال لهذه الأمة (يقصد أمة محمد ﷺ): «وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ»[٢]

وما أبدع هذه الإشارة وألطفها، إذ ظاهر الآية يدل على أن الله عفا عن بني إسرائيل بعد شركهم، فأخذ منها القشيري بالإشارة أن العفو(عفونا) عن عظيم الجرم(اتخاذهم العجل) يدل على حقارة قدر المعفو عنه (بني إسرائيل)، وفي المقابل خاطب الله أوليائه من آل بيت نبينا ﷺ بما يشعر بقوة الخطاب، وذلك لقدر المخاطب.

فما ألصق هذه الإشارة بالمعنى الظاهر، وما أقوى إسنادها إليه، وهي إشارة في غاية الجمال والرقة واللطف.

ومثل هذا أيضا؛ ما قاله الإمام المفسر ابن كثير: عند قوله تبارك وتعالى: (إِنَّا

---

(١) لطائف الإشارات ١/ ١٠٧

(٢) لطائف الإشارات ١/ ٩١

نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتى)ـ أي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحْيِي قَلْبَ مَنْ يَشَاءُ مِنَ الْكُفَّارِ، الَّذِينَ قَدْ مَاتَتْ قُلُوبُهُمْ بِالضَّلَالَةِ فَيَهْدِيهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى الْحَقِّ[١].

وهكذا في كل إشارة يجب أن يصح إسنادها إلى النص وقوة الإشارة وضعفها تتوقف على قوة الإسناد إلى النص الظاهر قوة وضعفا، فكلما كانت الإشارة مباشرة الإسناد إلى النص بادية كانت أكثر قبولا، وأقرب وصولا، وهذه الأمثل التي أسلفنا ذكرها هي من هذا القبيل، واضحة الإسناد إلى النص الظاهر فسميناها مسندة إسنادا مباشرا، وهناك نوع آخر من الإشارات يذكرها بعض العلماء فإذا نظرت بادي الرأي، ربما لا تجد علاقة بينها وبين الظاهر، ولا تستطيع أن تسندها هكذا مباشرة إلى النص الظاهر، بل ربما يتسرع البعض فيردها ولا يقبلها ولا يعدها إشارة، لكن عند التحقيق ولما أطلنا النظر، وقلبنا الفكر، انقلب إلينا بتأصيل مهم جدا، وهو أن أمثال هذه الإشارات الغامضة هي نوع آخر من الإشارات المسندة لكن إسنادها إلى النص الظاهر إسناد غير مباشر، بمعنى أنها تستند إلى دليل آخر يربطها بهذا النص الظاهر، ومن أمثلة ذلك، كلام للإمام الغزالي قَالَ: لَا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب والقلب بيت هو منزل الملائكة ومهبط أثرهم ومحل استقرارهم والصفات الرديئة مثل والغضب والشهوة والحقد والحسد والكبر والعجب وأخواتها كلاب نابحة فأنى تدخله الملائكة وهو مشحون بالكلاب ونور العلم لا يقذفه الله تعالى في القلب إلا بواسطة الملائكة وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء وهكذا ما يرسل من رحمة العلوم إلى القلوب إنما تتولاها الملائكة الموكلون بها وهم المقدسون المطهرون المبرءون عن الصفات المذمومات فلا يلاحظون إلا طيباً ولا يعمرون بما عندهم من خزائن رحمة الله إلا طيباً طاهراً

ولست أقول المراد بلفظ البيت هو القلب وبالكلب هو الغضب والصفات المذمومة ولكني أقول هو تنبيه عليه وفرق بين تعبير الظواهر إلى البواطن وبين

---

(١) تفسير ابن كثير٦/ ٥٠٢

التنبيه للبواطن من ذكر الظواهر مع تقرير الظواهر ففارق الباطنية بهذه الدقيقة[١]

والمتدبر في هذا الكلام يلاحظ فيه أمورا عدة، أن الإمام الغزالي يشبه القلب بالبيت، ويشبه الأخلاق الذميمة بالكلاب، وينسب حكم المشبه إلى المشبه. ، وهذا الأمر قطعا لا يدل الظاهر عليه فإن النبي يخص البيت بالحكم، لا القلب، فبأي شيء يقرر الغزالي ذلك؟! الجواب سيأتيك في الأسطر القادمة

الأمر الثاني: أنه ينبه إلى أنه لا يقول قط بنفي الظاهر وصرفه إلى معان أخرى غير مراده خلافا للباطنية، ونعلق علي كلام الإمام فنقول لا يكفي فقط لقبول الإشارة أن يؤكد قائلها أنه لا ينفي الظاهر، بل نطلب منه أمرا وراء ذلك وهو أن يأتي بإسناد لهذا المعنى بهذا النص الظاهر، وإلا جاز أن تنسب كل المعاني الصحيحة في ذاتها إلى كل آية أو كل الآيات، وهذا من الشطح والشطط في كتاب رب الأرباب، وينبغي أنَّ كتاب ربنا عن مثل هذه الأمور الباطلة.

وأما جوابنا عن صحة الإشارة هذه بما سميناه الإسناد المركب أو الإسناد غير المباشر، فهو كالتالي إنك إذا ذهبت لتسند هذا المعنى المشار إليه وهو القلب بلفظة البيت ما وجدت في لفظة البيت ما يدل على القلب، غير أنك إذا رحت تستقرئ السنة وجدت حديث ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « إِنَّ الرَّجُلَ الَّذِي لَيْسَ فِي جَوْفِهِ شَيْءٌ مِنَ الْقُرْآنِ، كَالْبَيْتِ الْخَرِبِ »[٢]

فجرى في هذا الحديث تشبيه القلب بالبيت وإطلاقه عليه، فهذا الحديث الجامع بين القلب والبيت في المعنى يصح أن يكون رابطا يسند هذه اللفظة (القلب)، إلى لفظة (البيت)الذي في الحديث، ثم إننا لم نجد الصلة منبتة بين لفظ القلب وما يجري له وبين لفظ البيت، بل وجدناه يتكرر في معاني كلام النبوة

(١) إحياء علوم الدين ١/ ٤٩

(٢) وأخرجه الدارمي (٣٣٠٦)، والترمذي (٢٩١٣)، والطبراني (١٢٦١٩)، وابن عدي ٦/ ٢٠٧٢، والحاكم ١/ ٥٥٤، والبغوي (١١٨٥) من طريق جرير بن عبد الحميد، بهذا الإسناد. وصححه الحاكم، وضعفه الذهبي بقابوس، وقال الترمذي: حسن صحيح

كما عند البيهقي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « مَثَلُ الْمُؤْمِنِ كَالْبَيْتِ الْخَرِبِ فِي الظَّاهِرِ، فَإِذَا دَخَلْتَ وَجَدْتَهُ مُونقًا»(١)

فجرى تشبيه المؤمن بالبيت ومحل نظافة المؤمن وأساسها قلبه، فأخبر النبي بأنه مؤنق، إذن كما ترى صح إسناد هذا التشبيه بالنص الظاهر لورود النصوص الدالة عليه الجامعة بينهما، وهكذا قل في ما هو من جنس هذه الإشارة، غير أنه بقي أيضا ما وجه تشبيه الأخلاق الذميمة بالكلاب، قلنا هذا أيضا ورد في الشرع ما يجمع بينهما، كما جاء في حديث عن كعب مالك الأنصاري، عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: « ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال، والشرف لدينه(٢)

فجرى تشبيه الأخلاق الذميمة كالحرص بالذئاب ولاشك أن الكلاب من جنس الذئاب، بل إنك تجد القرآن يشبه من ساءت أخلاقه وأحواله بحالة الكلب، والمقصود في التشبيه التمثيلي تشبيه الحالة بالحالة، إذ الله لا يشبه ذاتا مكرمة بذات ممتهنة، فلما كثر في الاستعمال ذكر سيء الطباع بذكر الكلب، بل إن الحيوان المقترن بالنجاسة ذهنا المختلط ببيئة الإنسان هو الكلب كان هذا مؤنسا بصحة هذه الإشارة على هذا الوجه من الإسناد المركب.

يؤكد شيخ الإسلام ابن تيمية ما أقره بقوله: وكذلك من قال: لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب ولا جنب فاعتبر بذلك أن القلب لا يدخله حقائق الإيمان إذا كان فيه ما ينجسه من الكبر والحسد فقد أصاب)(٣) انتهى

---

(١) شعب الإيمان برقم ٦٥٤٠

(٢) إسناده صحيح وهو عند ابن المبارك في «الزهد» (١٨١) - زيادات نعيم بن حماد- ومن طريقه أخرجه الترمذي (٢٣٧٦)، والنسائي في «الكبرى»- كما في «تحفة الأشراف» ٨/ ٣١٦، والدارمي ٢/ ٣٠٤، والطبراني في «الكبير» ١٩/ (١٨٩)، والبيهقي في «الآداب» (٩٧٤)، والبغوي في «شرح السنة» (٤٠٥٤)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) انظر مجموع الفتاوى ١٣/ ٢٤٠

ومثل هذا الوجه من التركيب، لكنه تركيب آيات متفرقة لإشارة في معنى كما قال بكر بن العلاء في آية [واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان]. . . أن الساحر يقتل، ووجهه أنه قال: {ولبئس ما شروا به أنفسهم}

أي باعوا أنفسهم للقتل بالسحر الذي فعلوه كما قال: {إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم – إلى أن قال – فيقتلون ويقتلون}[١].

ومثل ما يستفاد من أهمية الأخ من قصة موسى في صغره، وفي كبره، فأخته (وقالت لأخته قصيه)، وفي كبره(هارون أخي)، فهذا الجمع التركيبي هو إشارة مركبة.

ومثل هذا أيضا ما قال الإمام ابن كثير عند قوله تعالى:

ومثل ذلك قوله تعالى (أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً فَسالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْباطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ (١٧)

قال الإمام ابن كثير –رحمه الله– اشْتَمَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ عَلَى مَثَلَيْنِ مَضْرُوبَيْنِ لِلْحَقِّ فِي ثَبَاتِهِ وَبَقَائِهِ، وَالْبَاطِلِ فِي اضْمِحْلَالِهِ وَفَنَائِهِ، فَقَالَ تَعَالَى: أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً أَيْ مَطَرًا فَسالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها أَيْ أَخَذَ كُلُّ وَادٍ بِحَسْبِهِ، فَهَذَا كَبِيرٌ وَسِعَ كَثِيرًا من الماء، وهذا صغير وسع بِقَدْرِهِ[٢]. . .

ولعله بان لك سريعا أن هذا القدر الذي ذكره ابن كثير هو تفسير الآية لا أكثر، وهو متفق عليه بين أهل التفسير.

يقول مقاتل بن سليمان: ثم ضرب الله– تعالى– مثل الكفر والإيمان، ومثل الحق والباطل فقال: أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها وهذا مثل القرآن

(١) الإكليل ص ٣٠

(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ٣٧٠

الذي علمه المؤمنون وتركه الكفار فسال الوادي الكبير على قدر كبره «منهم من حمل منهم كبيرا، والوادي الصغير على قدره فاحتمل السيل يعني سيل الماء زبدا رابيا يعني عاليا ومما يوقدون عليه في النار أيضا ابتغاء حلية يعني الذهب، والفضة ثم قال: أو متاع يعني المشبه، والصفر، والحديد، والرصاص، له أيضا زبد مثله فالسيل زبد لا ينتفع به، والحلي، والمتاع له أيضا زبد، إذا أدخل النار أخرج خبثه، ولا ينتفع به، والحلي، والمتاع له أيضا زبد، إذا أدخل النار أخرج خبثه، ولا ينتفع به، والذهب والفضة والمتاع ينتفع به، ومثل الماء مثل القرآن وهو الحق، ومثل الأودية مثل القلوب، ومثل السيل مثل الأهواء. فمثل الماء، والحلي، والمتاع، الذي ينتفع به مثل الحق الذي في القرآن، ومثل زبد الماء، وحيث المتاع، الذي لا ينتفع به مثل الباطل فكما ينتفع بالماء وما خلص من الحلي والمتاع الذي ينتفع به أهله في الدنيا فكذلك الحق ينتفع به أهله في الآخرة. وكما لا ينتفع بالزبد وخبث الحلي والمتاع أهله في الدنيا فكذلك الباطل لا ينتفع أهله في الآخرة كذلك يضرب الله الحق والباطل[١]

ثم انتقل الإمام ابن كثير إلى مقام الإشارة بقوله: وَهُوَ إِشَارَةٌ إِلَى الْقُلُوبِ وَتَفَاوُتِهَا، فَمِنْهَا ما يسع علما كثيرا، ومنها من لَا يَتَّسِعُ لِكَثِيرٍ مِنَ الْعُلُومِ بَلْ يَضِيقُ عَنْهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رابِياً أَيْ فَجَاءَ عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ الَّذِي سَالَ فِي هَذِهِ الْأَوْدِيَةِ زَبَدٌ عَالٍ عَلَيْهِ، هَذَا مَثَلٌ.

وَقَوْلُهُ: وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتاعِ الآية، هَذَا هُوَ الْمَثَلُ الثَّانِي وَهُوَ مَا يُسْبَكُ فِي النَّارِ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ ابْتِغَاءَ حلية، أي ليجعل حلية نحاس أو حديد، فَيُجْعَلُ مَتَاعًا، فَإِنَّهُ يَعْلُوهُ زَبَدٌ مِنْهُ كَمَا يَعْلُو ذَلِكَ زَبَدٌ مِنْهُ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْباطِلَ أَيْ إِذَا اجْتَمَعَا، لَا ثَبَاتَ لِلْبَاطِلِ وَلَا دَوَامَ لَهُ، كَمَا أَنَّ الزَّبَدَ لَا يَثْبُتُ مَعَ الْمَاءِ وَلَا مَعَ الذَّهَبِ والفضة، ونحوهما مِمَّا يُسْبَكُ فِي النَّارِ، بَلْ يَذْهَبُ وَيَضْمَحِلُّ، وَلِهَذَا قَالَ: فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً أَيْ لَا يُنْتَفَعُ بِهِ بَلْ يَتَفَرَّقُ وَيَتَمَزَّقُ،

---

(١) تفسير مقاتل بن سليمان ٢/ ٣٧٤

وَيَذْهَبُ فِي جَانِبَيِ الْوَادِي، وَيَعْلَقُ بِالشَّجَرِ، وَتَنْسِفُهُ الرِّيَاحُ، وَكَذَلِكَ خَبَثُ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْحَدِيدِ وَالنُّحَاسِ، يَذْهَبُ ولا يَرْجِعُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَا يَبْقَى إِلَّا الْمَاءُ، وَذَلِكَ الذَّهَبُ وَنَحْوُهُ يُنْتَفَعُ بِهِ، وَلِهَذَا قَالَ: وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ كقوله تَعَالَى: وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ وَما يَعْقِلُها إِلَّا الْعالِمُونَ [العنكبوت: ٤٣]

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عباس في قَوْلُهُ تَعَالَى: أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً فَسالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها الآية، هَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللَّهُ، احْتَمَلَتْ مِنْهُ الْقُلُوبُ عَلَى قَدْرِ يَقِينِهَا وَشَكِّهَا، فَأَمَّا الشَّكُّ فَلَا يَنْفَعُ مَعَهُ الْعَمَلُ، وَأَمَّا الْيَقِينُ فَيَنْفَعُ اللَّهُ به أهله وهو قوله: فَأَمَّا الزَّبَدُ وهو الشك، فَيَذْهَبُ جُفاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْيَقِينُ، وَكَمَا يُجْعَلُ الْحُلِيُّ فِي النَّارِ فَيُؤْخَذُ خَالِصُهُ وَيُتْرَكُ خَبَثُهُ فِي النَّارِ، فَكَذَلِكَ يَقْبَلُ اللَّهُ الْيَقِينَ وَيَتْرُكُ الشَّكَّ

وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَوْلُهُ: أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً فَسالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رابِياً يَقُولُ: احْتَمَلَ السَّيْلُ مَا فِي الْوَادِي مِنْ عُودٍ وَدِمْنَةٍ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ فَهُوَ الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ وَالْحِلْيَةُ وَالْمَتَاعُ وَالنُّحَاسُ وَالْحَدِيدُ، فَلِلنُّحَاسِ وَالْحَدِيدِ خَبَثٌ، فَجَعَلَ اللَّهُ مَثَلَ خَبَثِهِ كَزَبَدِ الْمَاءِ، فَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَالذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ الْأَرْضَ فَمَا شَرِبَتْ مِنَ الْمَاءِ فَأَنْبَتَتْ، فَجَعَلَ ذَاكَ مِثْلَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ يَبْقَى لِأَهْلِهِ، وَالْعَمَلِ السَّيِّءِ يَضْمَحِلُّ عَنْ أَهْلِهِ، كَمَا يَذْهَبُ هَذَا الزبد، وكذلك الْهُدَى وَالْحَقُّ جَاءَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فَمَنْ عمل بالحق كان له وبقي، كما بقي مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فِي الْأَرْضِ، وَكَذَلِكَ الْحَدِيدُ لَا يُسْتَطَاعُ أَنْ يُعْمَلَ مِنْهُ سِكِّينٌ وَلَا سَيْفٌ حَتَّى يُدْخَلَ فِي النَّارِ، فَتَأْكُلُ خَبَثَهُ، ويخرج جيده فينتفع به، فكذلك يضمحل الباطل، فإذا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ وَأُقِيمَ النَّاسُ وَعُرِضَتِ الْأَعْمَالُ، فَيَزِيغُ الْبَاطِلُ وَيَهْلَكُ، وَيَنْتَفِعُ أَهْلُ الْحَقِّ بِالْحَقِّ، وهكذا رُوِيَ فِي تَفْسِيرِهَا عَنْ مُجَاهِدٍ وَالْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ وَعَطَاءٍ وَقَتَادَةَ، وَغَيْرِ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ.

وقد ضرب الله فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ لِلْمُنَافِقِينَ مَثَلَيْنِ: نَارِيًّا وَمَائِيًّا وَهُمَا

قَوْلُهُ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضاءَتْ مَا حَوْلَهُ [البقرة: ١٧] الآية، ثُمَّ قَالَ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّماءِ فِيهِ ظُلُماتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ [البقرة: ١٩] الآية، وَهَكَذَا ضَرَبَ لِلْكَافِرِينَ فِي سُورَةِ النُّورِ مَثَلَيْنِ [أحدهما] قوله وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمالُهُمْ كَسَرابٍ الْآيَةَ، وَالسَّرَابُ إِنَّمَا يَكُونُ فِي شِدَّةِ الْحَرِّ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: فَيُقَالُ لِلْيَهُودِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: فَمَا تُرِيدُونَ؟ فَيَقُولُونَ: أَيْ رَبَّنَا عَطِشْنَا فَاسْقِنَا. فَيُقَالُ: أَلَا تَرِدُونَ؟ فَيَرِدُونَ النَّارَ فَإِذَا هي كسراب يحطم بعضها بعضا.

ثم قال تعالى فِي الْمَثَلِ الْآخَرِ: أَوْ كَظُلُماتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ الآية، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: «إِنَّ مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ، كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا طَائِفَةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبَ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ، فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا، وَرَعَوْا، وَسَقَوْا، وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ طَائِفَةً مِنْهَا أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ اللَّهُ بِمَا بَعَثَنِي وَنَفَعَ بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ[١]

ولا شك أنه ورد تفسير الأودية بالقلوب عند كثير من السلف، كالكلبي قال: قوله: (أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً) وهو القرآن؛ فاحتمله القلوب بأهوائها؛ ذو اليقين على قدر يقينه، وذو الشك على قدر شكه؛ فاحتملت الأهواء باطلا كثيرًا وجفاء: فالماء هو الحق، والأودية هي القلوب، والسيل الأهواء، والزبد الباطل، والحق المتاع والحلية[٢]

واستناد التشبيه هو استناد إلى النص النبوي الذي ذكره الإمام ابن كثير، وهو نوع استناد مركب، وملاحظ ورود مثل هذا عن السلف.

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٦٨٦

(٢) تأويلات أهل السنة ٦/ ٣٢٦

ولعل أظهر دليل على ما نشترطه من العلاقة الإسنادية النصية بين المشبه والمشبه في حالات التشبيه التي يذكرها كثير من المتكلمين بالإشارة، إذ لا يصلح أن تتذكر شيئا عند آية فتلصقها بها، حتى يُظن أنها شرح وتفسير أو حتى استنباط من الآية نفسها، وهذا غلط، بل لابد من علاقة إسنادية أي آية تدل على التشبيه، أو حديث ينص على ذلك، أو حتى سياق يدل على ذلك، أو حتى مجموع استئناسات تدل على ذلك، أما أن يكون التشبيه هكذا لمحض تذكر الشيء عند الشيء، حتى وإن أوجدت من عند نفسك وجها لا للشبه، فوجود وجه للشبه بين شيئين لا يعني -أبدا- اشتراكهما في الحكم المخصوص بأحدهما، فما من شيئين إلا وبينهما قدر مشترك وقدر فارق، فبهذا القدر المشترك -على طريقتهم هذه- يأخذ كل شيء حكم كل شيء آخر بهذا القدر المشترك، لكن الذي يحل هذه المعضلة ويفك هذه المشكلة أن نسلم هذا الأمر لصاحب الشريعة فما نص هو تصريحا أو تلميحا بعلاقة التمثيل فنقول لا نشبه معنى بمعنى غير منصوص وننسبه إلى الظاهر إلا الذي جاء الشرع بتمثيله وربط علاقة بينهما، وهنا نكون قد سلمنا من نسبة شيء إلى الشرع ليس منه، ومن هنا تكون طريقتنا أسلم إذ فيها أعظم السلامة من أعظم خطر وهو الابتداع في الدين والتقول على الله، والافتراء عليه، وهي أعلم إذ تسلم فيها العلم إلى العليم -سبحانه وبحمده- فلا شك أنها الأعلم، وهي الأحكم، إذ نقتصر فيها على ما أشار إليه صاحب الشرع الحكيم، فهذه الطريقة أسلم وأعلم وأحكم، وفي هذا كلام للإمام الغزالي نفيس يقول: لا يمكن أن تصرف الألفاظ عن ظواهرها بغير اعتصام فيه بنقل عن صاحب الشرع ومن غير ضرورة تدعو إليه من دليل العقل فإن من فعل ذلك اقتضى ذلك بطلان الثقة بالألفاظ وسقط به منفعة كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ، فإن ما يسبق منه إلى الفهم لا يوثق به والباطن لا ضبط له بل تتعارض فيه الخواطر ويمكن تنزيله على وجوه شتى وهذا أيضاً من البدع الشائعة العظيمة الضرر[١]

(١) إحياء علوم الدين ١/ ٣٧

لله دره من إمام كلماته تكتب بماء الذهب، ولا ينتهي من دقة تحريرها العجب من العجب.

ومن أعظم ما يدل علي اعتماد العلماء لها، وتطبيقهم لها، وسيرهم عليها ما قاله الإمام المفسر ابن كثير: عند قوله تبارك وتعالى: (إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتى)ـ أي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحْيِي قَلْبَ مَنْ يَشَاءُ مِنَ الْكُفَّارِ، الَّذِينَ قَدْ مَاتَتْ قُلُوبُهُمْ بِالضَّلَالَةِ فَيَهْدِيهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى الْحَقِّ[(١)].

وإلى هذا الحد يكون صنيع الإمام ابن كثير من جنس ما يصنعه كثير ممن يدَّعون الإشارات وهو تمثيل ما يرد على أذهانهم بما يقرأون من الآيات، ولكن الإمام الكبير ابن كثير لم يقف عند هذا، بل زاد ما يبرر ويفسر صنيعه، الذي لولاه ما قبل منه ما قال لكنه أكمل فقال –رحمه الله–. . . . كَمَا قَالَ تَعَالَى بَعْدَ ذِكْرِ قَسْوَةِ الْقُلُوبِ: اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ [الحديد: ١٧][(٢)]

ولله دره من إمام فهامة، وحبر علامة، فكأنه يقول: ما ذكرت إحياء القلوب عند ذكر الله لإحياء الأرض بعد موتها، إلا مما فهمته من صنيع الله تعالى، إذ يذكر قسوة القلوب في سورة الحديد بقوله (ألم يئن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم. . . . .)، وقوله (فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم. . . .)، ثم قال الله بعدها (اعلموا أن الله يحي الأرض بعد موتها)، ومعلوم أن كل آيات القرآن في موضعها متصلة المعنى، متحدة النظم، متسقة البناء في الدلالة على المعاني المرادة، فلا شك أن ذكر إحياء الأرض بعد موتها، أتى بعد ذكر قسوة القلوب، فكأن الله يقول لا تيأسوا أن يحيي الله قلوبكم من بعد قسوتها كما أحيا الأرض بعد موتها، ومن هنا راح الإمام ابن كثير يطرد هذا وأشباهه في القرآن فاستلهم هذا الأسلوب من سياق آيات سورة الحديد ليطبقها على آية سورة يس، فليس ما نقرره إذن بدعا من

(١) تفسير ابن كثير٦/ ٥٠٢

(٢) تفسير ابن كثير ٦/ ٥٠٢

الرأي، ولا خروجا عن مسالك العلماء، بل طريقنا مستقيم على طريقة العلماء، وطريقتهم تشهد لنا وتؤيدنا.

ولعل بذلك يكون قد استقام شرط [الإسناد] على ساقه، وبيّنا معناه، وأهميته، واشتراط العلماء له. وهذا الشرط متى فقد بين الظاهر والمعنى المشار إليه سمي ذلك(شطحا)[١]، وهذا النوع من الكلام (الشطحات) هو أصل الداء في هذا الباب، وموطن البلاء عند أهل الغباء، وسوف نفرد له المبحث القادم بإذن الله.

وقولنا [وشاهد من الشرع يؤيده.]: أي لا بد لهذه الإشارات أن يدل عليها دليل من الشرع، فإن خالفت أصولا شرعية؛كانت باطلة قطعا، إذ الشرع لا يناقض بعضه بعضا، بل يؤيد بعضه بعضا، ومتى ثبت إسناد المعنى إلى اللفظ الظاهر؛كان نفس هذا المعنى الظاهر؛ شاهدا شرعيا في ذاته على هذا المعنى ، خلافا للباطنية الملاحدة الذين أرادوا هدم الدين بنسبة معاني إلى آيات الكتاب العزيز لا يدل عليها الشرع، بل تناقضه، وتفسده، ولا بأس أن نذكر بعض الأمثلة، وسنفرد لهذا الأمر الخطير مبحثا قادما بإذن الله، ومن أمثلة هذا النوع ما يفتريه الباطنيون

كما يقولون مثلا عند قوله تعالى {آلم ذلك الكتاب}أي: الكتاب علي.

وهذا لا شك أنه ضلال فلا شاهد من الشرع يدل على تسمية (سيدنا علي) بالكتاب، ولا لغة ولا عقلا، بل الإجماع قائم على خلاف هذا، وخلاف الإجماع ضلال لاشك، مثل ما يقولون أيضا: {لا ريب فيه}: لا شك في إمامته، وهذا أيضا لا يدل عليه شيء وهو خلاف الإجماع

{هدى للمتقين}: بيان لشيعتنا، وعلى هذا النمط كل القرآن، وإنما أذكر مجرد أمثلة فقط فعند قوله تعالى: {إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها} يقولون إن هذا المثل ضربه الله لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب،

---

(١) هذا اللفظ استفدناه من الإمام الغزالي إذ يسمي هذه الأمور التي لا تمت للنص بصلة بـ(الشطحات).

فالبعوضة أمير المؤمنين وما فوقه رسول الله، والدليل على ذلك قوله: {فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم} إلى قوله: {كثيرا}، فدل الله عليهم فقال: {وما يضل به إلا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه}: في علي، {ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل} يعني من صلة أمير المؤمنين والأئمة.

وعلى كل حال فقد جرت هذه التفاسير على هذا النحو في تفسير كتاب الله بمعان باطنية أبعد ما تكون عن معاني الآيات وهداية القران وتعاليم الإسلام، حتى ليبدو كأن القرآن نزل لخدمة غرض الباطنية فحسب، وذلك بما فسروه به من هذه المعاني التافهة والعقيدة الفاسدة.

وسيأتي تفصيلا بيان نماذج كثيرة من أباطيلهم وتحريفاتهم وتزويرهم لمعاني آيات القرآن الكريم

فشرطا الإشارة هما الإسناد والشاهد، وجب أن يتوفرا في الإشارة لتقبل، وهنا ننظر فيما اشترطه العلماء أيتوافق مع ما اشترطناه أم لا

قال الشاطبي: وكون الباطن هو المراد من الخطاب قد ظهر أيضا مما تقدم في المسألة قبلها ولكن يشترط فيه شرطان:

أحدهما أن يصح على مقتضى الظاهر المقرر في لسان العرب ويجري على المقاصد العربية.

والثاني أن يكون له شاهد نصا أو ظاهرا في محل آخر يشهد لصحته من غير معارض.

فأما الأول فظاهر من قاعدة لكون القرآن عربيا فإنه لو كان له فهم لا يقتضيه كلام العرب لم يوصف بكونه عربيا بإطلاق ولأنه مفهوم يلصق بالقرآن ليس في ألفاظه ولا في معانيه ما يدل عليه وما كان كذلك فلا يصح أن ينسب إليه أصلا إذ ليست نسبته إليه على أن مدلوله أولى من نسبة ضده إليه ولا مرجح يدل على أحدهما فإثبات أحدهما تحكم وتقول على القرآن ظاهر وعند ذلك يدخل قائله

تحت إثم من قال في كتاب الله بغير علم والأدلة المذكورة في أن القرآن عربي جارية هنا.

وأما الثاني فلأنه إن لم يكن له شاهد في محل آخر أو كان له معارض صار من جملة الدعاوي التي تدعى على القرآن والدعوى المجردة غير مقبولة باتفاق العلماء.

وبهذين الشرطين يتبين صحة ما تقدم أنه الباطن لأنهما موفران فيه بخلاف ما فسر به الباطنية فإنه ليس من علم الباطن كما أنه ليس من علم الظاهر)[١]

ولعل كلام الإمام الشاطبي يدل على ما قلنا بدلالة المطابقة، فهو عين كلامنا مع بسطه وتحريره.

وننظر أيضا إلى كلام الإمام ابن القيم إذ يقول: (وهذه الأقوال إن أريد أن اللفظ دل عليها وأنها هي المراد فغلط وإن أريد أنها أخذت من طريق الإشارة والقياس فأمرها قريب؛ وتفسير الناس يحاور على ثلاثة أصول: تفسير على اللفظ وهو الذي ينحو إليه المتأخرون؛ وتفسير على المعنى وهو الذي يذكره السلف؛ وتفسير على الإشارة والقياس وهو الذي ينحو إليه كثير من الصوفية وغيرهم وهذا لا بأس به بأربعة شرائط:

١- أن لا يناقض معنى الآية

٢- وأن يكون معنى صحيحا في نفسه

٣- وأن يكون في اللفظ إشعار به

٤-وأن يكون بينه وبين معنى الآية ارتباط وتلازم فإذا اجتمعت هذه الأمور الأربعة كان استنباطا حسنا) انتهى[٢]

---

(١) الموافقات، تحقيق مشهور سلمان (٤: ٢٣١ ـ ٢٣٢ (

(٢) التبيان في أقسام القرآن ص ٤٩

ولنا على كلام ابن القيم عدة ملاحظات:

الأولى: أنه يعلق الغلط بقول القائل أن معانيه هي الظاهر، وهذا أيضا ناقص، بل يكون كلام القائل غلطا أيضا إذا لم يأت بإسناد للمعنى المشار إليه بالنص الظاهر، وهذا قاله بنفسه ابن القيم إذ يقول في نهاية كلامه: . . . . وأن يكون في اللفظ إشعار به وأن يكون بينه وبين معنى الآية ارتباط وتلازم فإذا اجتمعت هذه الأمور الأربعة كان استنباطا حسنا) انتهى[١]

الثانية: قوله (إشارة أو قياس)، وقد بينا من قبل أن قضية القياس هذه لا تصلح إلا لقياس منصوص عليه، إذ القياس نفسه مستدل عليه بإشارة كما سيأتي، فلا يستدل على القياس بقياس وإلا كان دورا وهو باطل.

ثالثا: شرطه الأول (أن لا يناقض معنى الآية يعود ضمنا إلى ما اشترطناه، وإلا كيف يكون مسندا إليها وهو يناقضها؟! ثم إذا ناقض هذا المعنى ظاهر الآية فلا شك أن هذا يخرم شرط الشاهد الشرعي. وشرطه الثاني: أيضا عائد إلى شرطينا في المعنى فلا شك أنه لا يمكن أن يكون له صلة بالآية ثم هو معنى فاسد، إذ المعاني الفاسدة لا ترتبط بالآيات البينات

وشرطه الثالث والرابع عائدان إلى شرطنا الأول وهو الإسناد إلى النص الظاهر.

وهذا العلامة الزرقاني يقول: (مما تقدم يعلم أن التفسير الإشاري لا يكون مقبولا إلا بشروط خمسة وهي:

١- ألا يتنافى وما يظهر من معنى النظم الكريم

٢- ألا يدعى أنه المراد وحده دون الظاهر

٣- ألا يكون تأويلا بعيدا سخيفا كتفسير بعضهم قوله تعالى: (وإن الله لمع

---

(١) التبيان في أقسام القرآن ص ٤٩

المحسنين) بجعل كلمة لمع فعلا ماضيا وكلمة المحسنين مفعوله

٤- ألا يكون له معارض شرعي أو عقلي

٥-أن يكون له شاهد شرعي يؤيده،كذلك اشترطوا

بيد أن هذه الشروط متداخلة فيمكن الاستغناء بالأول عن الثالث وبالخامس عن الرابع ويحسن ملاحظة شرطين بدلهما:

- أحدهما: بيان المعنى الموضوع له اللفظ الكريم أولا

- ثانيهما: ألا يكون من وراء هذا التفسير الإشاري تشويش على المفسَّر له

ثم إن هذه شروط لقبوله بمعنى عدم رفضه فحسب وليست شروطا لوجوب اتباعه والأخذ به، ذلك لأنه لا يتنافى وظاهر القرآن ثم إن له شاهدا يعضده من الشرع وكل ما كان كذلك لا يرفض، وإنما لم يجب الأخذ به لأن النظم الكريم لم يوضع للدلالة عليه بل هو من قبيل الإلهامات التي تلوح لأصحابها غير منضبطة بلغة ولا مقيدة بقوانين) انتهى[١]

وملاحظاتنا على كلامه تتمثل في أن هذه الشروط كلها ترجع إلى شرطينا، فكلها راجعة إلى الإسناد والشاهد، والتكرار لا ضرورة له.

ومن ما يلاحظ أن الشيخ يحاول أن يضع قيودا وعوائق وكأنه يغلق هذه الدائرة وهذا في ظننا يرجع لأسباب:

أولا: كثرة الشاطحين (الذين يقولون بالشطحات) الذين كثروا في عصره لاسيما [المتمصوفة] لا الصوفية الحقة، فكأنه يغلق الباب عليهم بهذا حياطة لجناب القرآن، وسدا لذرائع الباطنية

الثاني: عدم وضوح حقيقة الإشارة عند الشيخ وارتباطها الذهني عنده بالجهلة والشاطحين والمعاني ربما غير الموصولة بالآية، فكأنه يتوجس من هذا النوع من

(١) مناهل العرفان ٢/ ٥٨

الاستنباط لعدم وضوح قواعد محددة لديه لهذا النوع، أما وقد حددت القواعد واستبان السبيل، فلا مانع أبدا منه بضوابضه التي بينا، ولم يعد مقتصرا على طائفة، بل هو مقام الراسخين في العلم كما يقول الحافظ ابن حجر: ولهذا لا يتمكن من فهم الإشارات إلا من رسخت قدمه في العلم ولهذا قال علي رضى الله عنه أو فهما يؤتيه الله رجلا في القرآن[١]

* * *

(١) انظر فتح الباري لابن حجر ٨/ ٧٣٦

المبحث الخامس
الشطحات

مما سبق يتبين لك أن الإشارة هو مصطلح تام في الدلالة على معنى غير مراد من الآية له إسناد وشاهد، فإذا وجدنا معنى صحيحا في نفسه له شواهد من الشرع تدل عليه، لكنه لا إسناد له ولا علاقة بالآية التي تقرأها فلا يصح أن تنسب هذا المعنى إلى الآية، فإذا فعلت فإن ذلك يكون (شطحا)، إذ هو نسبة شيء إلى الآية -وإن كان صحيحا- لا علاقة له بالآية ولا إسناد، وهذا هو الذي سبب الإشكال في هذا الباب، وجعل كثيرا من العلماء يحذرون من هذا الباب كله، ويشددون في ذلك، وهذا هو الباب الذي ولج منه كثير من الجهال لينسبوا كل ما يرد على أذهانهم من الخيالات والخبالات إلى النص الشريف مما يكسب هذه الخبالات والخرافات نوع قدسية وقبول لدى الناس، وهم في ذلك مشابهون لحال من يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله، فأولئك ينسبون بالكتابة، وهؤلاء ينسبون بالقول، وكلاهما ذنب عند الله عظيم، ولاشك أن هذا المزلق خطير إذ فيه جرأة الجهال على كلام الكبير المتعال -سبحانه وبحمده- ثم إنه لا يخفاك خوف السلف من الصحابة والتابعين من التجرأ على مراد الله تعالى من كلامه، كيف وأهم أزكى الناس علما وعقلا وفهما، وهم من شاهدوا الوحي والتنزيل، وعلموا التفسير والتأويل، وهم من هدوا إلى سواء السبيل، فكيف بالعوام والطغام الذين ينسبون من هذه الجهة -جهة الشطحات- كل ما يرد من خبالاتهم وخيالاتهم إلى النص القرآني العزيز، والذي استلهمنا منه هذا المصطلح مصطلح (الشطحات) هو الإمام الكبير أبو حامد الغزالي فقد أوسع هذا الباب نقدا ونقضا في سفره العظيم إحياء علوم الدين، وهذا لعمري عجب، فهو إمام من أئمة الصوفية، لكنه مع ذلك يسلق جهال الصوفية بلسان حاد في هذا

الباب لتعلم أن العالم الصادق لا يحابي حزبا ولا توجها ولا تيارا في سبيل الحق، وأن الحق هو إمام كل إمام، حتى إنك لو لم تذكر أن الإمام الغزالي هو قائل هذا الكلام ما ظن أحد أن قائله الإمام الغزالي لما عرف عنه من التصوف وهو لا ينقد هنا أحدا إلا جهال الصوفية. وكلامه يوزن بالذهب كمال يقول الإمام الزرقاني: هي كلمة مدبجة ببراعة الإمام الغزالي(١)

يقول الإمام الغزالي: وأما الشطح فنعني به صنفين من الكلام أحدثه بعض الصوفية، أحدهما الدعاوي الطويلة العريضة في العشق مع الله تعالى والوصال المغني عن الأعمال الظاهرة حتى ينتهي قوم إلى دعوى الاتحاد وارتفاع الحجاب والمشاهدة بالرؤية والمشافهة بالخطاب فيقولون قيل لنا كذا وقلنا كذا ويتشبهون فيه بالحسين بن منصور الحلاج الذي صلب لأجل إطلاقه كلمات من هذا الجنس ويستشهدون بقوله أنا الحق وبما حكي عن أبي يزيد البسطامي أنه قال سبحاني سبحاني وهذا فن من الكلام عظيم ضرره في العوام حتى ترك جماعة من أهل الفلاحة فلاحتهم وأظهروا مثل هذه الدعاوي فإن هذا الكلام يستلذه الطبع إذ فيه البطالة من الأعمال مع تزكية النفس بدرك المقامات والأحوال فلا تعجز الأغبياء عن دعوى ذلك لأنفسهم ولا عن تلقف كلمات مخبَّطة مزخرفة ومهما أنكر عليهم ذلك لم يعجزوا عن أن يقولوا هذا إنكار مصدره العلم والجدال والعلم حجاب والجدل عمل النفس وهذا الحديث لا يلوح إلا من الباطن بمكاشفة نور الحق فهذا ومثله مما قد استطار في البلاد شرره وعظم في العوام ضرره حتى من نطق بشيء منه فقتله أفضل في دين الله من إحياء عشرة(٢)

ولنا وقفة هنا مع كلام الإمام الغزالي، فإن هؤلاء البطالين الجاهلين لم يصلوا إلى ما وصلوا إليه من إسقاط التكاليف، ونبذ الأوامر والنواهي واستبدال الشرع المبدل بالشرع المنزل، إلا من هذا الباب باب الشطحات حين قالوا (واعبد ربك

(١) انظر مناهل العرفان ٢/ ٩٠

(٢) إحياء علوم الدين ١/ ٣٦

حتى يأتيك اليقين) فقالوا: هو يقين القلب، إذا وصل إلى مقام اليقين لا تضره فعل حرام، ولا ترك واجب، إذن فأصل زيغهم وضلالهم هو باب الشطحات الذي ظنوه باب الإشارات، ويحسن أيضا ذكر مثال لذلك ما ذكروه في الاحتجاج على الرقص: من قوله تعالى: {اركض برجلك}[ص: ٤]،

وهذا الاستنباط غير صحيح، والمعنى المدلول عليه خطأ بذاته، وهو الرقص؛ إذ الرقص لا يجوز أصلا.

قال القرطبي: «استدل بعض جهال المتزهدة وطغام المتصوفة بقوله تعالى لأيوب: {اركض برجلك}[ص: ٤٢] على جواز الرقص.

قال أبو الفرج الجوزي: وهذا احتجاج بارد؛ لأنه لو كان أمر بضرب الرجل فرحا كان لهم فيه شبهة، وإنما أمر بضرب الرجل لينبع الماء.

قال ابن عقيل: أين الدلالة في مبتلى أمر عند كشف البلاء ـ بأن يضرب برجله الأرض؛ لينبع الماء إعجازا من الرقص، ولئن جاز أن يكون تحريك رجل قد أنحلها تحكم الهوام دلالة على جواز الرقص في الإسلام جاز أن يجعل قوله سبحانه لموسى: {اضرب بعصاك الحجر} [البقرة: ٦٠] دلالة على ضرب الجماد بالقضبان، نعوذ بالله من التلاعب بالشرع[١]. . . .[٢]

فمن أصول ضلال هؤلاء هو ما سموه بهتانا وزورا بالإشارات وهي عين الشطحات

أما الملحظ الثاني: تشديد الإمام الغزالي جدا في عقوبة هؤلاء حتى إنه وصل بهم إلى القتل تعزيرا لما لهم من شر مستطير وخطر كبير، في إفساد دعائم الدين وعقائد المسلمين.

وليس هذا ببدع من القول بل سبقه العلماء ووافقوه على التحذير الشديد من

(١) نقله المؤلف من كتاب ابن الجوزي: تلبيس إبليس (ص: ٣١٧).
(٢) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (١٥/ ٢١٥).

هذا الضرب من الكلام في كتاب الله، فهذا الإمام السيوطي قد نقل في الإتقان: قَالَ التَّفْتَازَانِيُّ فِي شَرْحِهِ: سُمِّيَتِ الْمَلَاحِدَةُ بَاطِنِيَّةً لِادِّعَائِهِمْ أَنَّ النُّصُوصَ لَيْسَتْ عَلَى ظَاهِرِهَا بَلْ لَهَا مَعَانٍ بَاطِنِيَّةٌ لَا يَعْرِفُهَا إِلَّا الْمُعَلِّمُ وَقَصْدُهُمْ بِذَلِكَ نَفْيُ الشَّرِيعَةِ بِالْكُلِّيَّةِ.

وَسُئِلَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ سِرَاجُ الدِّينِ البلقيني عَنْ رَجُلٍ قَالَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ}: إِنَّ مَعْنَاهُ: مَنْ ذَلَّ: أَيْ مِنَ الذُّلِّ ذِي: إِشَارَةٌ إِلَى النفس يشف: من الشفا جَوَابُ "مَنْ" ع: أَمْرٌ مِنَ الْوَعْيِ فَأَفْتَى بِأَنَّهُ مُلْحِدٌ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: {إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا} قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُوَ أَنْ يوضع الْكَلَامَ عَلَى غَيْرِ مَوْضِعِهِ[1]

فإفتاء البلقيني بأنه ملحد، وقد سبق تكفير الواحدي لمن اعتقد أن هذه الشطحات تفسير لكلام الله تعالى، وهكذا العلماء يحذرون من هذا الباب جدا، حتى جر هذا الأمر بعضهم ليرفض الإشارات لما تشابهت في ذهنه بهذه الشطحات، حتى تكاد تلمح في كلامه أنه يود لو لم يقترب الناس من هذا النوع من الاستنباطات سدا لذرائع التحريف. . .

كمثل الشيخ الزرقاني إذ يقول: بيد أن هذا التفسير كما ترى جاء كله على هذا النمط دون أن يتعرض لبيان المعاني الوضعية للنصوص القرآنية وهنا الخطر كل الخطر فإنه يخاف على مطالعه أن يفهم أن هذه المعاني الإشارية هي مراد الخالق إلى خلقه في الهداية إلى تعاليم الإسلام والإرشاد إلى حقائق هذا الدين الذي ارتضاه لهم.

ولعلك تلاحظ معي أن بعض الناس قد فتنوا بالإقبال على دراسة تلك الإشارات والخواطر فدخل في روعهم أن الكتاب والسنة بل الإسلام كله ما هي إلا سوانح وواردات على هذا النحو من التأويلات والتوجيهات وزعموا أن الأمر ما هو إلا تخيلات وأن المطلوب منهم هو الشطح مع الخيال أينما شطح فلم

(١) انظر الإتقان في علوم القرآن ٤/ ٢٢٤

يتقيدوا بتكاليف الشريعة ولم يحترموا قوانين اللغة العربية في فهم أبلغ النصوص العربية كتاب الله وسنة رسول الله .

والأدهى من ذاك أنهم يتخيلون ويخيلون إلى الناس أنهم هم أهل الحقيقة الذين أدركوا الغاية واتصلوا بالله اتصالا أسقط عنهم التكليف وسما بهم عن حضيض الأخذ بالأسباب ما داموا في زعمهم مع رب الأرباب وهذا لعمر الله هو المصاب العظيم الذي عمل له الباطنية وأضرابهم من أعداء الإسلام كما يهدموا التشريع من أصوله ويأتوا بنيانه من قواعده {يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ}.

فواجب النصح لإخواننا المسلمين يقتضينا أن نحذرهم الوقوع في هذه الشباك ونشير عليهم أن ينفضوا أيديهم من أمثال تلك التفاسير الإشارية الملتوية ولا يعولوا على أشباهها مما ورد في كلام القوم بالكتب الصوفية لأنها كلها أذواق ومواجيد خارجة عن حدود الضبط والتقليد وكثيرا ما يختلط فيها الخيال بالحقيقة والحق بالباطل وإذا تجردت من ذلك فقلما يظهر منها مراد القائل وإذا ظهر فقد يكون من الكُفريات الفاحشة التي نستبعد صدورها من العلماء والمتصوفة بل من صادقي عامة المسلمين والتي نرى الطعن فيها بالدس والوضع أقرب وأسلم من الطعن في من عزيت إليه بالكفر والفسق.

فالأحرى بالفطن العاقل أن ينأى بنفسه عن هذه المزالق وأن يفر بدينه من هذه الشبهات وأمامه في الكتاب والسنة وشروحهما على قوانين الشريعة واللغة رياض وجنات.

{أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ} ؟!

قال ﷺ : «فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه».(١)

---

(١) حديث صحيح،أخرجه الترمذي (١٢٠٥) ، وأبو الشيخ في «الأمثال» (٢٦٠) من طريق حماد بن زيد، والطبراني في «الأوسط» (٢٢٨٥) ، وفي «مسند الشاميين» (٥١١)

وقال ﷺ: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»[١] وبالله تعالى توفيقي وتوفيقك نسأله تعالى أن يخرجنا من ظلمات الأوهام وأن يحققنا بحقائق الدين وتعاليم الإسلام آمين[٢]

وكلام الإمام الزرقاني يحتاج إلى تعليقات مطولة لا يسعها المقام لكن يكفينا منها ما اشتدت الحاجة إليه، وهو **أولا**: توجسه الشديد من صرف الألفاظ إلى غير معانيها وهو حق لأن هذا باب خطير لهدم الدين

ثانيا: ملاحظته إقبال الناس وفتنتهم بمثل هذه المعاني التي لا يفهمونها من النص، وهو أيضا ملاحظ لاسيما عند أدعياء التصوف

ثالثا: خوفه من أن تذهب ظواهر القرآن من عقول الناس وقلوبهم لتحل محلها هذه المعاني بل هذ الشطحات فيكون هذا رفعا لمعاني القرآن قبل رفع مبانيه، وهذا مؤذن بقيام الساعة.

ثم يتابع الإمام كلامه بقوله: الصنف الثاني من الشطح كلمات غير مفهومة لها ظواهر رائقة وفيها عبارات هائلة وليس وراءها طائل إما أن تكون غير مفهومة عند قائلها بل يصدرها عن خبط في عقله وتشويش في خياله لقلة إحاطته بمعنى كلام قرع سمعه وهذا هو الأكثر

وإما أن تكون مفهومة له ولكنه لا يقدر على تفهيمها وإيرادها بعبارة تدل على ضميره لقلة ممارسته للعلم وعدم تعلمه طريق التعبير عن المعاني بالألفاظ الرشيقة ولا فائدة لهذا الجنس من الكلام إلا أنه يشوش القلوب ويدهش العقول ويحير الأذهان أو يحمل على أن يفهم منها معاني ما أريدت بها ويكون فهم كل

---

(١) إسناده صحيح.
وأخرجه بتمامه أبو يعلى (٦٧٦٢) ، وابن حبان (٧٢٢) وأخرجه عبد الرزاق (٤٩٨٤) ، والطبراني (٢٧١١) من طريق الحسن بن عمارة، والطبراني (٢٧٠٨) ، وأبو نعيم في «الحلية» ٨/ ٢٦٤.

(٢) مناهل العرفان ٢/ ٩٠.

واحد على مقتضى هواه وطبعه

وكما ورد عن عَبْدَ اللهِ بْنَ مَسْعُودٍ: ما حدث أحدكم قوماً بحديث لا يفقهونه إلا كان فتنة عليهم[(١)]

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ، أَتُرِيدُونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ»[(٢)] وهذا فيما يفهمه صاحبه ولا يبلغه عقل المستمع فكيف فيما لا يفهمه قائله؟!

فإن كان يفهمه القائل دون المستمع فلا يحل ذكره

وقال عيسى عليه السلام: لا تضعوا الحكمة عند غير أهلها فتظلموها ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم كونوا كالطبيب الرفيق يضع الدواء في موضع الداء

وفي لفظ آخر من وضع الحكمة في غير أهلها فقد جهل ومن منعها أهلها فقد ظلم إن للحكمة حقاً وإن لها أهلاً فأعط كل ذي حق حقه[(٣)] وهذا هو الحق الذي ينبغي أن يصار إليه، فكثير من هذه الشطحات كلام حسن في نفسه، بعبارات مرققة لكنها لا تمت للآية بصلة، وهذا الارتباط الذي أوجده هو، ليس ارتباطا معيارا، بمعنى أنه لن يتوارد عليه كل الناس إذا ما أتيحت لهم نفس الفرصة، وتهيأت لهم نفس الظروف، فالنص لا يدل بذاته على هذا التمثيل الذي مثله هذا الشاطح، وإلا لكان يجب –عقلا– أن يتوارد عليه العقلاء وأهل العلم، هذا إذا كان هذا ارتباطا معياريا، فعلم أنه راجع إلى نفسية وحالة الشخص الذي يبتدئ بضرب مثل هذه الأمثلة وقياس هذه الأقيسة، وهذا راجع إلى خلفية كل أحد، وتصوراته التي يمتلأ بها ذهنه، والأمور التي تشغل باله، فإن العوارض التي تعرض لكل إنسان في حياته، هي التي تملأ ذهنه، ويستجلب هذه الأصول النفسية الخاصة

---

(١) جامع بيان العلم وفضله ص ٥٣٩
(٢) جامع بيان العلم وفضله ص ٥٤٠
(٣) إحياء علوم الدين ١/ ٣٧

عنده، ويربطها بالآية، وهذا قد حصل مع كل أحد إذا عرضنا عليه آية وقلنا له هات من الآية ما يذكرك من قريب أو بعيد بما أنت متعلق به من مهنة أو عمل أو شغل لأتى بها، قربت الإشارة أو بعدت، هذا يثبت أن الارتباط ليس ارتباط ذاتيا في الآية نفسها، بل هو ارتباط نفسي بالقارئ، وهذا مما ينبغي أن ينزه القرآن عنه.

ثم يتابع الإمام كلامه النفيس قائلا: وأمر آخر مهم، ضرره عظيم، وشره مستطير وهو صرف ألفاظ الشرع عن ظواهرها المفهومة إلى أمور باطنة لا يسبق منها إلى الأفهام فائدة كدأب الباطنية في التأويلات فهذا أيضاً حرام وضرره عظيم فإن الألفاظ إذا صرفت عن مقتضى ظواهرها بغير اعتصام فيه بنقل عن صاحب الشرع ومن غير ضرورة تدعو إليه من دليل العقل اقتضى ذلك بطلان الثقة بالألفاظ وسقط به منفعة كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ فإن ما يسبق منه إلى الفهم لا يوثق به والباطن لا ضبط له بل تتعارض فيه الخواطر ويمكن تنزيله على وجوه شتى وهذا أيضاً من البدع الشائعة العظيمة الضرر وإنما قصد أصحابها الإغراب لأن النفوس مائلة إلى الغريب ومستلذة له وبهذا الطريق توصل الباطنية إلى هدم جميع الشريعة بتأويل ظواهرها وتنزيلها على رأيهم كما حكيناه من مذاهبهم في كتاب المستظهر المصنف في الرد على الباطنية.

وإنك لتعجب أشد العجب حين تجد قائل هذا الكلام المحرر الدقيق الموافق لصريح المعقول، وصحيح المنقول، هو نفسه القائل، عند قول الله تعالى) فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي) وليس المعنى به هذه الأجسام المضيئة فإنه كان يراها في الصغر ويعلم أنها ليست آلهة وهي كثيرة وليست واحداً والجهال يعلمون أن الكوكب ليس بإله فمثل إبراهيم عليه السلام، لا يغره الكوكب الذي لا يغر السوادية.

ولكن المراد به أنه نور من الأنوار التي هي من حجب الله وهي على طريق السالكين ولا يتصور الوصول إلى الله تعالى إلا بالوصول إلى هذه الحجب وهي حجب من نور بعضها أكبر من بعض وأصغر النيرات الكوكب فاستعير له لفظه

وأعظمها الشمس وبينهما رتبة القمر فلم يزل إبراهيم لما رأى ملكوت السموات حيث قال تعالى وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض يصل إلى نور بعد نور ويتخيل إليه في أول ما كان يلقاه أنه قد وصل ثم كان يكشف له أن وراءه أمراً فيترقى إليه ويقول قد وصلت فيكشف له ما وراءه حتى وصل إلى الحجاب الأقرب الذي لا وصول إلا بعده فقال هذا أكبر فلما ظهر له أنه مع عظمه غير خال عن الهوى في حضيض النقص والانحطاط عن ذروة الكمال قال لا أحب الآفلين[١].

وأظن أن العقلاء متفقون على أن النصين متناقضان من كل وجه، ولا تعليق إلا أن نقول (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) ، والكمال لا يكون إلا لله، ويمكن أن يعتذر للإمام باعتذار لطيف، ومثله يعتذر له، أنه مر بأطوار كثيرة كل منها خلفت ظلالا عنده، لم يكن الإمام متحررا من كل فلسفة أو طائفة تعلق بها أو طالع طرائقها، فبقيت عنده رواسب من مناهج هذه الطوائف لم يمكنه التحرر منها مطلقا، فتبدو ربما في شييء كهذا، وكل يؤخذ من قوله ويرد عليه، والمعصوم رسول الله ﷺ.

فإن لم يسلم لك عقلك، ولم يستقم قلبك، فترد هذا الكلام ردا قاطعا، ضاربا به عرض الحائض؛ ولم تقتنع إلا بقول لعالم، وشهادة من سابق، هذا الإمام ابن الجوزي يشتد ويعنف الغزالي بقوله: وجاء أبو حامد الغزالي فصنف لهم كتاب الأحياء على طريقة القوم وملأه بالأحاديث الباطلة وهو لا يعلم بطلانها وتكلم في علم المكاشفة وخرج عن قانون الفقه وقال أن المراد بالكوكب والشمس والقمر اللواتي رآهن إبراهيم صلوات الله عليه أنوار هي حجب الله عزوجل ولم يرد هذه المعروفات وهذا من جنس كلام الباطنية[٢]

ثم يتابع كلامه بقوله: والسبب في قولهم بهذه الأشياء قلة علمهم بالسنن والإسلام والآثار وإقبالهم على ما استحسنوه من طريقة القوم[٣]

(١) (إحياء علوم الدين ٣/ ٤٠٧)

(٢) تلبيس إبليس ص ١٤٩

(٣) تلبيس إبليس ص ١٤٩

ثم يكمل الإمام الغزالي بقوله: ومثال تأويل أهل الطامات قول بعضهم في تأويل قوله تعالى {اذهب إلى فرعون إنه طغى} أنه إشارة إلى قلبه وقال هو المراد بفرعون وهو الطاغي على كل إنسان

وفي قوله تعالى {وأن ألق عصاك} أي ما يتوكأ عليه ويعتمده مما سوى الله ﷻ فينبغي أن يلقيه

وفي قوله ﷺ: تسحروا فإن في السحور بركة[١] أراد به الاستغفار في الأسحار وأمثال ذلك حتى يحرفون القرآن من أوله إلى آخره عن ظاهره وعن تفسيره المنقول عن ابن عباس وسائر العلماء وبعض هذه التأويلات يعلم بطلانها قطعاً كتنزيل فرعون على القلب فإن فرعون شخص محسوس تواتر إلينا النقل بوجوده ودعوة موسى له وكأبي جهل وأبي لهب وغيرهما من الكفار وليس من جنس الشياطين والملائكة مما لم يدرك بالحس حتى يتطرق التأويل إلى ألفاظه وكذا حمل السحور على الاستغفار فإنه كان ﷺ يتناول الطعام ويقول تسحَّرُوا[٢] وهلموا إلى الغذاء المبارك[٣] فهذه أمور يدرك بالتواتر والحس بطلانها نقلًا وبعضها يعلم بغالب الظن وذلك في أمور لا يتعلق بها الإحساس فكل ذلك حرام وضلالة وإفساد للدين على الخلق ولم ينقل شيء من ذلك عن الصحابة ولا عن التابعين ولا عن الحسن البصري مع إكبابه على دعوة الخلق ووعظهم فلا يظهر لقوله من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار[٤] معنى إلا هذا النمط وهو أن يكون غرضه ورأيه تقرير أمر وتحقيقه فيستجر شهادة القرآن إليه ويحمله عليه

---

(١) حديث تسحروا فإن في السحور بركة متفق عليه من حديث أنس

(٢) حديث تناول الطعام في السحور رواه البخاري من حديث أنس أن النبي ﷺ وزيد بن ثابت تسحرا

(٣) حديث هلموا إلى الغذاء المبارك رواه أبو داود والنسائي وابن حبان من حديث العرباض بن سارية وضعفه ابن القطان

(٤) حديث من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار أخرجه الترمذي من حديث ابن عباس وحسنه وهو عند أبي داود من رواية ابن العبد وعند النسائي في الكبرى

من غير أن يشهد لتنزيله عليه دلالة لفظية لغوية أو نقلية ولا ينبغي أن يفهم منه أنه يجب أن لا يفسر القرآن بالاستنباط والفكر فإن من الآيات ما نقل فيها عن الصحابة والمفسرين خمسة معان وستة وسبعة

ونعلم أن جميعها غير مسموع من النبي ﷺ فإنها قد تكون متنافية لا تقبل الجمع فيكون ذلك مستنبطاً بحسن الفهم وطول الفكر ولهذا قال لابن عباس رضى الله عنهما، اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل(١). . . (٢)

وكلام الإمام يحتاج تعليقا وتحقيقا وتدقيقا فهو كلام دسم يحتاج إلى تفكيك

الملاحظة الأولى: قوله [ومثال تأويل أهل الطامات قول بعضهم في تأويل قوله تعالى {اذهب إلى فرعون إنه طغى} أنه إشارة إلى قلبه وقال هو المراد بفرعون وهو الطاغي على كل إنسان]

هنا الإمام ينعي بشدة شديدة على من صرف لفظ (اذهب إلى فرعون إلى معنى الذهاب إلى القلب) ويرميهم بتهمة الباطنية المحرفين، والغلاة المبطلين، وإنك لتعجب أشد العجب حين ترى هذا الكلام الذي ينعي عليه الإمام الغزالي، ويبطله ويضلل قائله، تجد هذا الكلام شائعا على ألسنة كبار مشايخ الصوفية والقائلين بالتفسير على طريقتهم، أتصدق أن هذا قول عيون المفسرين على طريقة الصوفية ينقله عنهم ابن عجيبة في تفسيره؟!

يقول ابن عجيبة: فإذا انخلعت أيها الفقير عن الكونين، وألقيت عصاك بوادي البيْن، فاذهب إلى فرعون نفسك ووجود حسك، إنه طغى عليك، حيث حجبك عن شهود ربك، فلا حجاب بينك وبين ربك، إلا حِجاب نفسك، ووقوفك مع شهود حسك، فهو أكبر الفراعين في حقك، فاهدم وجوده، وأَغْرِقْ في بحر

(١) حديث اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل قاله لابن عباس رواه البخاري من حديث ابن عباس دون قوله وعلمه التأويل وهو بهذه الزيادة عند أحمد وابن حبان والحاكم وقال صحيح الإسناد

(٢) إحياء علوم الدين ١/ ٣٧

الحقيقة شهودَه، وذلك بالغيبة عنه في شهود مولاه[١]

الكلام عينه هو ما يسميه كثير من رؤوس العوام من الصوفية إشارة وفيوضا وفتوحا يسميه الغزالي بالشطحات والطامات، إذن فإذا نقدنا بمنهج علمي ما هو على شاكلة هذه الشطحات والطامات على حد قول الإمام الغزالي، ولا يقال لنا -حينها- كيف تنتقدون الإمام فلان؟! أو الولي فلان؟! فإن المشارك لنا في النقد -هنا- هو حجة الإسلام الغزالي، فما يتوجه لنا يتوجه إليه، وما يجري علينا فهو يصل إليه، علمت ذلك أو لم تعلم.

الملاحظة الثانية: وهو قوله [وفي قوله تعالى {وأن ألق عصاك} أي ما يتوكأ عليه ويعتمده مما سوى الله عز وجل فينبغي أن يلقيه]

وهذا نخالف فيه الإمام الغزالي - رضى الله عنه- فإن هذه الإشارة منضبة إذ يتوفر فيها شرطا الإشارة، فأما الإسناد فهو أن موسى تخلى عن عصاه وألقاها وهو معتمد عليها، فانقلبت شيئا آخر لا منفعة فيه له، فكأنه صرفه عن العصا بتغييرها لحيوان آخر ليعلم أن العصا ليست خواصها ذاتيا بل ربنا هو من أودعها هذه الخواص التي تتحقق فيها عادة، فعلمه ترك الاعتماد عليها إلى الاعتماد على من خلق الخواص ويقدر على إنفاذها أو إيقافها، وأما شواهد الشرع فكثيرة على ترك التفات القلب إلى الأسباب، بل القلب مأمور أن لا يكون له تعلق إلا بالله، والأسباب تتعلق بالجوارح الظاهرة. وهنا تعلم أن الذي يحكمنا في القبول أو الرد هو القانون والقاعدة العلمية المقررة في ضبط الإشارات.

بل وأعجب من كلام الغزالي، كلام الشيخ محمد حسين الذهبي الأزهري حين قال موافقا لنا، فيما قلناه عن التمثيل المبني على سابق العهد الذهني فيما يتمثله الصوفي من المعارف، فيأتي ليلصقها بالآية تمثيلا، نجد الإمام الشيخ محمد الحسين الذهبي ينكر ذلك على الصوفية جدا، بما لو قلناه نحن لوجدنا من ينسبنا للجرأة وسوء الأدب؛ يقول: إن التفسير الصوفي النظري تفسير يخرج

(١) البحر المديد ٣/ ٣٨٥

بالقرآن – في الغالب – عن هدفه الذى يرمى إليه!!. . يقصد القرآن هدفا معينا بنصوصه وآياته، ويقصد الصوفي هدفا معينا بأبحاثه ونظرياته. وقد يكون بين الهدفين تنافر وتضاد، فيأبى الصوفي إلا أن يحول القرآن عن هدفه ومقصده، إلى ما يقصده هو ويرمى إليه، وغرضه بهذا كله: أن يروج لتصوفه على حساب القرآن، وأن يقيم نظرياته وأبحاثه على أساس من كتاب الله، وبهذا الصنيع يكون الصوفي قد خدم فلسفته التصوفيَّة ولم يعمل للقرآن شيئا، اللهم إلا هذا التأويل الذى كله شر على الدين وإلحاد في آيات الله!![١]

وقال أيضا: ومثل هذا التفسير الصوفي، ينبني على مقدمات علمية تنقدح في ذهن الصوفي أولا، ثم ينزل القرآن عليها بعد ذلك[٢]

وهذا الإمام ابن الجوزي ينتقد هذا المسلك انتقادا شديدا، ينعي عليهم نسبة تمثيلات وتشبيهات إلى الآية من غير صلة بها بقوله: ويقولون العجب في تفسيرهم للقرآن بما يقع لهم من غير إسناد ذلك إلى أصل من أصول العلم وإنما حملوه على مذاهبهم والعجب من ورعهم في الطعام وانبساطهم في القرآن[٣]

فإن قلت إنهم يحاولون تخريج مصطلحات الصوفية من القبض أو البسط... الخ، من الآيات!

قلنا كل هذه الاصطلاحات لا معنى لكثير منها، بل يقول ابن الجوزي: وهذه العجائب من الكلام في الفناء والبقاء والقبض والبسط والوقت والحال والوجد والوجود والجمع والتفرقة والصحو والسكر والذوق والشرب والمحو والإثبات والتجلي والمحاضرة والمكاشفة واللوائح والطوالع واللوامع والتكوين والتمكين والشريعة والحقيقة إلى غير ذلك من التخليط الذي ليس بشيء وتفسيره أعجب منه[٤]

(١) التفسير والمفسرون ٢/ ٢٥٦
(٢) التفسير والمفسرون ٢/ ٢٦١
(٣) تلبيس إبليس ص ١٤٨
(٤) تلبيس إبليس ص ١٤٩

وللأسف هذه هي المصطلحات التي حشيت بها كتب الإشارات، والله المستعان.

ومما يدلك على أنهم يعتقدون ما يعتقدون من النحل الباطلة، والمعاني المحرفة، ثم يأتي ليلصقها بالقرآن، ويستنبطها منه، ما حكاه العلامة الفقيه مرعي الكرمي الحنبلي بقوله: وَلَقَد صرح كثير من المتصوفة أَن البارئ سُبْحَانَهُ هُوَ عين مَا ظهر وَمَا بطن من الْوُجُود وَأَنه تَعَالَى هُوَ الْعَالم بأسره وَقد شافهني بعض مشايخهم المتعمقين بذلك فَقلت لَهُ وَمن أَيْن دَلِيل هَذَا فَقَالَ من قَوْله سُبْحَانَهُ {هُوَ الأول وَالْآخر وَالظَّاهِر وَالْبَاطِن} الْحَدِيد ، فَإِذا كَانَ هُوَ يَقُول هُوَ الظَّاهِر وَالْبَاطِن أَتَقول أَنْت لَا؟! فعجبت من مقَالَته وَمن تَحْسِين الشَّيْطَان لعقول هَؤُلَاءِ الخرافات والمحالات فَقَرَأَ فِي الْمجْلس قَارِئ قوله تعالى: {لله مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْض} الْآيَة ؛فَقلت لَهُ أَيهَا الشَّيْخ هَذِه الْآيَة ترد مَا قلت حَيْثُ جعل لله مَا فيهمَا فَهُوَ سُبْحَانَهُ غَيرهمَا لَا عينهما فَقَالَ على الْفَوْر لله مَا فِي السَّمَوَات وَمَا فِي الأَرْض بِفَتْح لَام لله فعجبت من هَذِه الفلسفة والزندقة والسفسطة المحققة أعاذنا الله تَعَالَى مِنْهَا وَمن الزيغ والضلال(١)

فانظر –رحمك الله – كيف اعتقد السوء من وحدة الوجود ، وحلول الواجد بالموجود،ثم حرف الآية لتوافق اعتقاده! وكثيرا مما يظنونه إشارات هي من هذا الباب .

ومن أمثلة هذه الشطحات؛ما رواه أبو القاسم عبد الواحد بن عثمان البجلي قال سمعت جعفر بن محمد الخلدي قال حضرت شيخنا الجنيد وقد سأله كيسان عن قوله: {سنقرئك فلا تنسى} فقال الجنيد لا تنسى العمل به وسأله عن قوله تعالى: {ودرسوا ما فيه} فقال له الجنيد تركوا العمل به فقال لا يفضض الله فاك(٢)

---

(١) أقاويل الثقات في تأويل آيات الأسماء والصفات ص ١٠٨

(٢) تلبيس إبليس ص ٢٩٣

علق الإمام ابن الجوزي بقوله: أما قوله لا تنس العمل به فتفسير لا وجه له والغلط فيه ظاهر لأنه فسره على أنه نهي وليس كذلك إنما هو خبر لا نهي وتقديره فما تنس إذ لو كان نهيا كان مجزوما فتفسيره على خلاف إجماع العلماء وكذلك قوله: {ودرسوا ما فيه} إنما هو من الدرس الذي هو التلاوة من قوله ﷻ: {وبما كنتم تدرسون} لا من دروس الشيء الذي هو إهلاكه[١]

وروى أبو نعيم الحافظ قال سمعت أحمد بن محمد بن مقسم يقول حضرت أبا بكر الشبلي وسئل عن قوله ﷻ إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب فقال لمن كان لله قلبه[٢]

وعن محمد بن جرير قال سمعت أبا العباس بن عطاء وقد سئل عن قوله: {فنجيناك من الغم} قال نجيناك من الغم بقومك وفتنَّاك بنا عن من سوانا. [٣]

علق الإمام ابن الجوزي على الخبرين السابقين بقوله: وهذه جرأة عظيمة على كتاب الله ﷻ ونسبة الكليم إلى الافتتان بمحبة الله سبحانه وجعل محبته تفتن غاية في القباحة[٤]

وروى أبو بكر محمد بن عبد الله الرازي يقول سمعت أبا العباس بن عطاء يقول في قوله ﷻ: {فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنت نعيم} فقال الروح النظر إلى وجه الله ﷻ والريحان الاستماع لكلامه وجنة نعيم هو أن لا يحجب فيها عن الله[٥]

علق الإمام ابن الجوزي بقوله: هذا كلام بالواقع على خلاف أقوال المفسرين وقد جمع أبو عبد الرحمن السلمي في تفسير القرآن من كلامهم الذي أكثره

(١) تلبيس إبليس ص ٢٩٣
(٢) تلبيس إبليس ص ٢٩٣
(٣) تلبيس إبليس ض ٢٩٣
(٤) تلبيس إبليس ص ٢٩٣
(٥) تلبيس إبليس ص ٢٩٣

هذيان لا يحل نحو مجلدين سماها حقائق التفسير فقال في فاتحة الكتاب عنهم انهم قالوا إنما سميت فاتحة الكتاب لأنها أوائل ما فاتحناك به من خطابنا فإن تأدبت بذلك وإلا حرمت لطائف ما بعد، وهذا قبيح لأنه لا يختلف المفسرون أن الفاتحة ليست من أول ما نزل وقال(أبو عبد الرحمن السلمي)، في قول الإنسان آمين أي قاصدون نحوك، وهذا قبيح لأنه ليس من أم لأنه لو كان كذلك لكانت الميم مشددة[(١)]

وقال بعض الصوفية، في قوله: وإن يأتوكم أسارى غرقى في الذنوب وقال بعضهم: غرقى في رؤية أفعالهم وقال آخرون: أسارى في أسباب الدنيا تفدوهم إلى قطع العلائق[(٢)]

علق ابن الجوزي بقوله: وإنما الآية على وجه الإنكار ومعناها إذا أسرتموهم فديتموهم وإذا حاربتموهم قتلتموهم وهؤلاء قد فسروها على ما يوجب المدح[(٣)]

وقال بعضهم {يحب التوابين} من توبتهم.

وقال بعضهم في قوله: {ومن دخله كان آمنا} أي من هواجس نفسه ووساوس الشيطان[(٤)]

علق الإمام ابن الجوزي بقوله: وهذا غاية في القبح لأن لفظ الآية لفظ الحبر ومعناه الأمر وتقديرها من دخل الحرم فأمنوه وهؤلاء قد فسروها على الخبر ثم لا يصح لهم لأنه كم من داخل إلى الحرم ما أمن من الهواجس ولا الوساوس[(٥)]

وذكر بعضهم في قوله: {إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه} هي الدعاوي الفاسدة

(١) تلبيس إبليس ص ٢٩٣
(٢) تلبيس إبليس ص ٢٩٤
(٣) تلبيس إبليس ص ٢٩٤
(٤) تلبيس إبليس ص ٢٩٤
(٥) تلبيس إبليس ص ٢٩٤

وقال بعضهم عند قوله {والجار ذي القربى} قالوا هو القلب {والجار الجنب} النفس {وابن السبيل} الجوارح[١]

وقال بعضهم في قوله: {وهم بها} الهم لها ويوسف ما هم بها[٢]

علق ابن الجوزي على هذا بقوله: هذا خلاف لصريح القرآن[٣]

وقوله: {ما هذا بشرا} قال بعضهم: ما هذا بأهل أن يدعى إلى المباشرة وقال بعضهم في قوله: {فلله المكر جميعا} لا مكر أبين فيه من مكر الحق بعباده حيث أوهمهم أن لهم سبيلا إليه بحال أو للحدث اقتران مع القدم. [٤]

قال ابن الجوزي-رحمه الله-: ومن تأمل معنى هذا علم أنه كفر محض لأنه يشير إلى أنه كالهزء واللعب[٥]

وقد ذكر أبو حامد الطوسي في كتاب ذم المال في قوله عزوجل: {واجنبني وبني أن نعبد الأصنام} قال إنما عنى الذهب والفضة إذ رتبة النبوة أجل من أن يخشى عليها أن تعبد الآلهة والأصنام وإنما عنى بعبادته حبه والاغترار به.

علق ابن الجوزي على كلام الغزالي بقوله: وهذا شيء لم يقله أحد من المفسرين وقد قال شعيب وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا ومعلوم أن ميل الأنبياء إلى الشرك أمر ممتنع لأجل العصمة لا أنه مستحيل ثم قد ذكر مع نفسه من يتصور في حقه الإشراك والكفر فجاز أن يدخل نفسه معهم فقال: {واجنبني وبني} ومعلوم أن العرب أولاده وقد عبد أكثرهم الأصنام. [٦]

---

(١) تلبيس إبليس ص ٢٩٤

(٢) تلبيس إبليس ص ٢٩٤

(٣) تلبيس إبليس ص ٢٩٤

(٤) تلبيس إبليس ص ٢٩٤

(٥) تلبيس إبليس ص ٢٩٤

(٦) تلبيس إبليس ص ٢٩٥

وقد تكلمت طائفة من الصوفية في نفس القرآن بما لا يجوز فقالت في قوله: {إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب} فقال هم لآيات لي فأضافوا إلى الله تعالى ما جعله {لأولي الألباب} وهذا تبديل للقرآن وقالوا: {ولسليمان الريح} قالوا ولي سليمان

وقال بعضهم: قد يقطع بأقوام في الجنة فيقال: {كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية} فشغلهم عنه بالأكل والشرب ولا مكر فوق هذا ولا حسرة أعظم منه[(١)]

علق ابن الجوزي على هذا الكلام السيء بقوله: أنظروا وفقكم الله إلى هذه الحماقة وتسمية المغنم به مكرا وإضافة المكر بهذا إلى الله عز وجل وعلى مقتضى قول هذا أن الأنبياء لا يأكلون ولا يشربون بل يكونون مشغولين بالله عز وجل فما أجرأ هذا القائل على مثل هذه الألفاظ القباح وهل يجوز أن يوصف الله عز وجل بالمكر على ما نعقله من معنى المكر وإنما معنى مكره وخداعه أنه مجازي الماكرين والخادعين وإني لأتعجب من هؤلاء وقد كانوا يتورعون من اللقمة والكلمة كيف انبسطوا في تفسير القرآن إلى ما هذا حده[(٢)]

ثم أكمل ابن الجوزي بقوله: وقد رويت لنا حكاية عن بعضهم فيما يتعلق بالمكر إني لأقشعر من ذكرها لكني أنبه بذكرها على قبح ما يتخايله هؤلاء الجهلة[(٣)]

ومن هذا الباب أعني باب الشطحات يدخل اكثر ما يسمونه ب(الإعجاز العددي) ونضرب له مثالا قديما من عند الإمام الرازي: ومن ذلك ما قاله عند تفسير سورة الفاتحة قال: هَذِهِ السُّورَةُ لَمْ يَحْصُلْ فِيهَا سَبْعَةٌ مِنَ الْحُرُوفِ، وَهِيَ الثَّاءُ، وَالْجِيمُ وَالْخَاءُ، وَالزَّايُ، وَالشِّينُ، وَالظَّاءُ، وَالْفَاءُ، وَالسَّبَبُ فِيهِ أَنَّ هَذِهِ

---

(١) تلبيس إبليس ص ٢٩٥

(٢) تلبيس إبليس ص ٢٩٥

(٣) تلبيس إبليس ص ٢٩٥

الْحُرُوفَ السَّبْعَةَ مُشْعِرَةٌ بِالْعَذَابِ.

فَالثَّاءُ تَدُلُّ عَلَى الْوَيْلِ وَالثُّبُورِ، قَالَ تَعَالَى: {لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً واحِداً وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً} [الْفُرْقَانِ: ١٤].

وَالْجِيمُ أَوَّلُ حُرُوفِ اسْمِ جَهَنَّمَ، قَالَ تَعَالَى: {وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ} [الْحِجْرِ: ٤٣]، وَقَالَ تَعَالَى: {وَلَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ} [الْأَعْرَافِ: ١٧٩].

وَأَسْقَطَ الْخَاءَ؛ لِأَنَّهُ يُشْعِرُ بِالْخِزْيِ، قَالَ تَعَالَى: {يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ} [التَّحْرِيمِ: ٨] وَقَالَ تَعَالَى: {إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكافِرِينَ} [النَّحْلِ: ٢٧].

وَأَسْقَطَ الزَّايَ وَالشِّينَ؛ لِأَنَّهُمَا أَوَّلُ حُرُوفِ الزَّفِيرِ وَالشَّهِيقِ، قَالَ تَعَالَى: {لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ} [هُودٍ: ١٠٦]، وَأَيْضًا الزَّايُ تَدُلُّ عَلَى الزَّقُّومِ، قَالَ تَعَالَى: {إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعامُ الْأَثِيمِ} [الدُّخَانِ: ٤٣].

وَالشِّينُ تَدُلُّ عَلَى الشَّقَاوَةِ، قَالَ تَعَالَى: {فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ} [هُودٍ: ١٠٦]

وَأَسْقَطَ الظَّاءَ لِقَوْلِهِ: {انْطَلِقُوا إِلى ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ لَا ظَلِيلٍ وَلا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ} [الْمُرْسَلَاتِ: ٣٠، ٣١] وَأَيْضًا يَدُلُّ عَلَى لَظَى، قَالَ تَعَالَى: {كَلَّا إِنَّها لَظى نَزَّاعَةً لِلشَّوى} [الْمَعَارِجِ: ١٥، ١٦].

وَأَسْقَطَ الْفَاءَ؛ لِأَنَّهُ يَدُلُّ عَلَى الْفِرَاقِ، قَالَ تَعَالَى: يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ [الرُّوم: ١٤] وَأَيْضًا قَالَ: {لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذابٍ وَقَدْ خابَ مَنِ افْتَرى} [طه: ٦١].

فَإِنْ قَالُوا: لَا حَرْفَ مِنَ الْحُرُوفِ إِلَّا وَهُوَ مَذْكُورٌ فِي شَيْءٍ يُوجِبُ نَوْعًا مِنَ الْعَذَابِ فَلَا يَبْقَى لِمَا ذَكَرْتُمْ فَائِدَةٌ.

فَنَقُولُ: الْفَائِدَةُ فِيهِ أَنَّهُ تَعَالَى قَالَ فِي صِفَةِ جَهَنَّمَ: {لَها سَبْعَةُ أَبْوابٍ لِكُلِّ بابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ} [الْحِجْرِ: ٤٤].

وَاللَّهُ تَعَالَى أَسْقَطَ سَبْعَةً مِنَ الْحُرُوفِ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ، وَهِيَ أَوَائِلُ أَلْفَاظٍ دَالَّةٍ عَلَى الْعَذَابِ، تَنْبِيهًا عَلَى أَنَّ مَنْ قَرَأَ هَذِهِ السُّورَةَ وَآمَنَ بِهَا وَعَرَفَ حَقَائِقَهَا صَارَ آمِنًا مِنَ الدَّرَكَاتِ السَّبْعِ فِي جَهَنَّمَ، وَاللَّهُ أَعْلَم(١)

والحق أنه يمكن أن يقول إن عدد آيات السورة سبعة أيضًا، فلماذا اختار كون الحروف الساقطة سبعة ونسي أن السورة سبع آيات ؟! بل إن هذه الحروف لا نشقى أن نجدها أوائل كلمات تدل على النعيم وهكذا. . والأمر ليس منضبطا.

وكثير من المعاصرين دخلوا هذا الباب وتوسعوا فيه بغير روية، وراحوا يطيرون به كل مطار كأن الله لم يخلق القرآن إلا أعدادا، والحق وسط بين الغالين في الباب اللاعبين بالقرآن، وبين الجافين الذين يردون حقا في ثنايا كثير من الباطل، فلا يمنع أن نجد إشارات عددية لاسيما إذا صح إسنادها إلى الآية بما يوافق الرسم القرآني، وينضبط مع علم العد القرآني، ويكون له شاهد من الشرع يؤيده، وهكذا. . . لكن الذي يجعلنا نحكم على كثير منه بأنه شطحات، كون المشتغلين به يداخلهم كثير من التحكم، بِعَدْ شيء وترك آخر، ليوافق العد المسألة التي ساق الكلام من أجلها، وتجدهم يحرفون في الأرقام ويميلون ليوافقوا ما يريدون إثباته، وكثير منه اعتقاد ثم استدلال من باب أنه افترض وقوع شيء بل اعتقده ثم راح يثبته بشتى العمليات الحسابية مع مغالطات وتحكُّمات لا تليق في مقام البحث العلمي الأمين.

ومن أمثلة هذه الشطحات الانتقائية؛ ما فعله الدكتور عبد الرازق نوفل من انتقاء ليحصل له التوافق العددي: فيقول إن لفظ(اليوم) ورد في القرآن (٣٦٥) مرة بعدد أيام السنة، ولكي يثبت هذا جمع لفظة (اليوم)، ولفظة (يوما)، لكنه

(١) التفسير الكبير (١ / ١٦١).

أهمل لفظة (يومكم)، و(يومهم)، (ويومئذ)، لأنه لو جمعها زاد العدد جدا عما يريد إثباته، أفبعد هذا شطح؟!![١]

وخذ الأدهى والأمر أنه أراد التوافق بين عدد ذكر الأنبياء والرسل وبين ذكر أسمائهم في القرآن فوجد أن عدد ذكر كلمة(رسل) ومشتقاتها (٣٦٨) مرة، لكنه لما عد تكرار أسماء الرسل فوجدها للأسف تنقص عن هذا العدد، فعد هو كلمة (ناقة الله) من أسماء الأنبياء ليقول إذن قد تساوى الأمران معا، وهذا من إعجاز القرآن العددي!!![٢]

فعد الناقة من أسماء الرسل!! أرئيتم إلى أي مدى يكون التخبط إذا تكلف المرء ما لم يأمر به وتكلف ما لا يحسن من الأمور!!

ومن أمثلة هذا الهتر ما يقوله بعضهم من أن آيات القرآن (٦٢٣٦)، وعدد السور (١١٤)، وعند صف العددين يكون ١١٤ ٦٢٣٦، فهو عدد مكون من سبعة مراتب وهو من مضاعفات العدد سبعة، وعند قلب الرقم من اليمين إلى اليسار نجده ١١٤٦٢٣٦

يقول لك وهو أيضا من مضاعفات العدد سبعة![٣]!!

طبعا لا يعلم القائل أن كل هذا ينتقض من جذوره إذا ما علم أن هناك خلافا في عدد الآيات أصلا، لكن أخونا في واد والخلاف في واد آخر، بل زاد صاحبنا تكلفا وإغرابا حين كتب كلمات آية الكرسي ثم كتب تحت كل كلمة عدد ما تحويه من حروف البسملة ثم صف الأعداد في صف واحد مبتدئا من آخر الآية وليس أولها، فكان العدد كالتالي ٤٤١٠٤٢٢٠٤٠٤٤١١٣٣٣٢٢٤٢٠٣٢٠٥٣ ٢٣٤٣٢١٣١٢٤١٢٠٣٢٢٤٤١٣٣٤

(١) انظر التفسير في القرن الرابع عشر ٢/ ٢٩٩
(٢) التفسير في القرن الرابع عشر ٢/ ٧٠٠
(٣) انظر العدد سبعة في القرآن الكريم ص ٨

وهذا العدد من مضاعفات العدد سبعة[١]

وهذا مما تضحك منه الثكلى، وتسقط منه الحبلى، ويشيب منه الأقرع!! إذ ما علاقة الفاتحة بآية الكرسي!، ولم ابتدأ من آخرها وليس من أولها!!! وأسئلة حيرى كثيرة تدلك على هذه الشطحات وضررها المستطير على الكتاب الكريم.

ومن هذه الشطحات ما ظهر لبعض الناس من توافق عددي بين ما حصل من الحدث العظيم الذي عاقب الله به الكفار في (٩: ١١: ٢٠٠١)، مع آية في سورة التوبة، فقد ظهر لذلك القارئ أن الآية العاشرة بعد المائة (١١٠) تشير إلى أحد البرجين الذي تتكون طوابقه من هذا العدد، وأن عدد السورة في ترتيب المصحف هي التاسعة تشير إلى الشهر الميلادي، وأن الجزء الذي فيه هذه الآية هو الحادي عشر تشير إلى اليوم الذي وقع فيه هذا الحدث، فزعم أن هذا من إعجاز القرآن؛ لأنه ـ بزعمه ـ أشار إلى هذا الحدث المستقبلي!.

قال الدكتور مساعد الطيار: ولا أدري لم لم ينظر إلى العد بالحساب القمري، ولا ذكر البرج الثاني الذي لا يتوافق مع العدد الذي ظهر له؟!.

وهذا بلا شك موافقة غير مقصودة، والآية نازلة في مسجد الضرار، وليس هنا علاقة بينها وبين ما حدث لا من قريب ولا من بعيد، ومن قال: إن هذا البرج من مباني الضرار، فأين موقع الآخر من الآية، وإذا كان يعد هذين البرجين من مباني الضرار، قياسا على مسجد الضرار، فإنه يدخل في الآية كل مباني الكفار التي يعملون بها ضد العالم، وضد المسلمين بالذات.

ثم ما الحاجة الداعية إلى هذا الربط الغريب العجيب، ومن ذا الذي يجزم بأن هذا مراد لله. إن هذا مما يدخل في الرأي المذموم؛ لأنه قول على الله بغير علم، ما أكثر ما يقع من أصحاب ما يسمى بالإعجاز العلمي، أو التفسير العلمي.

وهل يعتمد صاحب هذا القول على أن هذا الترتيب جاء بالتوقيف، أم يرى أنه

---

(١) انظر العدد سبعة في القران الكريم ص ١٤٤

على ما جاء من مصادفة الترتيب هذه؟

فإن كان جاء مصادفة، فما أكثر المصادفات التي يمكن أن تظهر لك، فقد تظهر لك مصادفات متعلقة بالأرقام وأنت تقرأ كتاب تاريخ، أو غيره، فهل هذه المصادفات من قبيل الإعجاز؟!.

وإن كان يزعم أن هذا مراد، وأنه ليس من قبيل المصادفة، فقوله منقوض بأمور:

الأول: أن ترتيب الأجزاء من عمل المتأخرين، وليس فيه توقيف من النبي ﷺ، فهو عمل اجتهادي.

الثاني: أن في ترتيب السور قولين: قيل: إنه اجتهادي، وقيل: إنه توقيفي، ولعل من ظهر له هذا التوافق العجيب لا يعلم بهذا، وإن علم فهل حرر مسألة التوقيف والاجتهاد في ترتيب السور ليجعل ما توصل إليه من هذا التوافق صحيحا.

الثالث: هل يعلم قائل هذا القول علما يسمى «علم عد الآي»؟ وهل يعلم أنه مختلف في عدد آي هذه السورة على قولين: الجمهور على أنها مائة وثلاثون آية، وفي العد الكوفي الذي عليه عد المصحف الذي بين يديك عدد آياتها مائة وتسع وعشرون آية. وعلى قول الجمهور ينتقض عدد الآية؛ لأنه يكون عددها على قولهم آية ١١١، فهل درى بهذا، وحرر هذه المسألة؟.

وكأني بك أيها القارئ الكريم تقول: قد أطلت في هذا، وهو مما لا يحتاج إلى إطالة في بطلانه، فأقول لك معتذرا: إن عصرك عصر يسود فيه من يأتي بالغرائب، ويبرز فيه من يحسن جلبها، فأحببت أن أرد من يتعرض لكتاب الله بما لا يقبله عقل العقلاء؟ ولكي يعلم أن العلم له باب من أراده من غير بابه خرج بما لا تقبله العقول، وجاء بما لا ينطلي إلا على قلوب الأغرار، ولو كانوا يعدون عند الناس من الكبار.

وإني أخبرك بأنك لست بحاجة لإثبات عظمة القرآن وصدقه إلى هذا السبيل، وهو ما يسمى بالإعجاز، إذ أنه ليس هو السبيل الوحيد لإثبات عظمة هذا القرآن،

بل هو أحد هذه السبل، واعلم أن العلم وحده قد لا يكفي ما لم يكن له قوة تحميه، وإن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن، فافهم عني ما قلت، والله الموفق إلى سواء السبيل. (١)

على أننا لا نمنع هذا الأمر منعا مطلقا، بل نقول يؤخذ منه المنضبط الخالي من التكلف، والتحكم، والحيدة والانتقاء، وكثرة هذه الأخطاء في هذا الباب جعلت كثيرا من العلماء يمنعون من هذا الباب منعا مطلقا، لكن نقول لا يمنعنا كثير الباطل أن نأخذ منه قليل الحق، ولا بأس أن نفتش في أكوام الرمل المتناثرة عن درة أو درتين، أو جوهرة أو جوهرتين.

ومن الصحيح الوارد عن السلف في هذا الباب: ما ورد عن ابن عباس: أنه استدل على ليلة القدر بشيئين: أحدهما: أنه قال: إن الله تعالى خلق الإنسان على سبعة أصناف، يشير إلى قوله عز وجل: [وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ] الآيات. ثم جعل رزقه في سبعة أصناف يشير إلى قوله قوله عز وجل. أَنَّا صَبَبْنَا الْماءَ صَبًّا ثم يصلّي الجمعة على رأس سبعة أيام. وجعل السموات سبعاً، والأرضين سبعاً، والمثاني سبعاً ، فلا أرى ليلة القدر إلّا ليلة السابعة.

والثاني: أنه قال: قوله : سَلامٌ هي الكلمة السابعة والعشرون، فدل على أنها كذلك(٢)

ومثل هذا مثلا بمثل أكثر ما يسمونه بالإعجاز العلمي أيضا: كبعض ما ينشره الدكتور زغلول النجار ومن ذلك ما قاله عن ما يتعلق بقوله تعالى: {وأنزلنا الحديد فيه باس شديد} [الحديد: ٢٥]، وكان مما قاله في هذا ما نصه: «كنت ألقي هذه المحاضرة في جامعة ملبورن في استراليا من أربع سنوات، فوقف لي أستاذ كيمياء في الجامعة، وقال لي: يا سيدي، هل حاولت أن تقارن بين رقم

(١) مفهوم التفسير والتأويل ص ٨-١٢

(٢) زاد المسير في علم التفسير ٤/ ٤٧٢

سورة الحديد في القرآن الكريم والوزن الذري للحديد، ورقم الآية في السورة والعدد الذري للحديد؟.

قلت له: لا، موضوع الأرقام موضوع حرج للغاية، إذا لم يدخله الإنسان بحذر شديد يدمر نفسه.

قال: أرجوك، حينما تعود إلى بلدك أن تتحقق من هذه القضية. . .

أتيت بالمصحف الشريف، وبالجدول الدوري للعناصر وكتاب في الكيمياء غير العضوية، فأذهلني أن رقم سورة الحديد سبع وخمسون، والحديد له ثلاث نظائر (٥٤، ٥٦، ٥٧) ورقم الآية في السورة (٢٥)، والعدد الذري للحديد (٢٦)، فقلت: إن هذا القرب الشديد لا بد أن له تفسيرا، فألهمني ربي آية قرآنية مبهرة، يقول فيها الحق تبارك وتعالى مخاطبا هذا النبي الخاتم ﷺ. . . {ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم} [الحجر: ٨٧]، فالقرآن بنصه يفصل الفاتحة عن بقية القرآن الكريم، ويعتبر الفاتحة مقدمة للقرآن، فقلت: إذا فصلنا الفاتحة عن بقية سور القرآن الكريم يصبح رقم سورة الحديد (٥٦)، ولو بقيت (٥٧)، ففيه نظير للحديد (٥٧)، لكن أكثر النظائر انتشارا للحديد (٥٦).

الآية رقمها (٢٥)، والعدد الذري للحديد (٢٦)، ووجدت القرآن الكريم يصف الفاتحة بأنها سبع من المثاني، وآياتها ست، فالبسملة آية من الفاتحة وآية من كل سورة قرآنية ذكرت فيها البسملة ما عدا سورة التوبة، فإذا أضفنا البسملة في مطلع سورة الحديد يصبح رقم الآية (٢٦)، ويعجب الإنسان إلى هذه اللفتة المبهرة، من الذي علم المصطفى ﷺ ذلك قبل ألف وأربعمائة سنة، لم يكن أحد يعلم شيئا عن الأوزان الذرية، ولا لأعدادها الذرية، ولكن هذه معجزة هذا الكتاب الخاتم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهذه الومضات القرآنية المبهرة تبقى دائما شهادة صدق على أن القرآن كلام الله، وأن هذا النبي الخاتم ﷺ كان موصولا بالوحي» (محاضرة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم،

للدكتور زغلول النجار، تسجيلات أحد). [١]

علق الدكتور الطيار بقوله: ولا أرى أنه يخفى على العامي قبل المتعلم ذلك التكلف الذي قام به الدكتور الفاضل لإثبات قضية لا شأن لها في ذاتها، فضلا عن أن تكون معجزة من معجزات القرآن، ولا يخفى على طالب العلم ما وقع له في تفسير الآية، ولا أدري هل يعرف الدكتور الفاضل التفسير النبوي لهذه الآية؟! فالوارد عنه ﷺ يجعل السبع المثاني والقرآن العظيم وصفين للفاتحة، والعطف هنا من باب عطف الصفات لا عطف الذوات، فقد روى البخاري وغيره جملة من الأحاديث في هذا المعنى، ومنها: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أم القرآن: هي السبع المثاني والقرآن العظيم»[٢] وقال ابن كثير معلقا على هذه الروايات: «فهذا نص في أن الفاتحة السبع المثاني والقرآن العظيم»[٣] وما دام ثبت النص عن النبي ﷺ بهذا، فإن غيره من الأقوال تسقط، ويكون تفسير الآية ما قاله ﷺ.

كما لا يخفى ما وقع منه في جزمه بأن البسملة آية من كل سورة، بلا تحقيق في هذه المسائل، ولا رجوع إلى أهل العلم الذين يعرف كلامهم فيها، بل اختار ما يناسب ما يريد أن يذهب إليه، وهو معرض عن ما لا يناسبه، بلا تحقيق علمي، كما عوده البحث في العلوم التجريبية، وهل يصح هذا الاختيار بلا تحقيق؟!

وكذلك لا يسعفه علم عد الآي فعدد آيات السورة في العد الكوفي والبصري (٢٩)، وفي عد الباقين (٢٨)؛ وبهذا تكون الآية (٢٤) بدلا من أن تكون (٢٥)، ولو جعل البسملة آية على هذا القول، لصارت الآية (٢٥)، وسوف ينتقض ما بناه أيضا.

وكل هذا التكلف في محاولة ربط مثل هذه القضايا بالقرآن إنما يصدر ممن يأتي إلى القرآن بمقررات سابقة ويريد أن يطوع القرآن لمقرراته، ضاربا بكل ما

---

(١) مفهوم التفسير والتأويل ص ٨ بتصرف

(٢) رواه البخاري برقم (٤٧٠٤)

(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، تحقيق: سامي السلامة (١/ ٥٤٧)

خالفها عرض الحائط، ولو كان ما خالف قوله هو العلم الصحيح، وفي هذه المحاضرة في الإعجاز العلمي أخطاء أخرى ليس هذا محل عرضها. [(١)]

وهنا نشير إلى أمر مهم نستشرف به آفاق المستقبل، ونسبق به ما ستفاجئنا به الأيام، من جماعة المتدبرين الجدد، وهم من يحملون على كل هذه الطوائف التي نقضناها، وينقدونهم، وهم في الحقيقة أيضا واقعون فيما يحذرون منه، ويحملون عليه، والحق أننا ننقد هؤلاء أيضا، فصنيعهم من جنس أفعال هؤلاء الشاطحين، بما يفعلونه فيما يسمونه تدبر، حين يقلبون القرآن ألغازا عنوانها، لماذا قال كذا ؟ ولم يقل كذا؟!! فيما لا مدخل لهذا السؤال فيه، فهؤلاء نحذر منهم كما نحذر من غيرهم.

* * *

(١) مفهوم التفسير والتأويل ص ١٢ (ينظر في ما ذكر من عد الآي: كتاب البيان في عد أي القرآن، للداني، تحقيق: الدكتور غانم قدوري الحمد).

المبحث السادس:
التفسير الباطني

قد عرفت الأمة الإسلامية منذ العصر الأول، بعد خلافة علي ، على وجه الخصوص ـ؛فرقا عقائدية، كالقدرية، والمرجئة، وسياسية، كالشيعة، والخوارج، وأخذت هذه الفرق في تزايد مستمر إلى أن صارت تعد بالعشرات، منها الباطنية، التي عدّ لها أبو حامد الغزالي عشرة ألقاب كالقرامطة والإسماعيلية، والتعليمية ويمكن أن يدرج أيضا ضمن تلك الفرق ما ظهر منها في العصور المتأخرة كالبهائية أو البابية، والقاديانية.

ثم ذكر أبو حامد سبب كل لقب، والباطنية «إنما لقبوا بها لدعواهم أن لظواهر القرآن والأخبار بواطن تجري في الظواهر مجرى اللب من القشر، أنها بصورها توهم عند الجهال والأغبياء صورا جلية، وهي عند العقلاء والأذكياء رموز وإشارات إلى حقائق معينة؛ وأن من تقاعد عقله عن الغوص على الخفايا والأسـرار، والبواطن والأغـوار، وقنع بظواهرها مسارعا إلى الاغترار، كان تحت الأواصر والأغلال معنّى بالأوزار والأثقال، وأرادوا بالأغلال التكاليف الشرعية...... وغرضهم الأقصى إبطال الشرائع، فإنهم إذا انتزعوا عن العقائد موجب الظواهر قدروا على الحكم بدعوى الباطن على حسب ما يوجب الانسلاخ عن قواعد الدين، إذ سقطت الثقة بموجب الألفاظ الصريحة فلا يبقى للشرع عصام يرجع إليه ويعول عليه».[1]

يقول الإمام ابن الجوزي: الباطنية قوم تستروا بالإسلام ومالوا إلى الرفض

---

(١) فضائح الباطنية ١/ ١٢

وعقائدهم وأعمالهم تباين الإسلام بالمرة فمحصول قولهم تعطيل الصانع وإبطال النبوة والعبادات وإنكار البعث ولكنهم لا يظهرون هذا في أول أمرهم بل يزعمون أن الله حق وأن محمدا رسول الله والدين صحيح لكنهم يقولون لذلك سر غير ظاهر وقد تلاعب بهم إبليس فبالغ وحسن لهم مذاهب مختلفة[١]

وما يصدق على هذه يصدق على لِداتها، من الإسماعيلية، والتعليمية، ومن حذا حذوها، لتركهم الأخذ بالظواهر الذي يؤدي حتما إلى ترك الشرائع والتحلل من تكاليفها.

والباطنية طائفة، خرجت بتفسيرها للقرآن عن مقتضى الشرع بما يوافق هواها، وصرفوا ألفاظ القرآن عن ظواهرها بما سموه الباطن، وزعموا أن القرآن إنما نزل متضمنا لكنايات ورموز عن أغراض، وأصل هؤلاء طائفة من غلاة الشيعة عرفوا عند أهل العلم بالباطنية فلقبوهم بالوصف الذي عرفوهم به، وهم يعرفون عند المؤرخين بالإسماعيلية لأنهم ينسبون مذهبهم إلى جعفر بن إسماعيل الصادق، ويعتقدون عصمته وإمامته بعد أبيه بالوصاية، ويرون أن لا بد للمسلمين من إمام هدى من آل البيت هو الذي يقيم الدين، ويبين مراد الله. ولما توقعوا أن يحاجَّهم العلماء بأدلة القرآن والسنة رأوا أن لا محيص لهم من تأويل تلك الحجج التي تقوم في وجه بدعتهم، فرأوا صرف جميع القرآن عن ظاهره وبنوه على أن القرآن رموز لمعان خفية في صورة ألفاظ تفيد معاني ظاهرة ليشتغل بها عامة المسلمين، وزعموا أن ذلك شأن الحكماء. . . . . وتكلفوا لتفسير القرآن بما يساعد الأصول التي أسسوها. ولهم في التفسير تكلُّفات ثقيلة. « وضرب لذلك أمثلة شتى منها قولهم إن قوله تعالى: ﴿ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ ﴾ أن جبلا يقال له الأعراف هو مقر أهل المعارف الذين يعرفون كلا بسيماهم. .

وقد أنكر العلماء على هذه الطائفة إنكار شديدا وليس خافيا كتاب الإمام أبي

(١) تلبيس إبليس ص ٩٧

حامد الغزالي (فضائح الباطنية) وكذلك سائر العلماء الذين رأوا خطر هذه الطائفة على الإسلام وأهله، فهذا الإمام أبو بكر ابن العربي الذي شنع على الباطنية، بمثل ما شنع على الظاهرية واعتبرهما من جملة من كاد للإسلام إلى أن قال عنهما: « وهذه الطائفة الآخذة بالظاهر في العقائد، هي طرف في التشبيه، كالأولى في التعطيل[١]، ويقصد بالأولى هاهنا الباطنية. وقد أشار ابن العربي إلى أن القاضي أبا بكر الباقلاني سبق الغزالي في كشف عوار الباطنية، ولكن هذا الأخير أجاد في الترتيب.

ومما سبق تحريره أن الإشارة هي المعنى غير المراد أصالة لكن له ومما سبق تحريره أن الإشارة هي المعنى غير المراد أصالة لكن له إسناد إلى النص وشاهد من الشرع يؤيده، فإسناد إلى النص وشاهد من الشرع يؤيده، فإذا ما فقد شرط الإسناد ولكن له شاهد صار شطحا كما سبق بيانه، فإذا ما فقد الشرطين معا صار تفسيرا باطنيا، إذ هو ما لا يمت للآية بصلة، والشرع لا يؤيده غالبا، وكثيرا لا يحتمله أبدًا لفظ الآية.

وأسوق فيه بين يدي القارئ ألفاظا فسرها الباطنية بغير معانيها التي وضعت لها الألفاظ في اللغة، قد أجراها الباطنية على غير هذه المعاني حيثما وقعت في القرآن كله؛ مما يدل على تلاعبهم بألفاظ القرآن واحتيالهم على تركيز عقيدتهم من خلال التفسير، ضاربين بمعاني الألفاظ اللغوية عرض الحائط، وهي إن دلت على شيء فإنما تدل على استهتارهم بمعاني القرآن استهتارا لا يصدر مثله عن مسلم، حيث قد حجبوا بذلك نور القرآن وهدايته وبشاشته التي إذا مست شغاف القلوب وجد لها المؤمن بردا وسلاما، وإني أستغفر الله من حكاياتها، ثم أتبعها بإبداء الرأي في هذا النوع من التفسير ومدى ما يترتب عليه من خطر.

وإليك نماذج من هذه الكلمات:

---

(١) ينظر آراء الإمام أبي بكر ابن العربي الكلامية ٢/ ٦٣

١- لفظ (الأب) يراد به عندهم النبي وعلي، حيث يروون عن علي بن أبي طالب أنه قال: «سمعت رسول الله يقول: أنا وعلي أبوا هذا الأمة» وقد يراد به الإمام فقط حيث يروون عن علي أيضا أنه قال: «الإمام الأب الشفيق».

ولا أدري هل يستقيم هذا مع قوله تعالى: {ما كان محمد أبا أحد من رجالكم} (الأحزاب: ١٤٠)؟!

٢- لفظ (الأثر): الإمام، و(الآثار): الأئمة، فعن الصادق: «اتبعوا آثار الهدى» يعني الأئمة.

٣- لفظ (الأثل) في اللغة: شجرة الطرفاء، وقد صنع رسول الله [منها منبره. ومع ذلك فهم يفسرونها بأنها من الأشجار الملعونة التي لم تقبل الولاية.

٤- لفظ (أجاج) في سورة الفرقان وفاطر والواقعة يقال بحر أجاج أو ماء أجاج، أي: ملح مر، وهم يفسرونها بما جاء في الكافي عن الحسنين قالا: «إن الله عرض ولايتنا على المياه، فما قبل ولايتنا عذب وطاب، وما جحد ولايتنا جعله الله مرا وملحا أجاجا».

ولا أدري ما السر في ملوحة البحار قبل خلق الأئمة وولايتهم.

٥- لفظ (الأذن): الجارحة المعروفة، ويفسرونها بالأئمة أو بعلي بالذات فيروون عن الأئمة أنهم أذن الله، وعن النبي أن عليا أذن الله السامعة، وأذنه الواعية.

٦- لفظ (الأرض) يؤول بالأئمة في تفسيرهم، ويستدلون على ذلك بما ينسبونه إلى الباقر قال في قوله تعالى: {فانتشروا في الأرض} (الجمعة: ١٠)، يعني بالأرض: الأوصياء، أمر الله بطاعتهم وولايتهم كما أمر بطاعة الرسول [وطاعة أمير المؤمنين، كنى الله في ذلك عن أسمائهم فسماهم بالأرض].

٧- لفظ (الآزفة)، جاء في سورة النجم في قوله: {أزفت الآزفة} (النجم:

٥٧) ومقصود بها الساعة وقربها، من غير مراجعة تفاسير، وهي في التفسير الباطني عندهم الرجعة، أي: رجعة الأئمة إلى الدنيا وخواص أصحابهم وكذا أعداؤهم - بزعمهم - للقصاص منهم.

٨- لفظ (إسرائيل) ومعلوم أنه نبي الله يعقوب، ويفسرونه بأمير المؤمنين، ويستدلون على ذلك بما جاء عندهم في الزيارات من قول صفوان لعلي «علي إسرائيل الله».

٩- لفظ (آسن): ورد في سورة محمد: {من ماء غير آسن}، وفي اللغة: أسن الماء: تغير، وهو الذي لا يشربه أحد من نتنه، فماء غير آسن أي: غير متغير، ويفسرونه بماء غير متغير أي: بعلي.

١٠- لفظ (الإفك، والمؤتفكة): الإفك: الكذب، والمؤتفكة: مدائن لوط، ويفسرون الإفك بصنمي قريش - يقصدون أبا بكر وعمر - وفي الكافي عن أبي عبدالله وقد سئل عن قوله: {والمؤتفكة أهوى} (النجم: ٥٣) قال: هم أهل البصرة، **هي المؤتفكة، يعنون بذلك أنهم حاربوا عليا في موقعة الجمل المشهورة فهزموا.**

ففارق كبير بين الإشارة وبين التفسير الباطني، فالإشارة تكون من رحم النص، مسندة إلى النص، معتمدة على النص، يشهد لها ويؤيدها ولا يعارضها وأما تأويلات الباطنية، فتأويلات فاسدة في ذاتها، لقيطة النسبة إلى النص اللغوي الظاهر، ينقضه ويهدمه ويقوضه، ينخر به أصول الدين، ويهدم به أصول السنة والملة،

يقول الشيخ تاج الدين بن عَطَاءِ اللَّهِ فِي كِتَابِهِ لَطَائِفِ الْمِنِنِ: اعْلَمْ أَنَّ تَفْسِيرَ هَذِهِ الطَّائِفَةِ لِكَلَامِ اللَّهِ وَكَلَامِ رَسُولِهِ بِالْمَعَانِي الْعَرَبِيَّةِ لَيْسَ إِحَالَةً لِلظَّاهِرِ عَنْ ظَاهِرِهِ وَلَكِنَّ ظَاهِرَ الْآيَةِ مَفْهُومٌ مِنْهُ مَا جَلَبَتِ الْآيَةَ لَهُ وَدَلَّتْ عَلَيْهِ فِي عُرْفِ اللِّسَانِ وَثَمَّ أَفْهَامٌ بَاطِنَةٌ تُفْهَمُ عِنْدَ الْآيَةِ وَالْحَدِيثِ لِمَنْ فَتَحَ اللَّهُ قَلْبَهُ وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ

لِكُلِّ آيَةٍ ظَهْرٌ وَبطْنٌ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْ تَلَقِّي هَذِهِ المعاني منهم أن يَقُولَ لَكَ ذُو جَدَلٍ وَمُعَارِضَةٍ هَذَا إِحَالَةٌ لِكَلَامِ اللَّهِ وَكَلَامِ رَسُولِهِ فَلَيْسَ ذَلِكَ بِإِحَالَةٍ وَإِنَّمَا يَكُونُ إِحَالَةً لَوْ قَالُوا: لَا مَعْنَى لِلْآيَةِ إِلَّا هَذَا وَهُمْ لَمْ يَقُولُوا ذَلِكَ بل يقرؤون الظَّوَاهِرَ عَلَى ظَوَاهِرِهَا مُرَادًا بِهَا مَوْضُوعَاتُهَا وَيَفْهَمُونَ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى ما أفهمهم.[١]

قَالَ ابْنُ الصَّلَاحِ: وَأَنَا أَقُولُ الظَّنُّ بِمَنْ يُوثَقُ بِهِ مِنْهُمْ إِذَا قَالَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ يَذْكُرْهُ تَفْسِيرًا وَلَا ذَهَبَ بِهِ مَذْهَبَ الشَّرْحِ لِلْكَلِمَةِ فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ كَانُوا قَدْ سَلَكُوا مَسْلَكَ الْبَاطِنِيَّةِ وَإِنَّمَا ذَلِكَ مِنْهُمْ لِنَظِيرِ مَا وَرَدَ بِهِ الْقُرْآنُ، فَإِنَّ النَّظِيرَ يُذْكَرُ بِالنَّظِيرِ وَمَعَ ذَلِكَ فيا ليتهم لَمْ يَتَسَاهَلُوا بِمِثْلِ ذَلِكَ لِمَا فِيهِ مِنَ الْإِيهَامِ وَالْإِلْبَاسِ! وَقَالَ النَّسَفِيُّ فِي عَقَائِدِهِ: النُّصُوصُ عَلَى ظَاهِرِهَا وَالْعُدُولُ عَنْهَا إِلَى مَعَانٍ يَدَّعِيهَا أَهْلُ الْبَاطِنِ إِلْحَادٌ

قَالَ التَّفْتَازَانِيُّ فِي شَرْحِهِ: سُمِّيَتِ الْمَلَاحِدَةُ بَاطِنِيَّةً لِادِّعَائِهِمْ أَنَّ النُّصُوصَ لَيْسَتْ عَلَى ظَاهِرِهَا بَلْ لَهَا مَعَانٍ بَاطِنِيَّةٌ لَا يَعْرِفُهَا إِلَّا الْمُعَلِّمُ وَقَصْدُهُمْ بِذَلِكَ نَفْيُ الشَّرِيعَةِ بِالْكُلِّيَّةِ

قَالَ: وَأَمَّا مَا يَذْهَبُ إِلَيْهِ بَعْضُ الْمُحَقِّقِينَ مِنْ أَنَّ النُّصُوصَ عَلَى ظَوَاهِرِهَا وَمَعَ ذَلِكَ فِيهَا إِشَارَاتٌ خَفِيَّةٌ إِلَى دَقَائِقَ تَنْكَشِفُ عَلَى أَرْبَابِ السُّلُوكِ يُمْكِنُ التَّطْبِيقُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الظَّوَاهِرِ الْمُرَادَّةِ فَهُوَ مِنْ كَمَالِ الْإِيمَانِ وَمَحْضِ الْعِرْفَانِ.[٢]

ويقول ابن الجوزي معلقا على مذهب هذه الطائفة البائسة بقوله: وللقوم حيل في استذلال الناس فهم يميزون من يجوز أن يطمع في استدراجه ممن لا يطمع فيه فإذا طمعوا في شخص نظروا في طبعه فإن كان مائلا إلى الزهد دعوه إلى الأمانة والصدق وترك الشهوات وإن كان مائلا إلى الخلاعة قرروا في نفسه أن العبادة بله وأن الورع حماقة وإنما الفطنة في اتباع اللذات من هذه الدنيا الفانية ويثبتون عند

(١) الإتقان ٤/ ٢٢٧

(٢) الإتقان للسيوطي ٤/ ٢٢٧

كل ذي مذهب ما يليق بمذهبه ثم يشككونه فيما يعتقدوه فيستجيب لهم أما رجل أبله أو رجل من أبناء الأكاسرة وأولاد المجوس ممن قد انقطعت دولة أسلافه بدولة الإسلام أو رجل يميل إلى الاستيلاء ولا يساعده الزمان فيعدونه بنيل آماله أو شخص يجب الترفع عن مقامات العوام ويروم بزعمه الاطلاع على الحقائق أو رافضي يتدين بسبب الصحابة رضوان الله عليهم أو ملحد من الفلاسفة والثنوية والمتحيرين في الدين أو من قد غلبت عليه حب اللذات وثقل عليه التكليف. وللقوم حيل في استذلال الناس فهم يميزون من يجوز أن يطمع في استدراجه ممن لا يطمع فيه فإذا طمعوا في شخص نظروا في طبعه فإن كان مائلا إلى الزهد دعوه إلى الأمانة والصدق وترك الشهوات وإن كان مائلا إلى الخلاعة قرروا في نفسه أن العبادة بله وأن الورع حماقة وإنما الفطنة في اتباع اللذات من هذه الدنيا الفانية ويثبتون عند كل ذي مذهب ما يليق بمذهبه ثم يشككونه فيما يعتقدوه فيستجيب لهم أما رجل أبله أو رجل من أبناء الأكاسرة وأولاد المجوس ممن قد انقطعت دولة أسلافه بدولة الإسلام أو رجل يميل إلى الاستيلاء ولا يساعده الزمان فيعدونه بنيل آماله أو شخص يجب الترفع عن مقامات العوام ويروم بزعمه الاطلاع على الحقائق أو رافضي يتدين بسبب الصحابة رضى الله عنهم أو ملحد من الفلاسفة والثنوية والمتحيرين في الدين أو من قد غلبت عليه حب اللذات وثقل عليه التكليف. [١]

ويقول الزرقاني عن هؤلاء الباطنية: ومذهب الباطنية على عمومه وباء انتقل إليهم بطريق العدوى من المجوس ومن تأويلاتهم الفاسدة في القرآن أنهم يقولون في تفسير قوله تعالى: {وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ} إن الإمام عليا ورث النبي في علمه.

ويقولون معنى الجنابة أنها مبادرة المستجيب بإفشاء السر قبل أن ينال رتبة الاستحقاق ومعنى الغسل تجديد العهد على من فعل ذلك ومعنى الطهارة التبري من اعتقاد كل مذهب سوى متابعة الإمام ومعنى التيمم الأخذ من المأذون إلى أن

(١) تلبيس إبليس ص ١٠١

يشاهد الداعي الإمام ومعنى الصيام الإمساك عن كشف السر.

ويقولون إن الكعبة هي النبي ﷺ والباب علي والصفا هو النبي ﷺ والمروة علي ونار إبراهيم هي غضب النمروذ عليه وعصا موسى هي حجته إلى غير ذلك من الخرافات التي لا يقبلها عقل ولا يؤيدها نقل.

وهذه التأويلات الفاسدة من أشد وأنكى ما يصاب به الإسلام والمسلمون لأنها تؤدي إلى نقص بناء الشريعة حجرا حجرا وإلى الخروج من ربقة الإسلام وحل عراه عروة عروة ولأنها تجعل القرآن والسنة فوضى فاحشة يقال فيهما ما شاء الهوى أن يقال كأنهما لغو من الكلام أو كلأ مباح للبهائم والأنعام وأخيرا ينفرط عقد المسلمين ويكون بأسهم بينهم من جراء هذا العبث بتلك الضوابط الدينية الكبرى والحوافظ الأدبية العظمى وما دام لكل واحد أن يفهم من القرآن ما شاء له الهوى والشهوة دون اعتصام بالشريعة ولا التزام لقواعد اللغة لم يعد القرآن قرآنا وإنما هما الهوى والشهوة فحسب.

لهذا شرطنا في التفسير ما شرطنا وفي مقدمة شروطه التزام قوانين الشريعة والتزام قواعد اللغة العربية أما التزام قوانين الشريعة فلكيلا تتهافت النصوص وتتناقض التعاليم.

وأما التزام قواعد اللغة فلأن القرآن نزل بلسان عربي مبين ويقول منزله جل شأنه: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} وقضية عروبته هذه أن يفهم على قوانين لغة العرب وإلا فلا يرجى أن يعقل ما فيه ولا أن يفهم ما يحويه وذلك معنى قوله: {لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} بعد قوله: {عَرَبِيّاً}[١]

ويدخل في كلام الباطنية كل من فسر القرآن بأشياء من جنس طريقتهم، كالسبئية، يزعم أن عليا في السحاب، وعلى هذا يفسرون الرعد بأنه صوت على، والبرق بأنه لمعان سوطه أو تبسمه، ولهذا كان الواحد منهم إذا سمع صوت الرعد

(١) مناهل العرفان ٢/ ٧٥-٧٦

يقول: عليك السلام يا أمير المؤمنين.

كذلك نجد زعيم السبئية يزعم أن محمدا ﷺ سيرجع إلى الحياة الدنيا، وتأول على ذلك قوله تعالى في الآية [٨٥] من سورة القصص: {إن الذي فرض عليك القرآن لرآدك إلى معاد}(١)

كذلك نجد بيان بن سمعان التميمي زعيم البيانية، يزعم أنه هو المذكور في القرآن بقوله تعالى في الآية [١٣٨] من سورة آل عمران: {هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين}. ويقول: أنا البيان، وأنا الهدى والموعظة.

كما نراه يزعم أن الله تعالى رجل من نور، وأنه يفنى كله غير وجهه، ويتأول على زعمه هذا قوله تعالى في الآية [٨٨] من سورة القصص:

{كل شيء هالك إلا وجهه}. . وقوله في الآيتين [٢٦-٢٧] من سورة الرحمن: {كل من عليها فان * ويبقى وجه ربك. . . }(٢)

كذلك نجد المغيرة بن سعيد العجلى زعيم المغيرية يقول: إن الله تعالى لما أراد أن يخلق العالم تكلم بالاسم الأعظم، فطار ذلك الاسم ووقع تاجا على رأسه، وتأول على ذلك قوله تعالى في الآية الأولى من سورة الأعلى: {سبح اسم ربك الأعلى}. . . وزعم أن الاسم الأعلى إنما هو ذلك التاج. (٣)

ويزعم المغيرة أيضا: أن الله تعالى خلق أظلال الناس قبل أجسادهم، فكان أول ما خلق منها ظل محمد ﷺ. وقال: فذلك قوله في الآية [٨١] من سورة الزخرف: {قل إن كان للرحمان ولد فأنا أول العابدين}. . قال: ثم أرسل ظل محمد إلى أظلال الناس، ثم عرض على السماوات والجبال أن يمنعن على أبى طالب من ظالميه فأبين ذلك، فعرض ذلك على الناس. فأمر عمر أبا بكر أن يتحمل

(١) الفرق بين الفرق ص ٢٢٤

(٢) الفرق بين الفرق ص ٢٢٧-٢٢٨

(٣) الفرق بين الفرق ص ٢٢٩

نصرة على ومنعه من أعدائه، وأن يغدر به في الدنيا، وضمن له أن يعينه على الغدر به، على شريطة أن يجعل له الخلافة من بعده، ففعل أبو بكر ذلك. قال: فذلك تأويل قوله في الآية [٧٢] من سورة الأحزاب: {إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا} . . فزعم أن الظلوم والجهول أبو بكر.

وتأول في عمر قوله تعالى في الآية [١٦] من سورة الحشر: {كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني برياء منك} . . والشيطان عنده عمر [١]

وكذلك نجد أبا منصور العجلى زعيم المنصورية والمعروف بـ «الكسف»، يزعم أنه عرج به إلى السماء، وأن الله تعالى مسح بيده على رأسه وقال له: يا بنى بلغ عنى، ثم أنزله إلى الأرض، وزعم أنه الكسف الساقط من السماء المذكور في قوله تعالى في الآية [٤٤] من سورة الطور: {وإن يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا سحاب مركوم}.

وتأولت هذه الطائفة الجنة بأنها رجل أمرنا بموالاته وهو الإمام، والنار بالضد، أي رجل أمرنا ببغضه وهو ضد الإمام وخصمه كأبي بكر وعمر، وتأولوا الفرائض والمحرمات فقالوا: الفرائض أسماء رجال أمرنا بموالاتهم، والمحرمات أسماء رجال أمرنا بمعاداتهم. [٢]

كذلك نجد من الخطابية من يتأول الجنة بأنها نعيم الدنيا، والنار بأنها آلامها.

ووجدنا منهم من يقول: إنه لا يؤمن إلا والله تعالى يوحى إليه، وعلى هذا المعنى كانوا يتأولون قوله تعالى في الآية [١٤٥] من سورة آل عمران: {وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا} . . ويقولون: إن معناه: بوحى من الله، ويقولون: إذا جاز أن يوحى إلى النحل كما ورد في قوله تعالى في الآية [٦٨] من

(١) الفرق بين الفرق ٢٣٠-٢٣١

(٢) المواقف ٨/ ٣٨٦

سورة النحل: {وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون}. . لم لا يجوز أن يوحى إلينا؟[١]

كذلك نجد أبا إسحاق الشاطبي يذكر لنا عن بعض العلماء: أن عبيد الله الشيعي المسمى المهدى، حين ملك إفريقيا واستولى عليها، كان له صاحبان من كتامة ينتصر بهما على أمره. . وكان أحدهما يسمى بـ «نصر الله»، والآخر يسمى بـ «الفتح» فكان يقول لهما: أنتما اللذان ذكركما الله في كتابه فقال: {إذا جاء نصر الله والفتح} [النصر: ١] قالوا: وقد كان عمل ذلك في آيات من كتاب الله تعالى فبدل قوله تعالى في الآية [١١٠] من سورة آل عمران: {كنتم خير أمة أخرجت للناس}. . بقوله: «أنتم خير أمة أخرجت للناس»[٢].

ومن ذلك تفاسير الروافض الاثنى عشرية؛من ذلك قولهم في قول الله عز وجل: {وورث سليمان داوود} [النمل: ١٦]: إنه الإمام ورث النبي ﷺ علمه. وقولهم في قول الله عز وجل: {إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة} [البقرة: ٦٧]: إنها عائشة رضى الله عنها، وفى قوله تعالى: {فقلنا اضربوه ببعضها} [البقرة: ٧٣]: إنه طلحة والزبير. وقولهم في الخمر والميسر: إنهما أبو بكر وعمر رضى الله عنهما. . والجبت والطاغوت: إنهما معاوية وعمرو بن العاص

ومثل قوله تعالى في الآية [١٩] من سورة الانشقاق: {لتركبن طبقا عن طبق}: إنه إشارة إلى أن هذه الأمة ستسلك سبيل من كان قبلها من الأمم في الغدر بالأوصياء بعد الأنبياء.

كما في قوله تعالى في الآية [١٥] من سورة يونس: {قال الذين لا يرجون لقآءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله}. . حيث يفسرون «أو بدله» بمعنى أو بدل عليا

ويقولون عند قول الله: {إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا} [المائدة: ٥٥] بمعنى الأئمة منا.

---

(١) التبصير في الدين ص ٧٤

(٢) الموافقات ٣/ ٣٩٢

قوله تعالى في الآية [٩] من سورة الحجر: {إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون}، فقالوا: {وإنا له لحافظون} أي عند الأئمة.

ويقولون عند قوله تعالى في الآية [٦٧] من سورة المائدة: {يا أيها الرسول بلغ مآ أنزل إليك من ربك}. . يزيدون: «في شأن على»

ويقولون –عياذا بالله– في قوله تعالى في الآية [١٣٧] من سورة النساء: {إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا}: إن هذه الآية نزلت في أبى بكر وعمر وعثمان، آمنوا بالنبي أولا، ثم كفروا حيث عرضت عليهم ولاية على، ثم آمنوا بالبيعة لعلى، ثم كفروا بعد موت النبي. ثم ازدادوا كفرا بأخذ البيعة من كل الأمة. (١)

{وتجعلون رزقكم} [الواقعة: ٨٢]: أي أن شكر النعمة التي رزقكم وما من عليكم بمحمد وآله {أنكم تكذبون} أي بوصيه {فلولا إذا بلغت الحلقوم * وأنتم حينئذ تنظرون} إلى وصيه على رضى الله عنه يبشر وليه بالجنة: {ونحن أقرب إليه منكم}: يعنى أقرب إلى أمير المؤمنين على منكم {ولكن لا تبصرون}.. أي لا تعرفون.

وفى قوله تعالى في سورة المدثر: {إنها لإحدى الكبر * نذيرا للبشر} [المدثر: ٣٥-٣٦] قال: يعنى فاطمة

وعند قوله تعالى {فلما آسفونا انتقمنا منهم}يقولون: إن الله تعالى لا يأسف كأسفنا، ولكنه خلق أولياء لنفسه يأسفون وهم مخلوقون مربوبون، فجعل رضاهم رضا نفسه، وسخطهم سخط نفسه، لأنه جعلهم الدعاة إليه والأدلاء عليه. . . إلخ.

وعند قوله تعالى: {قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابا نكرا} [الكهف: ٨٧]. . أن الإمام رضى الله عنه قال: هو يرد إلى أمير المؤمنين فيعذبه عذابا نكرا، ثم يقول: {يا ليتني كنت ترابا} [النبأ: ٤٠]. . أي من شيعة أبى تراب

(١) انظر الوشيعة في نقد عقائد الشيعة ص ٦٥

في قوله تعالى: {ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل} [محمد: ٣] قال: هم الذين اتبعوا أعداء علي وآل الرسول.

وعند قوله تعالى{والمرجفون في المدينة}. . قالوا: أن الراجفة الحسين ، والرادفة أبوه علي

وعند قوله تعالى: «كهيعص» يقولون: فالكاف: اسم كربلاء، والهاء: هلاك العترة، والياء: يزيد لعنه الله - وهو ظالم الحسين - والعين: عطشه، والصاد: صبره[١]

وفي هذا كفاية لتعرف أي خطر على الإسلام يمثل هذا المسلك الآثم في فهم القرآن، ولو تتبعت كلامهم لما انتهينا إلا بالمجلدات الضخام، ولعل باحثا ينشط ليحرر الإشارات والشطحات والباطنيات عند الشيعة والروافض والباطنية، وغيرها من الفرق الضالة.

* * *

(١) ينظر كثير من هذه النقول في (التفسير والمفسرون ٢/ ١-١٠٠)

مقومات أهل الإشارة

لا شك أن هذا النوع من الاستنباط له آلياته ومقوماته، كبقية فنون التفسير والتأويل، لكن هذا النوع يحتاج مهارات خاصة بخلاف بقية العلوم وإن وجد القدر المشترك بينهم، فلا شك أنه محتاج إلى ما يحتاجه المفسر من علوم ويزيد عليه ما سماه الإمام السيوطي عِلْمُ الْمَوْهِبَةِ، فيقول السيوطي في تعريفه (وَهُوَ عِلْمٌ يُورِّثُهُ اللَّهُ تَعَالَى لِمَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِحَدِيثِ: "مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ وَرَّثَهُ اللَّهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ")

ثم يتابع بقوله (وَلَعَلَّكَ تَسْتَشْكِلُ عِلْمَ الْمَوْهِبَةِ وَتَقُولُ هَذَا شَيْءٌ لَيْسَ فِي قُدْرَةِ الْإِنْسَانِ وَلَيْسَ كَمَا ظَنَنْتُ مِنَ الْإِشْكَالِ وَالطَّرِيقُ فِي تَحْصِيلِهِ ارْتِكَابُ الْأَسْبَابِ الْمُوجِبَةِ لَهُ مِنَ الْعَمَلِ وَالزُّهْدِ)(١)

قَالَ فِي الْبُرْهَانِ: اعْلَمْ أَنَّهُ لَا يَحْصُلُ لِلنَّاظِرِ فَهْمُ مَعَانِي الْوَحْيِ وَلَا يَظْهَرُ لَهُ أَسْرَارُهُ وَفِي قَلْبِهِ بِدْعَةٌ أَوْ كِبْرٌ أَوْ هَوًى أَوْ حُبُّ الدُّنْيَا أَوْ وَهُوَ مُصِرٌّ عَلَى ذَنْبٍ أَوْ غَيْرُ مُتَحَقِّقٍ بِالْإِيمَانِ أَوْ ضَعِيفُ التَّحْقِيقِ أَوْ يَعْتَمِدُ عَلَى قَوْلِ مُفَسِّرٍ لَيْسَ عِنْدَهُ عِلْمٌ أَوْ رَاجِعٌ إِلَى مَعْقُولِهِ وَهَذِهِ كُلُّهَا حُجُبٌ وَمَوَانِعُ بَعْضُهَا آكَدُ مِنْ بَعْضٍ.

وعلق السيوطي بقوله: وَفِي هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُهُ تَعَالَى: {سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ} قَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: يَقُولُ أَنْزِعُ عَنْهُمْ فَهْمَ الْقُرْآنِ. (٢)

فهذا النوع الإشاري قائم على صفاء العقل والقلب، ليكون مستعدا لاستقبال هذه الأنوار والأسرار، فالموفق في هذا النوع يحتاج يؤيد بنور يقذفه الله تعالى

(١) الإتقان ٢/ ٢٢٤

(٢) الإتقان ٢/ ٢٢٤

في قلبه يصير به نافذ البصر سليم التفكير، وقوام ذلك على مدى الرياضة الروحية التي يأخذ بها العالم نفسه حتى تصل إلى درجة ينكشف له فيها ما وراء العبارات القرآنية من إشارات قدسية، وتنهل على قلبه من سُحب الغيب ما تحمله الآيات من المعارف السبحانية، وفي ذلك يقول الإمام الغزالي:

(ما من كلمة من القرآن إلا وتحقيقها محوج إلى مثل ذلك وإنما ينكشف للراسخين في العلم من أسراره بقدر غزارة علومهم وصفاء قلوبهم وتوفر دواعيهم على التدبر وتجردهم للطلب ويكون لكل واحد حد في الترقي إلى درجة أعلى منه، فأما الاستيفاء فلا مطمع فيه ولو كان البحر مدادا والأشجار أقلاما فأسرار كلمات الله لا نهاية لها فتنفد الأبحر قبل أن تنفد كلمات الله، فمن هذا الوجه تتفاوت الخلق في الفهم بعد الاشتراك في معرفة ظاهر التفسير وظاهر التفسير لا غنى عنه.

فهذه خواطر تفتح لأرباب القلوب ، ثم لها أغوار وراء هذا، وأسرار ذلك كثيرة ولا يدل تفسير ظاهر عليه وليس اللفظ هو مناقضا لظاهر التفسير بل هو استكمال له ووصول إلى لبابه عن ظاهره فهذا ما نورده لفهم المعاني الباطنة لا ما يناقض الظاهر والله أعلم)[1]

فبقدر إقبال العبد على ربه، وتصفيته لقلبه، وخلوه عن الأغيار، تتفجر في قلبه الأنوار، وتفتح عليه مغاليق الأسرار من كلام الواحد القهار.

وبقدر العبد ما يعيش مع القرآن تدبرا وعلما وعملا يكون له القسم والعطاء والجزاء بالفهم في كتاب رب الأرض والسماء، ولا يفقه الرجل القرآن حق الفقه حتى يقضي أيامه يقلب النظر في آحاد كلمات القرآن، فالقرآن لايعطيك بعضه حتى تعطيه كلك، وأنت من هذا البعض على خطر، فمن أراد بعض أسرار القرآن فليقض زهرة عمره في ألفاظ القرآن ومعانيه، فلا يفتح لك في القرآن فتحا حقيقا

---

(١) إحياء علوم الدين ١/ ٢٩٣

حتى يختلط القرآن بلحمك وعظمك ودمك، فالقرآن كتاب عزيز، لا ينال باليوم ولا اليومين، ولا بالشهر ولا الشهرين، بل ينال بمواصلة الليل مع النهار، وبقيام الأسحار تدبرا في كتاب العزيز الغفار، وهنا تعرف خطأ هؤلاء المتدبرين الجدد، الذين يظنون أن هذا الكتاب العظيم كتابا مدرسيا، يجتمعون على استخراج الملح والنكت منه، ويتكلفون النظر فيه، ويجعلون مجالس التدبر كأنها مجالس إلغاز، حتى إذا انفضوا من مجلسهم لا يعرف القرآن إلى قلوبهم سبيلا، وما هكذا يكون التدبر ولا هي أحوال المتدبرين، إن هؤلاء القوم الذين كانوا للإشارة أهلا، كانت قلوبهم وعقولهم غارقة في التعلق بالله وبكتابه، وتعجب أشد العجب إذا طالعت أحوالهم، ونقبت عن سيرتهم،

ومن المعلوم أن من الناس من هم من أهل الإشارة، سواء فيما يقولون أو فيما يسمعون أو يقرؤون أو يرون أو حتى فيما يفكرون، يقول ابن القيم في مدارج السالكين: (الإشارات: هي المعاني التي تشير إلى الحقيقة من بُعد ومن وراء حجاب، وهي تارة تكون من مسموع، وتارة تكون من مرئي، وتارة تكون من معقول، وقد تكون من الحواس كلها)

فالإشارات: من جنس الأدلة والأعلام، وسببها: صفاء يحصل بالجمعية فيلطف به الحس والذهن فيستيقظ لإدراك أمور لطيفة لا يكشف حس غيره وفهمه عن إدراكها.) [(١)] انتهى

وقال في المدارج أيضا: (يريد بالإشارة: ما يشير إليه القوم من الأحوال والمنازلات والأذواق التي ينكرها الأجنبي من السلوك ويثبتها أهل البصائر)

وكثير من هذه الأمور ترد على السالك، فإن كان له بصيرة ثبّتت بصيرته ذلك له وحقّقته عنده وعرّفته تفاصيله، وإن لم يكن له بصيرة بل كان جاهلا لم يعرف

(١) مدارج السالكين ٢/ ٤٠٦

تفصيل ما يرد عليه ولم يهتد لتثبيته)[١] انتهى

وقال في المدارج أيضا: (قوله: أو إشارة تشفيه أي تشفي قلبه من علة عارضة فإذا وردت عليه الإشارة إما من صادق مثله أو من عالم أو من شيخ مسلِّك أو من آية فهمها أو عبرة ظفر بها اشتفى بها قلبه وهذا معلوم عند من له ذوق)[٢] انتهى

وقال ابن القيم في مدارج السالكين أيضا: (وإذا امتلأ القلب بشيء، وارتفعت المباينة الشديدة بين الظاهر والباطن أدت الأذن إلى القلب من المسموع ما يناسبه، وإن لم يدل عليه ذلك المسموع ولا قصده المتكلم ولا يختص ذلك بالكلام الدال على معنى بل قد يقع في الأصوات المجردة

وعن أبي نصر عبد الله بن علي السراج الطوسي : وقد قيل له أنه لما نزلت: {وإن جهنم لموعدهم أجمعين} صاح سلمان الفارسي صيحة ووقع على رأسه ثم خرج هاربا ثلاثة أيام[٣]

وهؤلاء أصحاب رسول الله إذا سمعوا موعظة فكانوا أعظم الناس فهما لها وتدبرا، ثم اتعاظا وتأثرا؛كمافي حديث العرياض بن سارية وعظنا رسول الله ﷺ موعظة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب[٤]

وعن عيسى بن سليم عن أبي وائل قال خرجنا مع عبد الله ينظر إلى حديدة في النار فنظر الربيع إليها فمال ليسقط ثم أن عبد الله مضى حتى أتينا على أنون على شاطىء الفرات فلما رآه عبد الله والنار تلتهب في جوفه قرأ هذه الآية: {إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا} إلى قوله {ثبورا كثيرا} فصعق الربيع واحتملناه إلى أهله ورابطه عبد الله حتى يصلي الظهر فلم يفق ثم رابطه

---

(١) مدارج السالكين ١/ ١٢٩

(٢) مدارج السالكين ٣/ ٦٣

(٣) تلبيس إبليس ص ٢٢٣

(٤) تلبيس إبليس ص ٢٢٥

إلى العصر فلم يفق ثم رابطه إلى المغرب فأفاق فرجع عبد الله إلى أهله[١]

وعن حصين بن عبد الرحمن قال قلت لأسماء بنت أبي بكر كيف كان أصحاب رسول الله ﷺ وآله عند قراءة القرآن قالت كانوا كما ذكرهم الله أو كما وصفهم عز وجل تدمع عيونهم وتقشعر جلودهم[٢]

قال القشيري: سمعت أبا عبد الرحمن السلمي يقول: دخلت على أبي عثمان المغربي ورجل يستقي الماء من البئر على بكرة. فقال: يا أبا عبد الرحمن، أتدري إيش تقول هذه البكرة ؟ فقلت: لا، فقال تقول: (الله الله)، ومثل ذلك كثير كما سمع أبو سليمان الدمشقي من المنادي: يا سعتر بري: إسعَ ترَ بِرِّي) [٣]

وقال ابن عاشور في تفسيره: (ومن حكاياتهم في غير باب التفسير أن بعضهم مر برجل يقول لآخر: هذا العود لا ثمرة فيه فلم يعد صالحا إلا للنار فجعل يبكي ويقول: إذن فالقلب غير المثمر لا يصلح إلا للنار)[٤] انتهى

ومما يحكى في هذا الباب:

-وآخر سمع بائعا في السوق يقول: الخيار بعشرة الخيار بعشرة فتواجد وقال: إذا كان الخيار بعشرة فكيف الأشرار

-وسمع آخر امرأةً تنادي الناس ليمسكوا لها ابنها الهارب وتقول: خذوه خذوه، فتواجد وأخذه الحال وصاح تذكر بذلك قول الله تعالى (خذوه فغلوه...)

-وعندما سُئل الجنيد عن سكونه عند الإنشاد مع تواجد غيره قال: (وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب)

-وآخر حضر عقد زواج فجعل بعضهم ينادي: هاتوا النار [أي نار البخور]

---

(١) تلبيس إبليس ص ٢٢٣
(٢) تلبيس إبليس ص ٢٢٥
(٣) مدارج السالكين ٢/ ٤٠٦
(٤) التحرير والتنوير ١/ ١٦

هاتوا الشهود [أي شهود النكاح]، فخرج من المجلس وهامَ على وجهه تذكّر بذلك نار الآخرة وشهود يوم القيامة

-وآخر سمع امرأة تعنف ابنتها فتقول البنت لأمها: سأقول لأبي، فقالت الأم: ما يفعل لك أبوك؟ فقالت البنت: وهل معي غيره، فغشي على الرجل، فلما أفاق قالوا له مالك ؟ فقال: وهل معي غيره ؟ !

حكاية: جاءت امرأة إلى الإمام الجنيد فقالت زوجي يريد أن يتزوج علي وقال إن لم يكن له أربع جاز قالت لو جاز النظر إلى الأجانب لكشفت لك عن وجهي حتى تنظر إلي فتعرف أن من له مثلي لا ينبغي له أن يتزوج غيري فوقع الجنيد مغشياً عليه فلما أفاق سئل عن ذلك قال كان الحق سبحانه وتعالى يقول لو جاز لأحد النظر إلي في الدنيا لكشفت له الحجاب عن وجهي حتى ينظرني فيعرف أن من له مثلي لا ينبغي أن يكون في قلبه سواي. [١]

* * *

(١) هذه الحكايات لم أجدها مسندة وليس ذا بال معرفة إسنادها إذ المراد بيان نحوا من هذه الأحوال

الفصل الثاني

التنازع بين المصطلحات السابقة

المبحث الأول
التنازع بين التفسير والإشارة

وهذا المبحث عقدناه لننبه على فكرة خاطئة شائعة، وهي أن كثيرا من المشتغلين بعلوم التفسير أن كل ما ورد في الكتب التي خصصها أصحابها ومحضوها للإشارة كلها إشارات، سواء قبلوها أو ردوها، وهنا نثبت بالدليل التطبيقي أن هذا الإطلاق والتلازم غير لازم ولا مطرد دائما، بل كتب الإشارات تحتوي على كثير من التفسير يظنه أصحابه إشارة، وهو تفسير مجرد للمعنى الظاهر، فكون هذه التفاسير المبينة للمعنى الظاهر، في كتب الإشارات هي تنازع بين المصطلحين، وسأذكر لذلك على وجه التمثيل لا الحصر،

١-قال الإمام القشيري عند قوله تعالى: وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم (٤) ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون (٥)

الآجال معلومة، والأحوال مقسومة والمشيئة في الكائنات ماضية، ولا تخفى على الحق خافية.[١]

ويظهر جليا أن الإمام ما تجاوز بيان المعنى الظاهر، إذ المعنى الظاهر أن الكتاب به آجال الناس، وهو مشيئة الله النافذة في خلقه،. . الخ، لكن الذي يغر الناس هنا أن الإمام يصيغها بعبارة رقيقة تسلب لب القارئ من أن يتمعن في حقيقتها.

٢-وأيضا عند قوله تعالى: والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون (٣٩)

---

(١) لطائف الإشارات ٢/ ٢٦٣

والذين قابلوا النعمة بغير الشكر، وغفلوا عن التصديق والتحقيق فلهم عذاب أليم مؤجل، وفراق معجل. [١]

وهذا أيضا مجرد تفسير فالذين كفروا هم من غفلوا عن التصديق، لهم عذاب أليم. ولم يزد الشيخ على شيء فيما وراء الظاهر.

٣-وقوله أيضا عند قوله تعالى: لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون (١١١)

عبرة منها للملوك في بسط العدل كما بسط يوسف ﷺ ، وتأمينهم أحوال الرعية كما فعل يوسف حين أحسن إليهم، وأعتقهم حين ملكهم.

وعبرة في قصصهم لأرباب التقوى فإن يوسف لما ترك هواه رقاه الله إلى ما رقاه.

وعبرة لأهل الهوى فيما في اتباع الهوى من شدة البلاء، كامرأة العزيز لما تبعت هواها لقيت الضر والفقر.

وعبرة للمماليك في حضرة السادة، كيوسف لما حفظ حرمة زليخا ملك العزيز، وصارت زليخا امرأته حلالا. [٢]

وهذا أيضا تعميق للتفسير، ليس إلا ذلك، ولا يغرك جودة السبك والحبك، فالعبرة بحاصل المعنى، وهو أن القصة عبرة لكل معتبر، وهو ما لم يزد عليه الإمام القشيري.

وهو مجرد تفريع على أحوال حكتها السورة.

٤-ومثل ذلك أيضا قوله عند قول الله تعالى: ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من

(١) لطائف الإشارات ١/ ٥٨

(٢) لطائف الإشارات ٢/ ٢١٤

عند الله خير لو كانوا يعلمون (١٠٣)

ولو آثروا الإقبال على الله على اشتغالهم عن الله، لحصلوا ذخر الدارين، ووصلوا إلى عز الكونين، ولكن كبستهم سطوات القهر، فأثبتهم في مواطن الهجر. [١]

وكلامه المرونق هذا ليس إلا شرحا للظاهر فقوله(آثروا الإقبال على الله) هو معنى (آمنوا واتقوا)، (عز الكونين)،هي معنى(مثوبة)،. . . الخ.

٥- وقال أيضا عند قوله تعالى: ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين (١٣٠)

أخبر أنه آثر الخليل صلوات الله عليه على البرية، فجعل الدين دينه، والتوحيد شعاره والمعرفة صفته فمن رغب عن دينه أو حاد عن سنته فالباطل مطرحه، والكفر مهواه إذ ليست الأنوار بجملتها إلا مقتبسة من نوره. [٢]

وكل ما قاله الإمام هو من تكرار الوصف لسيدنا إبراهيم، وما قاله فيمن حاد عن ملته هو تعميق لتفسير اللفظة بعبارات رقيقة مترادفة.

وهي تفسير مع استخدام بعض العبارات التي اشتهرت عن الصوفية، لكنه لا يعدو أن يكون تفسيرا

٦- ومثل قوله أيضا عند قوله تعالى: وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرؤا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار (١٦٧)

عند ذلك يعرفون مرارة طعم صحبة المخلوقين ولكن لا يحصلون إلا على حسرات[٣].

---

(١) لطائف الإشارات ١/ ٨٤

(٢) لطائف الإشارات ١/ ١٢٦

(٣) لطائف الإشارات ١/ ١١٦

وأظن هذا المثال واضحا جدا في بيان هذه الفكرة، إذ لم يتجاوز مقام التفسير في شيء.

٧-وقال عند قوله تعالى: «والله لا يحب الفساد»: ما كان فيه خراب الأمور الدينية ونظام الأحوال الدنيوية فهو الفساد الظاهر. (١)

وأظنك لو فتحت أي كتاب تعريفات، لوجدت هذا التعريف، وهذا محض تفسير بالتعريف.

كأنه جار على عبارة أرباب التعاريف، ومعلوم أن التعريف لا يعدو كونه تفسيرا للمصطلح.

٨-وقال عند قوله تعالى: وبعولتهن أحق بردهن في ذلك إن أرادوا إصلاحا ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة والله عزيز حكيم (٢٢٨)

يعنى من سبق له الصحبة فهو أحق بالرجعة لما وقع في النكاح من الثلمة في ذلك إن أرادوا إصلاحا.

يعنى أن يكون القصد بالرجعة استدراك ما حصل من الجفاء لا تطويل العدة عليها بأن يعزم على طلاقها بعد ما أرجعها.

{ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف}.

يعنى إن كان له عليها حق ما أنفق من المال فلها حق الخدمة لما سلف من الحال. وللرجال عليهن درجة والله عزيز حكيم. (٢)

ولو أنك فتحت أي كتاب تفسير فقهي لوجدت ذلك في تفسير هذه الآيات عنده.

(١) لطائف الإشارات ١/ ١٣٧

(٢) لطائف الإشارات ١/ ١٤٧

٩-وقال عند قوله تعالى: [لا تضار والدة بولدها].

في الإرضاع وما يجب عليه. [١] فهنا يفسر معنى الضرر في أي شيء هو.

١٠-وقال عند قوله تعالى: ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء أو أكننتم في أنفسكم علم الله أنكم ستذكرونهن ولكن لا تواعدوهن سرا إلا أن تقولوا قولا معروفا ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه واعلموا أن الله غفور حليم (٢٣٥)

أبيح من ذلك ما كان فيه استجلاب للمودة، وتأسيس لحال الوصلة. وحرم منه ما فيه ارتكاب المحظورات من إلمام بذنب أو عدة بجرم[٢]

وهو أيضا هنا يفسر ألفاظ الآية بأصل وضعها، مع بيان المعنى الإجمالي، وهو عين عمل التفسير.

* * *

(١) لطائف الإشارات ١/ ١٥٠

(٢) لطائف الإشارات ١/ ١٥١

المبحث الثاني

التنازع بين التأويل والإشارة.

وهنا نذكر أمثلة يتنازع فيها العلماء بين كونها من باب التأويل أو من باب الإشارة، وأحببت أن أمثل هنا بما يظنه كثير من العلماء إشارة، لكنه من قبيل التأويل اللطيف المأخذ، الدقيق الفهم، وأن أبين مأخذ تأويله ومن ذلك

١ – ما ورد على لسان الصديق الأعظم أبي بكر رضي الله عنه ، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله جلس على المنبر فقال: « إن عبدا خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء وبين ما عنده فاختار ما عنده، فبكى أبو بكر وقال: فديناك بآبائنا وأمهاتنا، فعجبنا له وقال الناس: انظروا إلى هذا الشيخ، يخبر رسول الله عن عبد خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا وبين ما عنده، وهو يقول فديناك بآبائنا وأمهاتنا فكان رسول الله هو المخير، وكان أبو بكر هو أعلمنا به. وقال رسول الله ﷺ: (إن من أمن الناس علي في صحبته وماله أبا بكر، ولو كنت متخذا خليلا من أمتي لاتخذت أبا بكر إلا خلة الإسلام، لا يبقين في المسجد خوخة إلا خوخة أبي بكر)[1]

ويلاحظ أن أبا بكر الصديق فهم مالم يفهمه عامة الصحابة وأسعد بذلك رسول الله وكان الأمر كما قال. لكن هذا الذي فهمه الصديق هو مراد سيدنا رسول الله ﷺ ، لكن التأويل كما–سبق– يغمض أحيانا فلا يكون بمقدرة كل أحد أن يدركه، هذا لننبه أن كثيرا من الناس يظن أن هذا الموقف من قبيل الإشارة، وليس كذلك

---

(١) رواه البخاري (٣٩٠٤) ومسلم (٢٣٨٢)

٢-وورد مثل ذلك عن ابن مسعود: وعن عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ، أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ كَرِهَ لِزَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ نَسْخَ الْمَصَاحِفِ، وَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ أُعْزَلُ عَنْ نَسْخِ كِتَابَةِ الْمُصْحَفِ وَيَتوَلاهَا رَجُلٌ وَاللَّهِ لَقَدْ أَسْلَمْتُ وَإِنَّهُ لَفِي صُلْبِ رَجُلٍ كَافِرٍ، يُرِيدُ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ، وَلِذَلِكَ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: يَا أهل الْعِرَاقِ اكْتُمُوا الْمَصَاحِفَ الَّتِي عِنْدَكُمْ وَغُلُّوهَا، فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ [آل عمران: ١٦١] فَالْقُوا اللهَ بِالْمَصَاحِفِ[1]

فالغلول، وهو إخفاء الغنائم طمعا قبل تقسيمها فعل المجرمين، وظاهر الآية ورد في عقابهم وفضحهم يوم القيامة، وقد استخدمها ابن مسعود رضي الله عنه هنا التأويل من باب عموم اللفظ الذ هو (الغلول)، ولم يقف عند خصوص السبب، فهذا من قبيل التأويل بعموم اللفظ.

٣- الإمام الشافعي المطلبي يقول عند قوله تعالى: (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون): لما حجب هؤلاء في حال السخط، دلَّ على أن قومًا يرونه حال الرضى

وهذا أيضا تأويل بمفهوم المخالفة إذ لما يحجب المسخوط عليهم، فإنه لا يحجب المرضي عليهم، فهذا من قبيل إعمال مفهوم المخالفة.

٤-قوله تعالى: {الحمد لله رب العالمين}.

فيه إثبات الصانع عند قوم على سبيل الإشارة، لكن الله تعالى يخبر هنا في معرض كلامه بامتنانه علينا بأنه خالقنا، فهذا مراد الله تعالى، فيكون تأويلا بالمفهوم لا إشارة.

٥-قوله تعالى: {هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا}

استدل به على أن الأصل في الأشياء الإباحة إلا ما ورد الشرع بتحريمه. [2]

(١) انظر للمقارنة والتوسع في هذه النقطة، ((الفكر السياسي عند الباطنية)) وموقف الغزالي منه

(٢) الإكليل في استنباط التنزيل ص ٢٧

واستدلالهم هنا على وجه الإشارة، وهي ليست بإشارة، بل إن الله يمتن علينا بإباحته لنا ما خلق، ففهم الإباحة هنا مفهوم من الخطاب المراد أيضا، ولا وجه لمن استشكل الممنوعات كالنساء والخمر مثلا، فنقول هذا ليس بممنوع، بل هو مقنن، بمعنى أنه أبيح بقانون، ولم يحظر، بدليل أن الزواج مباح بل مستحب، وهكذا.

٦- قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا}

قال ابن الفرس استدل بها على(وجه الإشارة) على سد الذرائع في الأحكام، لأن المؤمنين منعوا من وقول: راعنا له صلي الله عليه وسلم لئلا يجد اليهود بذلك السبيل إلى سبه. (١)

وهذا أيضا محض تأويل إذ إن مراد الله أمر المؤمنين بعدم التشبيه بالكافرين لئلا تتشابه كلمتهم الطيبة مع كلمتهم الخبيثة ولكل مراده، وأما إذا أردت الإشارة من ذلك فتقول كما قال الإمام القشيري: قصود الأعداء في جميع أحوالهم- من أعمالهم وأقوالهم- قصود خبيثة فهم- على مناهجهم- يبنون فيما يأتون ويذرون. فسبيل الأولياء التحرز عن مشابهتهم، والأخذ في طريق غير طريقهم. (٢)

وهذه بعض أمثلة أبين بها المسألة فقط، لكن نرجو أن ييسر الله لباحث جاد أن يتتبع مثل هذه المواضع بالفحص والدرس والتحليل، ليخرج لنا هذا الباب ناصعا صافيا شافيا وافيا، وأجل ما يخدم هو كتاب الله، والله المستعان.

* * *

(١) الإكليل في استنباط التنزيل ص ٣٠

(٢) لطائف الإشارات ١/ ١١١

الفصل الثالث

أثر الإشارات في علوم الشريعة المختلفة.

أثر الإشارات في علم أصول الفقه

وفي هذا المبحث ندرس أثر الإشارات في علم أصول الفقه من خلال مسائل أصولية استدل عليها الأصوليون بإشارات من الآيات، ولعمر الله هذا من ألطف وأدق ما يكون، لتعلم تداخل الإشارات في العلوم الشرعية، ومدى خطورتها في تأسيس العقل الشرعي، وامتزاجها بأهم علوم الوسائل الشرعية، ألا وهو علم أصول الفقه الذي ينبني عليه الفقه كله، وهنا اكتفي بأمثلة، لبيان المراد، ومن ذلك

١-قوله تعالى: {وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة} الآية.

فيه إرشاد عباده إلى المشاورة وأن الحكمة تقتضي إيجاد ما يغلب خيره وإن كان فيه نوع شر وانه لا رأي مع وجود النص وهو أصل في المسائل التعبدية. [١]

٢-قوله تعالى: {وعلم آدم الأسماء كلها}

استدل به من قال إن اللغات توقيفية. وضعها الله بالوحي وعلمها. [٢]

٣-قوله: {ولا تقربا هذه الشجرة}

قال ابن الفرس هذا أصل جيد في سد الذرائع لأنه تعالى لما أراد النهي عن الأكل منها نهى عنه بلفظ يقتضي الأكل وما يدعو إليه وهو القرب. [٣]

٤-قوله تعالى: {وأني فضلتكم على العالمين}

قال ابن الفرس فيه ورود العام المراد به الخصوص لأن المراد عالم زمانهم.[٤]

---

(١) الإكليل في استنباط التنزيل ص ٢٧

(٢) الإكليل في استنباط التنزيل ص ٢٨

(٣) الإكليل في استنباط التنزيل ص ٢٨

(٤) الإكليل في استنباط التنزيل ص ٢٩

٥-قوله {إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة}

إن الآمر لا يدخل في عموم الأمر فإن موسى لم يدخل في عموم الأمر بدليل قوله {فذبحوها وما كادوا يفعلون} ولا يظن بموسى ذلك ذكره الزركشي في شرح جمع الجوامع. واستدل به أيضا على جواز ورود الأمر مجملا وتأخير بيانه[١]

٦-ومثل قوله تعالى: قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث مسلمة لا شية فيها} استدلوا بقوله: {مسلمة}على جواز الاجتهاد واستعمال غالب الظن في الأحكام لأن ذلك لا يعلم إلا من الاجتهاد[٢]

٧-ومثل قوله تعالى: {فافعلوا ما تؤمرون}

دليل على أن الأمر على الفور، قال ابن الفرس ويدل على ذلك أنه استقصرهم حين لم يبادروا إلى فعل ما أمرهم به وقال فذبحوها وما كادوا يفعلون. [٣]

٨-قوله تعالى: {من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته}

استدل به على أن المعلق على شرطين لا يتنجز بأحدهما. [٤]

٩-قوله تعالى: {إن الذين يكتمون} الآية.

قال الكيا: فيه دليل على وجوب قبول قول الواحد، لأنه لا يجب عليه البيان إلا وقد وجب قبول قوله[٥]

علق السيوطي بقوله: ويستدل بالآية على عدم وجوب ذلك على النساء بناء على أنهم لا يدخلن في خطاب الرجال. [٦]

---

(١) الإكليل في استنباط التنزيل ص ٢٩
(٢) الإكليل في استنباط التنزيل ص ٢٩
(٣) الإكليل في استنباط التنزيل ص ٣٠
(٤) الإكليل في استنباط التنزيل ص ٣٠
(٥) أحكام القرآن للكيا الهراسي ١/ ٢٥
(٦) الإكليل في استنباط التنزيل ص ٣٣

١٠-قوله تعالى: {وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آبائنا}الآية

فيه إبطال التقليد. [١]

١١-قوله تعالى: {ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله}.

قال الكيا: فيه رد على من قال بالاستحسان المجرد الذي لا يستند إلى دليل شرعي وعلى من قال يجب قبول قول الإمام في التحليل والتحريم دون إبانة مستند شرعي[٢]

١٢-قوله تعالى: {إلا ما حرم إسرائيل على نفسه}.

قال الكيا: يدل على جواز إطلاق الله للأنبياء تحريم ما أرادوا تحريمه وعلى جواز النسخ[٣]

١٣-قوله تعالى: {وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا}

استدل به من قال إن هذا عدد التواتر[٤]

١٤-{وأن هذا صراطي} الآية.

دليل على منع النظر والرأي مع وجود النص[٥]

١٥-قوله تعالى: {ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك}

قال الكيا: يدل بظاهره على أن اقتضاء الأمر المطلق، الوجوب لأن الذم علق

---

(١) الإكليل في استنباط التنزيل ص ٣٦
(٢) أحكام القرآن للكيا الهراسي ٢/ ٢٨٨
(٣) أحكام القرآن للكيا الهراسي ٢/ ٢٨٩
(٤) الإكليل في استنباط التنزيل ص ١١٠
(٥) الإكليل في استنباط التنزيل ص ١٢٤

على ترك الأمر المطلق. [(١)]

١٦-{ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل}

فيه جواز فرض المحال [(٢)]

١٧-قوله تعالى: {وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا}.

استدل به على وقوع المجاز العقلي في القرآن[(٣)].

١٨-قوله تعالى: {عفا الله عنك لم أذنت لهم}

استدل بها من قال بجواز الاجتهاد له لأنه لو أذن لهم عن وحي لم يعاتب واستدل بها من قال إن اجتهاده قد يخطئ ولكن ينبه عليه بسرعة أخرج ابن أبي حاتم عن عون قال سمعتم بمعاتبة أحسن من هذا؟! بدأ بالعفو قبل المعاتبة. [(٤)]

١٩- قوله تعالى: {قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق} الآية.

استدل به نفاه القياس وفيه دليل على أنه لا حكم للعقل[(٥)]

٢٠- قوله تعالى: {فاعتبروا يا أولي الأبصار}

استدل به على حجية القياس وأنه فرض كفاية على المجتهدين لأن اعتبار قياس الشيء بالشيء. [(٦)]

وهذا الذي ذكرت ليس إلا رأس قلم، وسنة حلم، وهذا الأمر من أهم ما يُعتني به، إذ علم أصول الفقه هو علم النص، وغيره من العلوم مبني عليه، فمن المهم أن

(١) أحكام القرآن للكيا الهراسي ٣/ ١٣٢
(٢) الإكليل في استنباط التنزيل ص ١٢٨
(٣) الإكليل في استنباط التنزيل ص ١٣٤
(٤) الإكليل في استنباط التنزيل ص ١٤١
(٥) الإكليل في استنباط التنزيل ص ١٤٨
(٦) الإكليل في استنباط التنزيل ص ٢٥٨

يتجرد لهذا البحث طالب علم بارع يجلي لنا مظاهر تأثير الإشارة في علوم أصول الفقه، وهذه أرض بكر لم يطأها أحد من قبل، ولم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان، فبأي آلاء ربكما تكذبان.

ولعل هذا البحث الذي ننشده يخرج في رسالة علمية، فتكون بحق إضافة علمية للمكتبة التفسيرية الأصولية، فلمثل هذه الموضوعات جُعلت الرسائل العلمية، ولم تُجعل للتكرار والإكثار من النقل عن فلان وعلان، فعسى أن نرى هذا بأعيننا قبل أن تمتد إلينا يد المنون، فنرى بأعيننا ثمرات زرعنا يانعة ينهل منها كل ذي عقل رطب.

* * *

المبحث الأول

أثر الإشارات في المسائل الفقهية

وفي هذا المبحث ندرس أثر الإشارة في علم الفروع الفقهية من خلال ذكر بعض الأمثلة للفروع الفقهية التي بنيت على الإشارات، على المذاهب الأربعة أو حتى آراء لبعض العلماء من خارج المذاهب الأربعة المعتمدة،

ومن ذلك ١- «قوله تعالى: {وامرأته} [المسد: ٤]، استدل به الشافعي على صحة أنكحة الكفار»

٢-قوله تعالى: {ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين}

قال هو وغيره يحتج بهذه الآيات وأشباهها على استتابة الزنديق الذي ظهر منه الكفر لأنه تعالى أخبر عنهم بذلك ولم يأمر بقتلهم، ومعلوم أن نزول هذه الآيات بعد فرض القتال. [١]

٣-وأيضا مثل ما ورد في قوله تعالى: {يا بني إسرائيل}

يستدل به على دخول أولاد الأولاد في الوقف على الأولاد[٢].

٤-ذكر صاحب التحرير عند قوله تعالى: {وأنزلنا عليكم المن والسلوى كلوا}

استدل به على أن الضيف لا يملك ما قدم له وأنه لن يتصرف فيه إلا بإذن، [٣]

٥-قوله تعالى: {فبدل الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم}

---

(١) الإكليل في استنباط التنزيل ص ٢٧

(٢) الإكليل في استنباط التنزيل ص ٢٨

(٣) الإكليل في استنباط التنزيل ص ٢٩

قال الكيا: يدل على أنه لا يجوز تغيير الأقوال المنصوص عليها وأنه يتعين اتباعها.

وقال الرازي: يحتج به فيما ورد من التوقيف في الأذكار والأقوال وأنه غير جائز تغييرها[١]

٦-قوله {إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة}.

استدل به بكر بن العلاء على أن السنة في البقرة الذبح.

الثالث استدل به على جواز ورود الأمر مجملا وتأخير بيانه. [٢]

٧-ومثل قوله {وإنا إن شاء الله لمهتدون}: فيها الإرشاد إلى الاستثناء في الأمور في قوله: {وإنا إن شاء الله لمهتدون}[٣]

٨-قوله تعالى: {فويل للذين يكتبون الكتاب}

استدل به النخعي على كراهة كتابة المصاحف بالأجرة. [٤]

٩-قال بكر بن العلاء وفي آية[واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان]. . . أن الساحر يقتل، ووجهه أنه قال: {ولبئس ما شروا به أنفسهم}

أي باعوا أنفسهم للقتل بالسحر الذي فعلوه كما قال: {إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم - إلى أن قال - فيقتلون ويقتلون}[٥].

١٠-قوله تعالى: {ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه}

إلى قوله: {خائفين}. قال الرازي: فيه دليل على منع دخول أهل الذمة

---

(١) الإكليل في استنباط التنزيل ص ٢٩
(٢) الإكليل في استنباط التنزيل ص ٢٩
(٣) الإكليل في استنباط التنزيل ص ٣٠
(٤) الإكليل في استنباط التنزيل ص ٣٠
(٥) الإكليل ص ٣٠

المساجد، وقال الكيا: يدل أن للمسلمين إخراجهم منها إذا دخلوها ولولا ذلك ما كانوا خائفين بدخولها. [١]

١١-قوله تعالى: {قال ومن ذريتي}

قال ابن الفرس: يؤخذ من هذا إباحة السعي في منافع الذرية والقرابة وسؤال ذلك من بيده ذلك[٢]

١٢-قوله تعالى: {وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا}

قال الرازي: فيه أن بناء المساجد قربة. قلت: وفيه استحباب الدعاء بقبول الأعمال. [٣]

١٣- قوله تعالى: {تلك أمة قد خلت لها ما كسبت} الآية.

قال الرازي: يدل على أن الأبناء لا يثابون على طاعة الآباء، ولا يعذبون على ذنوبهم، وفيه إبطال مذهب من يجيز تعذيب أولاد المشركين تبعا لآبائهم[٤]

١٤- قوله (فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم، وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل)

استدل به على صحة صوم الجنب لأنه يلزم من إباحة الجماع إلى تبين الفجر إباحته في آخر جزء من أجزاء الليل، ويلزم من ذلك بطريق الإشارة طلوع الفجر وهو جنب[٥].

١٥-قوله تعالى: {ومن الناس من يعجبك قوله}

---

(١) الإكليل ص ٣١
(٢) الإكليل ص ٣١
(٣) الإكليل ص ٣٣
(٤) الإكليل ص ٣٣
(٥) الإكليل ص ٤١

الآية قال الكيا: فيه تنبيه على الاحتياط فيما يتعلق بأمور الدين والدنيا واستبراء أحوال الشهادة والقضاة. انتهى

١٦- قوله تعالى: {ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله} الآية.

فيه أن البعوث والسرايا لابد لهم من أمير يولى عليهم يرجعون إليه ويقتدون به[١]

١٧-قوله تعالى: {إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا} الآية.

فيه أن الإمامة ليست وراثة متعلقة بأهل بيت النبوة والملك، وإنما تستحق بالعلم والقوة دون المال وأن النسب مع فضائل النفس والعلم لا عبرة به بل هي مقدمة عليه. [٢]

١٨- قوله تعالى: {فمن شرب منه} الآية.

استدل به الرازي على أن الشرب من النهر الكرع فيه بالفم دون الاغتراف فلو حلف لا يشرب من النهر حنث بالكرع دون الشرب بإناء لأنه حظر الشرب إلا لمن اغترف فدل على أن الاغتراف منه ليس يشرب ورده الكيا بأن استثناء الاغتراف منه يدل على أنه من الشرب إذ المستثنى من جنس المستثنى منه، واستدل به الشافعية بقوله ولم يطعمه على أن الماء ربوي مطعوم[٣]

١٩- قوله تعالى: {ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبرا}

الآية، فيه استحباب هذا الدعاء عند القتال[٤]

٢٠- قوله تعالى: {زين للناس حب الشهوات} الآية.

قال أبو حيان من غريب ما استنبط منها من الأحكام وجوب الزكاة في الخيل

---

(١) الإكليل ص ٦٠
(٢) الإكليل ص ٦٠
(٣) الإكليل ص ٦٠
(٤) الإكليل ٦١

السائمة لذكرها مع ما تجب فيه الصدقة والنفقة. والثاني النساء والبنون قاله الماتريدي. [١]

٢١-قوله تعالى: {وإني سميتها مريم}.

قال ابن الفرس فيد دليل على جواز تسمية الأطفال يوم الولادة لا يوم السابع لأنها إنما قالت هذا بأثر الوضع[٢]

علق السيوطي بقوله: قلت وفيه مشروعية أصل التسمية وأن الأم قد تسمي ولا تختص بالأب. [٣]

٢٢-قوله تعالى: {وكفلها زكريا}.

قال ابن عباس الفرس هذا أصل في الحضانة[٤].

٢٣-قوله تعالى: {آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا}.

أستدل به من قال إن الرمز من الكلام وأن من خلف أن لا يكلم فلانا فأشار إليه يحنث لأنه استثناء منه والمستثنى من جنس المستثنى منه. [٥]

٢٤-قوله تعالى: {إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم}.

هذا أصل في استعمال القرعة عند التنازع[٦]

٢٥-قوله تعالى: {مسومين}.

أخرج ابن إسحاق عن ابن عباس قال كانت سيما الملائكة يوم بدر عمائم

---

(١) الإكليل ص ٦٧
(٢) الإكليل ص ٦٨
(٣) الإكليل ص ٦٩
(٤) الإكليل ص ٦٩
(٥) الإكليل ص ٦٩
(٦) الإكليل ص ٦٩

بيض قد أرسلوها في ظهورهم، ففيه مشروعية العمامة والعذبة فيها. [١]

٢٦-قوله تعالى: {ذلك أدنى ألا تعولوا}.

قال الشافعي: ألا يكثر عيالكم واستنبط منه أن على الرجل مؤنة امرأته[٢]

٢٧-قوله تعالى: {فلما ذاقا الشجرة}

استدل به بعضهم على أن من ذاق الخمر عصى[٣]

٢٨-قوله تعالى: {وألقى الألواح}

استدل به ابن تيمية على أن من ألقى كتب علم من يده إلى الأرض وهو غضبان لا يلام. [٤]

٢٩- قوله تعالى: {ألا لعنة الله على الظالمين}

استدل به من قال: يجوز لعن المسلم الظالم[٥]

٣٠- قوله تعالى: {إنه ليس من أهلك}

الآية يدل على أن الاتفاق في الدين أقوى من النسب. [٦]

وما ذكرته لا يعدو كونه أمثلة في نطاق صغير من القرآن الكريم، ولعل الله يهيأ لهذا الأمر باحثا موفقا يتتبعه في القرآن كله، وهذا أمر جديد جيد، لم أقف -في حدود علمي-على أحد بحث هذا الموضع من قبل، ولعله يكون في مجلد كبير إذا ما تتبع الأمر تتبعا جيدا، يسر الله ذلك بمنه وكرمه.

(١) الإكليل ص ٧٣
(٢) الإكليل ص ٧٧
(٣) الإكليل ص ١٢٦
(٤) الإكليل ص ١٣١
(٥) الإكليل في استنباط التنزيل ص ١٥٠
(٦) الإكليل في استنباط التنزيل ص ١٥٠

أثر الإشارات في علم الكلام

بان لك جليا فيما سبق كثرة المسائل التي للإشارة فيها مدخل استدلال أصولي وفقهي، وما ضربت لك إلا أمثلة، واللبيب يكفيه المثال، والعنيد لا يُفهِمه كثرة المقال، وهنا أيضا نذكر أمثلة لمدخل الإشارات في علم العقائد الإسلامية والدفاع عنها، ورد شبه خصوم الإسلام، (علم الكلام)، وذلك من خلال الاستنباطات العقدية المؤيدة لمذهب أهل السنة والجماعة، أو من خلال استنباط إشارات تهدم مذاهب المخالفين لأهل السنة والجماعة، وسأكتفي أيضا ببعض الأمثلة.

١-قوله تعالى: {الرحمن الرحيم}

فيه إثبات الصفات الذاتية. [١]

٢-قوله تعالى: {إياك نعبد وإياك نستعين}

فيه الإرشاد إلى تقديم الخضوع والتذلل على طلب الحاجة. قال أبو طالب الثعلبي في تفسيره: وقد جمع في هذه الآية إبطال الجبر والقدر معا لأنه وصف عبادة بأنهم يعبدون فأثبت لهم كسبا وعلمهم الاستعانة ولو كان العبد مستطيعا قبل الإعانة لما احتاج إلى الاستعانة فنفى عنهم القدرة فهو كقوله: {وما رميت إذ رميت}

نفى الخلق وأثبت الكسب، قال وسائر آيات السور على مناقضة قواعد المعتزلة لأنه بدأ بالتسمية وان جعل الاسم زائدا فمعناه: بالله كانت الكائنات أولا، لأن العبد إذا كان خالقا لكسبه مستطيعا له لم يكن للاستعانة بالاسم معنى

(١) الإكليل في استنباط التنزيل ٢٥

ثم عليهم حمده قد قبَّح سيرة من أحب أن يحمد بما لم يفعل، فدل على أنه الفعال لكل شيء، ثم أمرهم بالاستعانة وسؤال الهداية، وعلى زعمهم لا حاجة إليها وإلى الهدى لأنه قد هداهم بالدعوة وبيان الأدلة وليس الهدى على زعمهم خلق المعرفة، ففاتحة الكتاب شاهدة عليهم. وقال القاضي البيضاوي: الضمير المستكن في نعبد ونستعين للقارئ ولسائر الموحدين أدرج عبادته في تضاعيف عبادتهم وخلط بحاجتهم لعلها تقبل ويجاب إليها، ولهذا شرعت الجماعة. [(١)]

٣-قوله تعالى: {ومن الناس من يقول آمنا بالله}الآية

قال الرازي: يدل على أن الإيمان ليس هو الإقرار دون الاعتقاد لأن الله قد أخبر عن إقرارهم بالإيمان ونفى عنهم اسمه بقوله {وما هم بمؤمنين}[(٢)]

٤-قوله تعالى: {الذي جعل لكم الأرض فراشا}إلى قوله: {فإن لم تفعلوا}

فيه دلالة على الأمر باستعمال حجج العقول وإبطال التقليد. [(٣)]

٥-قوله: {أبى واستكبر وكان من الكافرين}

رد على الجبرية إذ لا يوصف بالإباء من هو غير قادر على المطلوب[(٤)]

٦-قوله تعالى: {وإذا سألك عبادي} الآية.

فيه تنزيهه تعالى عن المكان وإجابته الداعي والترغيب في الدعاء[(٥)]

٧-قوله تعالى: {كل نفس ذائقة الموت}

استدل به أهل السنة على بقاء النفس بعد موت البدن لأن الذائق لابد أن يبقى

(١) الإكليل ص ٢٦
(٢) مفاتيح الغيب ٢/ ٢٧٢
(٣) الإكليل ص ٢٧
(٤) الإكليل ٢٨
(٥) الإكليل ص ٤١

بعد المذوق. [١]

٨-قوله تعالى: {إن الله لا يظلم مثقال ذرة}.

أستدل به على دخول كل مؤمن الجنة أخرج عبد الرازق وعبد بن حميد وابن ماجه وابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي سعيد الخدري أن النبي - ﷺ - قال: "يخرج من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان" قال أبو سعيد فمن شك فليقرأ" {إن الله لا يظلم مثقال ذرة}[٢]

٩-قوله تعالى: {أفلا يتدبرون القرآن} الآية. وفيه رد على من زعم من الرافضة أن القرآن لا يفهم معناه إلا بتفسير الرسول أو تفسير الإمام[٣]

١٠-قوله تعالى: {وما يتبع أكثرهم إلا ظنا} الآية.

يستدل بها على منع التقليد في أصول الدين[٤]

ولعله لا يخفاك كم كَثُر الجدال، وطال المقال في هذا العلم في كل ما جل وخفي، لكن لم ينتبه أحد -فيما اطلعت عليه-إلى هذا المأخذ، وهو أصول الأدلة الكلامية ومآخذها الاستنباطية، ولعل الله يكتب لباحث خيرا فينشط لتتبع دليل الإشارة في الدرس الكلامي، ومدى اعتماد المتكلمين عليه، وطريقتهم في تناوله، كلها مباحث خصبة في تتبع تأثر العلوم وتأثيرها في البحث الإشاري، والله يوفق من طلب الحق، ولم يرض بغير الدليل بديلا، وبغير الحق سبيلا.

* * *

---

(١) الإكليل ص ٧٤

(٢) الإكليل ص ٩٢

(٣) انظر الإكليل ص ٩٥

(٤) الإكليل في استنباط التنزيل ص ١٤٨

أثر الإشارات في علم السلوك (التصوف السني)

تلاحظ أيها القارئ الكريم، أن علم الإشارات قد حصر في هذا الباب حتى صار حكرا عليه، وعلى أهله، وبينا أن هذا الحصر ليس صحيحا، بل هو محض خرافة من خرافات المعاصرين وسماديرهم وأوهامهم، والحق أن علم الأخلاق والتصوف كغيره من العلوم الشرعية، يستقي أدلته التفصيلية من سائر الأدلة الإجمالية، من طرقها الاستنباطية، ونتائجها التأويلية أو الإشارية، فلا سبيل إذن لحصر هذا الدليل، دليل الإشارة، في علم التصوف، وكل حصر لا دليل عليه فهو كالريح لا وزن له، وكالتراب لا قيمة له، وكالمعدوم لا اعتبار له، فتوظيف الإشارة في علم السلوك كتوظيفها في سائر العلوم، ولم نجد من العلماء من يقصر هذا العلم على التصوف والصوفية إلا من تخبط في التأصيل، وخطأ في التنزيل، ولعل الذي أدى إلى ذلك هو اعتناء المتصوفة بهذا الاسم ولصقه بأباطيل وأسمار من عندهم، ولم يحصل بهذا العلم كبير اعتناء أو ضبط، فصارت الأحكام تلقى هكذا بالظن تارة، وبالاستحسان تارة أخرى، ولعل الله وفقنا- وهو المنان سبحانه وبحمده- لنولي وجوهنا شطر هذا الباب لنضبطه ونؤصله حماية وحياطة وذودا عن حياض كتاب الله أن يردها كل شاطح وناطح، لننزه كتاب الله عن تحريف الغالين، وانتحال المبطلين وتخريف الجاهلين، وكل هؤلاء مخالفون للكتاب، مختلفون في الكتاب، مجتمعون على مخالفة الكتاب، يقولون في كتاب الله بغير علم، فكم من خطأ للكتاب العزيز قد نسبوه، وكم من جاهل قد أضلوه، قبح الله من اقتفى ما ليس له به علم، وهدى الله من كان للجاهلين خصيما.

١-قوله تعالى: {وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون}

فيه أن الاستغفار أمن من عذاب الله.[١]

٢-وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضي الأمر ثم لا ينظرون (٨)

بين أن العبرة بالقسمة دون الاعتبار بالحجة، وما يغنى السراج عند من فقد البصر؟

كذلك ما تغنى الحجج عند من عدم عناية الأزل؟[٢]

٣-وهم ينهون عنه وينأون عنه وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون (٢٦)

في هذه الآية إشارة صعبة (لمن) «يدعو إلى الحق جهرا ثم لا يأتي بذلك سرا.

ويقال خالفت أحوالهم قضايا أقوالهم، وجرى إجرامهم مجرى من ألقوا حبالهم على غاربهم، وكذلك من أبعده عن القسمة لم يقربه فعله[٣].

٤-بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون (٢٨)

غدا يوم تنهتك الأستار، وتظهر الأسرار- فكم من مجلل بثوب تقواه، ويحكم له معارفه بانه زاهد في دنياه، راغب في عقباه، محب لمولاه، مفارق لهواه، فيكشف الأمر عن خلاف ما فهموه، ويفتضح عندهم بغير ما ظنوه.

وكم من متهتك ستر بما أظهر عليه! ظن الكل أنه خليع العذار هين الأعلال، مشوش الأسرار، فظهر لذوى البصائر جوهره، وبدت عن خفايا الستر حقيقته.

ثم قال: ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه» أخبر عما علم أنه لا يكون أنه لو كان كيف كان يكون فقال لو رد أهل العقوبة إلى دنياهم لعادوا إلى جحدهم وإنكارهم،

(١) الإكليل ص ١٣٥

(٢) لطائف الإشارات ١/ ٤٦٢

(٣) لطائف الإشارات ١/ ٤٦٦

وكذلك لو رد أهل الصفاء والوفاء إلى دنياهم لعادوا إلى أحسن أعمالهم[١]

٥-ولو ترى إذ وقفوا على ربهم قال أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون (٣٠)

يا حسرة عليهم من موقف الخجل، ومحل مقاساة الوجل، وتذكر تقصير العمل! فهم واقفون على أقدام الحسرة، يقرعون أسنان الندم حين لا ندم ينفعهم، ولا شكوى تسمع منهم، ولا رحمة تنزل عليهم.

وحين يقول لهم: أليس هذا بالحق؟ يقرون كارهين، ويصرخون بالتبري عن كل غير[٢]

٦- نما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون (٣٦)

من فقد الاستماع في سرائره عدم توفيق الاتباع بظاهره، والاختيار السابق في معلومه - سبحانه- غالب. [٣]

٧- ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون (٢٣)

من أقصته سوابق القسمة لم تدنه لواحق الخدمة، ومن علمه الله بنعت الشقوة حرمه ما يوجب عفوه.

ويقال لو كانوا في متناولات الرحمة لألبسهم صدار العصمة، ولكن سبق بالحرمان حكمهم، فختم بالضلالة أمرهم[٤]

٨- وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون (٣٣)

للجوار حرمة، فجار الكرام في ظل إنعامهم فالكفار ينعمون بقرب الرسول-

---

(١) لطائف الإشارات ١/ ٤٦٧

(٢) لطائف الإشارات ١/ ٤٦٨

(٣) لطائف الإشارات ١/ ٤٧٠

(٤) لطائف الإشارات ١/ ٦١٤

ﷺ - منهم فقد اندفع العذاب- بمجاورته- عنهم:

وأحبها وأحب منزلها الذي. . . نزلت به وأحب أهل المنزل[١]

٩- وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون (٣٥)

تجردت أعمالهم بظواهرهم عن خلوص عقائدهم، فلم يوجد- ﷺ - لها احتسابا فزكاء القالة لا يكون إلا مع صفاء الحالة، وعناء الظاهر لا يقبل إلا مع ضياء السرائر. [٢]

١٠- كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون (٨)

وصفهم بلؤم الطبع فقال: كيف يكونون محافظين على عهودهم مع ما أضمروه لكم من سوء الرضاء؟ فلو ظفروا بكم واستولوا عليكم لم يراعوا لكم حرمة، ولم يحفظوا لكم قرابة أو ذمة.

وفى هذا إشارة إلى أن الكريم إذا ظفر غفر، وإذا قدر ما غدر، فيما أسر وجهر. [٣]

١١-قول الإمام الرازي عند سورة الناس: (اعلم أن لهذه السورة لطيفة أخرى: وهي أن المستعاذ به في السورة الأولى (سورة الفلق) مذكور بصفة واحدة وهي أنه رب الفلق، والمستعاذ منه ثلاثة أنواع من الآفات، وهي الغاسق والنفاثات والحاسد.

وأما في هذه السورة فالمستعاذ به مذكور بصفات ثلاثة: وهي الرب والملك والإله والمستعاذ منه آفة واحدة، وهي الوسوسة، والفرق بين الموضعين أن الثناء يجب أن يتقدر بقدر المطلوب، فالمطلوب في السورة الأولى سلامة النفس

(١) لطائف الإشارات ١/ ٦٢٢

(٢) لطائف الإشارات ١/ ٦٢٣

(٣) لطائف الإشارات ٢/ ١٠

والبدن، والمطلوب في السورة الثانية سلامة الدين وفيه تنبيه على أن مضرة الدين وإن قلَّت: أعظم من مضار الدنيا وإن عظمت، والله سبحانه وتعالى أعلم. [١]

١١-أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا (٩)

أزال الأعجوبة عن أوصافهم بما أضافه إلى ربه بقوله: «من آياتنا» فقلب العادة من قبل الله غير مستنكر ولا مبتدع.

و الإشارة فيه ألا تتعجب من قصتهم فحالك أعجب في ذهابك إلينا في شطر من الليل حتى قاب قوسين أو أدنى «٢»، وهم قد بقوا في الكهف سنين. [٢]

١٢-وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقا (١٦)

العزلة عن غير الله توجب الوصلة بالله. بل لا تحصل الوصلة بالله إلا بعد العزلة عن غير الله.

ويقال لما اعتزلوا ما عبد من دون الله آواهم الحق إلى كنف رعايته، ومهد لهم مثوى في كهف عنايته. [٣]

١٣-قوله جل ذكره: وكلبهم باسط. ذراعيه بالوصيد لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا كما ذكرهم ذكر كلبهم، ومن صدق في محبة أحد أحب من انتسب إليه وما ينسب إليه.

ويقال كلب خطا مع أحبائه خطوات فإلى القيامة يقول الصبيان- بل الحق يقول بقوله العزيز-: «وكلبهم باسط. . . . » فهل ترى أن مسلما يصحب أولياءه من وقت شبابه إلى وقت مشيبه يرده يوم القيامة خائبا. ؟ إنه لا يفعل ذلك. [٤]

---

(١) مفاتح الغيب ٣٢/ ٣٧٨

(٢) لطائف الإشارات ٢/ ٣٧٩

(٣) لطائف الإشارات ٢/ ٣٨٢

(٤) لطائف الإشارات ٢/ ٣٨٤

١٤-وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاما فليأتكم برزق منه وليتلطف ولا يشعرن بكم أحدا (١٩)

ويقال أهل المجاهدات وأصحاب الرياضات طعامهم الخشن ولباسهم كذلك والذي بلغ المعرفة لا يوافقه إلا كل لطيف، ولا يستأنس إلا بكل مليح. [1]

١٤-إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم في ملتهم ولن تفلحوا إذا أبدا (٢٠)

تواصوا فيما بينهم بكتمان الأسرار عن الأجانب وأخبر أنهم إن اطلعوا عليهم وعلى أحوالهم بالغوا في مخالفتهم إما بالقتل وإما بالضرب وبما أمكنهم من وجوه الفعل، ولا يرضون

إلا بردهم إلى ما منه تخلصوا، فمن احترق كدسه فما لم يحترق كدس غيره لا تطيب نفسه.

ويقال من شأن الأبرار حفظ الأسرار عن الأغيار.

ويقال من أظهر لأعدائه سره فقد جلب باختياره ضره، وفقد ما سره[2]

١٥-قوله: «ولم تكن له فئة ينصرونه»: من اشتهر أمره بسخط السلطان عليه لم ينظر إليه أحد من الجند والرعية، كذلك من وسمه الحق بكى الهجر لم يرث له ملك ولا نبي، ولم يحمه صديق ولا ولى. [3]

١٦-قوله جل ذكره: أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا

(١) لطائف الإشارات ٢/ ٣٨٧
(٢) لطائف الإشارات ٢/ ٣٨٨
(٣) لطائف الإشارات ٢/ ٢٩٧

في الآية إشارة إلى أن من يفرده بالولاية فلا يقتفى غيره ولا يخاف غيره[١].

١٧-ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا (٥١)

إذا تقاصرت علوم الخلق عن العلم بأنفسهم فكيف تحيط علومهم بحقائق الصمدية، واستحقاقه لنعونه إلا بمقدار ما يخصهم به من التعريف على ما يليق برتبة كل أحد بما جعله له أهلا؟[٢]

١٨-فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا (٦٢)

كان موسى في هذا السفر متحملا، فقد كان سفر تأديب واحتمال مشقة، لأنه ذهب لاستكثار العلم. وحال طلب العلم حال تأديب ووقت تحمل المشقة، ولهذا لحقه الجوع، فقال: «لقينا من سفرنا هذا نصبا».

وحين صام في مدة انتظار سماع الكلام من الله صبر ثلاثين يوما، ولم يلحقه الجوع ولا المشقة، لأن ذهابه في هذا السفر كان إلى الله، فكان محمولا. [٣]

١٩- وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق. . . .

ناموا وهم على الخلق أذلاء، وقاموا وهم على الحق أدلاء، وطوبى لمغمور، لفصل القضاء مذخور.

٢٠-ولبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين)

النوم جند من جنود الله، وآية من آياتهن نجى به أوليائه، وجعلهم على صدق الرجعى أوليائه، ولإظهار الدين؛ يقيم الله رجالا في الصف، وينيم فتية في الكهف، وما يعلم جنود ربك إلا هو !

(١) لطائف الإشارات ٢/ ٤٠٢

(٢) لطائف الإشارات ٢/ ٤٠٢

(٣) لطائف الإشارات ٢/ ٤٠٦

ويقال من حسنت سريرته، أظهرها الله للناس ولو بعد حين.

٢١- (سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم)

انظر للحق ولا تنظر كم مؤمن به؟فالحق لا يستمد حقيقته من كثرة أتباعه، وإنما هو حق وإن لم يؤمن به أحد، فلا تنشغل بإحصاء عدة من نجوا، ولكن انشغل كيف نجوا؟

٢٢-(رجما بالغيب)...

العالم يحكم الإصابة، والمتعالم يخبط خبط عشواء، وإن لم يكن ثمة هدف.

٢٣-(فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهرا)

العقل أجل نعمة، ومن شكرها ألا يمارى بها السفهاء، ولا يجاري به أهل الأهواء

ويقال: الحجة ظاهرة بنفسها، والداعية الموفق يأخذ بأيدي الناس وأفهامهم إليها، ويجلو أعينهم لتبصرها، فإن أصر على إنزالها إليهم، فلا يأمن أن يلوي أعناقها، أو يكسر صلبها، وإن بالغ في تلميعها فقد يذهب طلاوتها.

٢٤-(ولا تستفت فيه منهم أحدا)..

من ضل عن علم ما بين يديه، فهو عن علم ما عزب عنه أضل، ومن ثلث الواحد وقد دل على وحدانيته، البينات الواضحات، كيف يستفتى في عدة من غيبته القبور والأضرحة.

والأمثلة كثيرة جدا، ومما ينبغي أن يُوصى به أن ينشط باحث جاد لينقي كي الإشارات التي تعنى بهذا النوع من الإشارات فينقيها من الشطحات ويبقي لنا على مثل هذه الإشارات، حتى لا يختلط الحابل بالنابل، فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض، فلعل الله ييسر على أيدينا أو أيدي إخواننا

أثر الإشارات في علم آداب البحث والمناظرة

نذكر في هذا المبحث أثر الإشارات في علم البحث والمناظرة من خلال بعض الأمثلة التي استفاد العلماء منها بطريق الإشارة بعض آليات أو طرق أو آداب البحث والمناظرة، مثل:

١-قوله تعالى: {ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم} الآية.

هذه الآية أصل في علم الجدل والمناظرة قال العلماء لما وصف إبراهيم ربه بما هو صفة له من الإحياء والإماتة، لكن له حقيقة ومجاز، وقصد الخليل الحقيقة فزع نمروذ إلى المجاز تمويها على قومه حيث قتل نفسا وأطلق نفسا فسلم له إبراهيم تسليم الجدل وأنتقل معه من المثال، وجاء بأمر لا مجاز فيه فبهت وانقطع ولم يمكنه أن يقول أنا الآتي بها من المشرق لأن ذوي الأسنان يكذبونه، وقال الكيا: في الآية جواز المحاجة في الدين وتسميه الكافر ملكا[1]

٢-قوله تعالى: {إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم}.

فيه استعمال قياس الأولى في المناظرة لأن عيسى إن كان خلق بلا أب فآدم لا أب له ولا أم.[2]

٣-قوله تعالى: {وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض}

إلى قوله: {وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم} فيه الاستدلال بتغيير العالم على حدوثه وقدم صانعه.[3]

---

(١) الإكليل ص ٦١

(٢) الإكليل ص ٦٩

(٣) الإكليل ص ١١٩

نشأة الإشارة وتطورها

وأهم مصادرها

تاريخ الاستنباط الإشاري

وعند بحث تأريخ هذا النوع من الاستنباط من للوحي نجد أن هذا النوع من الاستنباط قد وجدت أمثلته مبكرا جدا في عصر الصحابة –رضوان الله عليهم– جاء في ذلك عن ابن عباس رضي الله عنه قال: « كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر فقال بعضهم: لم تدخل هذا الفتى معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال: إنه ممن قد علمتم قال: فدعاهم ذات يوم ودعاني معهم، قال: وما أريته دعاني يومئذ إلا ليريهم مني، فقال: ما تقولون في: إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا [النصر: ٢ – ١] حتى ختم السورة؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وقال بعضهم: لا ندري أو لم يقل بعضهم شيئا، فقال لي: يا ابن عباس أكذاك تقول؟ قلت: لا، قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله أعلمه الله له: إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ [النصر: ١] فتح مكة، فذاك علامة أجلك فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا [النصر: ٤ – ٣] قال عمر رضي الله عنه: ما أعلم منها إلا ما تعلم[١]

والشاهد هنا أن ابن عباس رضي الله عنه فهم من خطاب الله معنى خفيا وراء ظاهر الألفاظ لم يدركه عامة الصحابة في مجلسهم، وهذا ما نعني به الإشارة

وقد علق الحافظ ابن حجر العسقلاني على هذه القصة بقوله: (وفيه جواز تأويل القرآن بما يفهم من الإشارات وإنما يتمكن من ذلك من رسخت قدمه في العلم ولهذا قال علي رضي الله عنه: أو فهما يؤتيه الله رجلا في القرآن) انتهى[٢]

---

(١) رواه البخاري (٤٢٩٤)

(٢) فتح الباري ٨/ ٧٣٦

وأيضاً ما ورد من أنه لما نزل قوله تعالى في الآية [٣] من سورة المائدة: {اليوم أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإسلام دِيناً}. . فرح الصحابة وبكى عمر رضى الله تعالى عنه وقال: ما بعد الكمال إلا النقص، مستشعراً نعيه ﷺ، فقد أخرج ابن أبى شيبة: «أن عمر رضى الله تعالى عنه لما نزلت الآية بكى، فقال النبي ﷺ: «ما يبكيك»؟ قال: أبكانى أنَّا كنا في زيادة من ديننا، فأما إذا كمل فإنه لم يكمل شيىء قط إلا نقص، فقال رضى الله عنه: «صدقت». [١]

ومع وجود هذا النوع لدى الصحابة إلا أنهم كانوا مقلين من الكلام فيه، والتحدث به حتى لا يتجرأ الناس على ظواهر القرآن وينصرفوا إلى غيرها بلا ضوابط فيبطلون القرآن من حيث لا يدرون ولا يشعرون؛ ونعم الموقف كان، وهكذا كان السلف بعدهم، فلم يخل كلامهم من نحو هذه الإشارات المنضبطة، ومن أمثلته،: «قوله تعالى: {وامرأته} [المسد: ٤]، استدل به الشافعي على صحة أنكحة الكفار

وهكذا تجد هذه الإشارات المنضبطة لدى علماء القرون الثلاثة الأول، متناثرة، تعد عدا لندرتها، وهم في ذلك منشغلون ببيان ظواهر ألفاظ القرآن كالعام والخاص والمطلق والمقيد والأمر والنهي والناسخ والمنسوخ، والأحكام الفقهية، وغيرها.

وهذا من عظيم فقه السلف، فإتقان ظَاهِرِ التَّفْسِيرِ لابد منه لِيَتَّقِيَ بِهِ مَوَاضِعَ الْغَلَطِ ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يَتَّسِعُ الْفَهْمُ وَالِاسْتِنْبَاطُ وَلَا يَجُوزُ التَّهَاوُنُ فِي حِفْظِ التَّفْسِيرِ الظَّاهِرِ بَلْ لَا بُدَّ مِنْهُ أَوَّلًا إِذْ لَا يَطْمَعُ فِي الْوُصُولِ إِلَى الْبَاطِنِ قَبْلَ إِحْكَامِ الظَّاهِرِ وَمَنِ ادَّعَى فَهْمَ أَسْرَارِ الْقُرْآنِ وَلَمْ يَحْكُمِ التَّفْسِيرَ الظَّاهِرَ فَهُوَ كَمَنِ ادَّعَى الْبُلُوغَ إِلَى صَدْرِ الْبَيْتِ قَبْلَ أَنْ يُجَاوِزَ الْبَابَ[٢]

---

(١) التفسير والمفسرون للذهبي ٢/ ٢٦٤

(٢) انظر الإتقان في علوم القرآن ٤/ ٢٢٦

فلما استوى الكلام في المعنى الظاهر على سوقه، وأحكمت أدوات فهم النص الظاهر، وترسخت علوم القرآن اللغوية النصية في أفئدة العلماء، وظهر التنسك والتزهد، فكان من علوم هذا التنسك والتعبد أن جمعوا كتبا يكتبون فيها كل آي من القرآن تذكرهم بما يقصدونه من تخلية القلب من كل قبيح، وملئه بكل صحيح، وأصابوا في ذلك وأخطأوا، فربما واتتهم الآية على ما يريدون، فعمد أحد المتنسكين وهو سهل بن عبد الله التستري(ت ٢٨٣ هـ) إلى جمع كتاب على هذه الطريقة، ولعله أول ما ظهر من التفاسير للصوفية على هذا المنهج قال فيه: (ما من آية في القرآن إلا ولها أربعة معان، ظاهر وباطن وحد ومطلع، فالظاهر التلاوة، والباطن الفهم والحد حلالها وحرامها والمطلع إشراف القلب على المراد بها فقها من الله عزوجل، فالعلم الظاهر علم عام، والفهم لباطنه والمراد به خاص)[١]

ثم تبعه أبو عبد الرحمن السلمي(ت ٤١٢) فأفرد لذلك تفسيرا وبين مراده منه بقوله (لما رأيت المتوسمين بعلوم الظاهر قد سبقوا في أنواع فرائد القرآن، من قراءات وتفاسير ومشكلات وأحكام وإعراب ولغة ومجمل ومفصل وناسخ ومنسوخ، ولم يشتغل أحد منهم بفهم الخطاب على لسان أهل الحقيقة[٢] إلا آيات متفرقة، أحببت أن أجمع حروفا أستحسنها من ذلك وأضم أقوال مشايخ أهل الحقيقة إلى ذلك وأرتبه على السور حسب وسعى وطاقتي)[٣]

وقد ظهر أيضا تفسير ثالث لعبد الكريم القشيري (ت ٤٦٥ هـ) سلك فيه هذا المسلك، قال عن الباعث لتأليفه:

---

(١) (تفسير القرآن العظيم) لسهل بن عبد الله، مطبعة السعادة، سنة ١٩٠٨م ص٦١

(٢) ولنا اعتراض على هذا القول؛ فالتفريق بين أهل العلم وأهل الحقيقة غلط، إذا تحقق أهل العلم بالعلم، فهم إذن أهل الحقيقة.

(٣) تفسير القرآن الكريم على الطريقة الصوفية، دراسة وتحقيق حقائق التفسير لأبي عبد الرحمن محمد بن الحسين الأزدي السلمى رسالة ماجستير، إعداد سلمان نصيف جاسم التكريتي، مكتبة كلية دار العلوم، جامعة القاهرة سنة ١٩٧٥م ص٢٢

(وكتابنا هذا يأتي على طرف من إشارات القرآن على لسان أهل المعرفة إما من معاني قولهم أو قضايا أصولهم، سلكنا فيه طريق الإقلال خشية الملال مستمدين من الله تعالى عوائد المنة، متبرئين من الحول والمنة مستعصمين من الخطأ والخلل، مستوثقين لأصوب القول والعمل)[(١)]

ولم يظهر في هذا النوع عند الصوفية حتى القرن الخامس، أهم من حقائق التفسير للسلمى، ولطائف الإشارات للقشيري وإن كان القشيري قد استفاد من السلمى فائدة كبرى واقتبس منه كثيرا من آرائه.

ثم يُنسب بعد ذلك تفسير إلى محي الدين بن عربي (ت ٦٣٨)، وهو على هذا النحو، مع غلو شديد وإبعاد في مذهب، حتى يكاد أن يكون تأويلا باطنيا، والصحيح أن هذا التفسير ليس له، ولكنه في الحقيقة للكاشاني السمرقندي، قال مؤلفه في مقدمته: (ما نزل من القرآن آية إلا ولها ظهر وبطن، ولكل حرف حد ومطلع، فالظهر هو التفسير، والبطن هو التأويل، والحد هو ما تتناهي إليه الفهوم من معنى الكلام، والمطلع ما يصعد إليه منه فيطلع على شهود الملك العلام)[(٢)]

ثم أتى بعد ذلك الشيخ ابن عجيبة(ت ١٢٢٤ه) بتفسيره (البحر المديد)، فمحضه أيضا لمثل هذا المنهج مع انضباط عنده، وفوائد جمة واستنباطات لطيفة، وتبعه الشيخ الألوسي(ت ١٢٧٠) بكتابه (روح المعاني)، وهو كتاب ماتع مليء بالنكات والإشارات، مع ملاحظات تؤخذ عليه، فهذه المؤلفات التفسيرية تمحَّضت في غالبها إلى هذا النوع من الاستنباط والاستخراج

وأما الذي نضيفه تعليقا على هذه الكتب هو أنها تضمنت التفسير، فتجدهم

---

(١) (لطائف الإشارات)، للقشيري، تحقيق الدكتور إبراهيم بسيوني، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثالثة، القاهرة، سنة ١٩٨١م، (١/ ٤١).

(٢) تفسير ابن عربي (١/ ٤) وانظر تحقيق نسبته في (تفسير المنار) (١/ ١٨)، ومحى الدين بن عربي مفسرا، إعداد حامد محمود الزفري، رسالة دكتوراه، بمكتبة كلية أصول الدين جامعة الأزهر القاهرة سنة ١٩٧٢م (ص١٧٤)

يقولون شيئا يحسبونه إشارة وهو مجرد تفسير، وقد سبق بيان ذلك في مبحث (تنازع التفسير والإشارة)، وتجد فيها التأويل أيضا وسبق بيان ذلك في مبحث (تنازع التأويل والإشارة)، وتجد فيها الشطحات، وهو النوع الذي لا يمت فيه المعنى المشار إليه للآية بصلة، وتجد فيها ما يشبه التفسير الباطني، إذ فيه مناقضة المعنى الظاهر، وسوف أذكر أمثلة لذلك عند التعرض لهذ الكتب تفصيلا. ولعل الله يوفقني أن أعمل على هذه الكتب كتابا كتابا أبين مقام كل قول فيها، ما بين تفسير وتأويل وإشارة وشطح. . . الخ، عسى الله أن يجعلنا من خدام كتابه، المبينين مراده من خطابه، والله المستعان، وعليه التكلان.

* * *

أهم المصادر التي اختصت بالإشارات

ونشير في هذا الفصل إلى الكتب التي نص أهلها على أنهم محضوها للإشارات، سواء بالقال أو بالحال، لنعرف أحوالهم ونذكر بعض الملاحظات في تفاسيرهم، وكما سبق أن بينت أن كل كتاب منس هذه الكتب يحتاج إلى رسالة علمية متخصصة، لتبين المقبول منه والمردود، لكن هنا نشير إلى رؤوس أقلام، بضرب أمثلة لهذا الكلام، والله هو العليم العلام، ولعلَّ من أهم ما نشير إليه، أن كل هذه الكتب هي لمشايخ من الصوفية، ولعل هذا مما ألصق هذا النوع من العلم بهم، وجعله حكرا عليهم، وصحيح أن كتب التفسير الأخرى لم تخل من الإشارات، لكن يبقى دين على الأمة في حق القرآن لم يُسد إلى الآن، وهو أنه لم يكتب-إلى الآن كتاب كامل يعتني بالإشارات في القرآن الكريم، بل كل الذي كتب فيه ما فيه من الطامات والباطنيات والمعارضة للنصوص الظاهرة كثير، مما يجعلنا نقول أن هذا دين لم يوفى بعد، ولعل الله ييسر لنا ببركة دعوة أحد قراء كتابنا هذا، فيرفع عنا الأشغال والأحمال ويوفقنا لبيان القرآن كله على طريق الإشارة، والله على كل شيء قدير، وهو بالإجابة جدير.

* * *

المبحث الأول

تفسير القرآن العظيم (للتسترى)

التعريف بمؤلف هذا الكتاب:

مؤلف هذا الكتاب هو سهل بن عبد الله بن يونس أبو محمد التستري، شيخ العارفين الصوفي الزاهد، له كلمات نافعة، ومواعظ حسنة؛ وقدم راسخ في الطريق، المولود بتُسْتَر سنة ٢٠٠ هـ (مائتين) وقيل سنة ٢٠١ (إحدى ومائتين من الهجرة)

كان من كبار العارفين، ولم يكن له في الورع نظير. وكان صاحب كرامات ولقى الشيخ ذا النون المصري بمكة. وكان له اجتهاد وافر ورياضة عظيمة. أقام بالبصرة زمناً طويلاً، وتوفى بها سنة ٢٨٣ هـ (ثلاث وثمانين ومائتين)، قيل سنة ٢٧٣ هـ (ثلاث وسبعين ومائتين)، فرحمه الله رحمه واسعة[١]

وللشيخ محمد حسين الذهبي كلام في كتاب (سهل بن عبد الله)، نوافقه عليه، يقول:

هذا التفسير مطبوع في مجلد صغير الحجم، ولم يتعرَّض فيه مؤلفه لتفسير القرآن آية آية، بل تكلم عن آيات محدودة ومتفرقة من كل سورة. ويظهر لنا أن سهلاً - رضى الله عنه - لم يؤلف هذا الكتاب، وإنماهي أقوال قالها سهل في آيات متفرقة من القرآن الكريم، ثم جمعها أبو بكر محمد بن أحمد البلدي، المذكور في أول الكتاب، والذى يقول كثيراً: قال أبو بكر: سئل سهل عن معنى

---

(١) التفسير والمفسرون ٢/ ٢٨١

كذا. فقال كذا، ثم ضمنها هذا الكتاب ونسبها إليه. [١]

نقرأ في هذا الكتاب، فنجد مؤلفه يقدم له بمقدمة يوضح فيها معنى ظاهر القرآن وباطنه، ومعنى الحد والمطلع، فيقول: "ما من آية في القرآن إلا ولها أربعة معان: ظاهر، وباطن، وحد، ومطلع. فالظاهر: التلاوة، والباطن: الفهم، والحد: حلالها وحرامها. والمطلع: إشراق القلب على المراد بها. فقهاً من الله ﷻ. فالعلم الظاهر علم عام، والفهم لباطنه والمراد به خاص. . قال تعالى في الآية [٧٨] من سورة النساء: {فَمَالِ هؤلاء القوم لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً}: أي لا يفقهون خطاباً".

ويقول في موضع آخر: قال سهل: إن الله تعالى ما استولى ولياُ من أُمة محمد ﷺ إلا علَّمه القرآن، إما ظاهراً وإما باطناً. قيل له: إن الظاهر نعرفه فالباطن ما هو؟ قال: فهمه، وإن فهمه هو المراد".

فمن هاتين العبارتين، نأخذ أن سهلاً التستري يرى: أن الظاهر هو المعنى اللُّغوي المجرَّد، وأن الباطن هو المعنى الذى يُفهم من اللَّفظ ويريده الله تعالى من كلامه. . كما نأخذ منه: أنه يرى أن المعاني الظاهرة أمر عام يقف عليها كل مَن يعرف اللِّسان العربي، أما المعاني الباطنة، فأمر خاص يعرفه أهل الله بتعليم الله إياهم وإرشادهم إليه.

كذلك نجد سهلاً - رضى الله عنه - لم يقتصر في تفسيره على المعاني الإشارية وحدها، بل نجده يذكر أحياناً المعاني الظاهرة، ثم يعقبها بالمعاني

---

(١) ومما يؤكد ذبك وجود أحداث وقعت بعد وفاته، كقصة عمرو بن الليث الذي توفي بعده بست سنوات، أي سنة ٢٨٩ ، وعلاوة على ذلك فيه شرح لبعض أقواله. وما أكثر ما يرد فيه: (وسئل سهل)، و (قيل له)، و (قلت لسهل)، و (سمعته يقول). . . إن وجود مثل هذه الأخبار والأقوال في هذا التفسير يدل بلا شك على أن التستري لم يضع بنفسه هذا التفسير، ومع ذلك فإن ما فيه من أقوال وآراء يمثل بصدق أقواله وآراءه خير تمثيل، وتتجلى مصداقية ذلك في أن هذه الأقوال والآراء يمكن توثيقها من مصادر صوفية أخرى

الإشارية، وقد يقتصر أحياناً على المعنى الإشاري وحده، كما يقتصر أحياناً على المعنى الظاهري، بدون أن يعرج على باطن الآية.

وحين يعرض سهل للمعاني الإشارية لا يكون واضحاً في كل ما يقوله، بل تارة بالمعاني الغريبة التي نستبعد أن تكون مرادة لله تعالى، وذلك كالمعاني التي نقلناها عنه سابقاً في معنى البسملة، و "آلم" فاتحة البقرة، وتارة يأتي بالمعاني الغريبة التي يمكن أن تكون من مدلول اللَّفظ أو مما يشير إليه اللَّفظ، وذلك هو الغالب في تفسيره[1].

***منهج المؤلف في كتابه**

لكن المتتبع لهذا الكتاب يجد فيه من المعاني الحسنة شيئا جيدا كقوله تعالى (فَبِما رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا باللسان غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ)

قوله: فَبِما رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ [١٥٩] يعني بتعطف من الله لنت لهم وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا [١٥٩] باللسان غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ [١٥٩] أي لتفرقوا من عندك فَاعْفُ عَنْهُمْ [١٥٩] أي تجاوز عن زللهم وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ [١٥٩] هزيمتهم يوم أحد، وَشاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ [١٥٩] أي لا تبعدهم بالعصيان عنك واشملهم بفضلك فإنك بنا تعفو وبنا تستغفر وإيانا تطالع، فَإِذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ [١٥٩] أي إذا أردت إمضاءه بعد المشورة فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ [١٥٩] أي ثق بالله مع ذلك، وفوض إليه جميع أمورك، وافتقر إليه دون غيره فلم يخرج من الدنيا حتى كشف الله تعالى في قلبه العلوم التي كانت بينه وبين الله تعالى بلا واسطة فيها، لما كان يجب من النظر والتفكر اعتباراً بقدرة ربه، كي ينال المزيد من الله تعالى كما أمره بقوله تعالى: وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً [طه: ١١٤] وقد حث على ذلك أمته بما روي عنه ﷺ أنه قال: «شاوروا المتقين الذين يؤثرون الآخرة على

(١) التفسير والمفسرون ٢/ ٢٨١

الدنيا ويؤثرون على أنفسهم في أموركم». وقال: «شاوروا العلماء الصالحين فإذا عزمتم إلى إمضاء ذلك فتوكلوا على الله». وقال: آخِ من الإخوان أهل التقى، واجعل مشورتك من يخاف الله تعالى، ولا يكن كلامك بدلاً، ولا تعادين أحداً أبداً حتى تعلم كيف صنعه بينه وبين الله تعالى، فإن كان حسن الصنيع فلا تعادينه، فإن الله تعالى لا يكله إليك، وإن كان سيئ الصنيع فلا تعادينه، فإن الصنيع السوء يكفيه. وقال: من استشير فأشار بغير رأيه سلبه الله تعالى رأيه يعني غشه فيما أشار به عليه، وقال: من شاور واتكل في إمضاء ما عزم ثم ندم فقد اتهم الله تعالى.[1]

وغالب هذا النقل تفسير وتأويل لا إشارة، لكنها معان مقبولة جيدة.

ومن أمثلة التأويل عنده، قوله عند قول الله تعالى: لَهُمْ دارُ السَّلامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٧)

قوله: لَهُمْ دارُ السَّلامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ [١٢٧] قال: يعني سلم فيه من هواجس نفسه ووساوس عدوه[2]

وفيه من الشطحات ما قاله مثلا عند قول الله تعالى [وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً وَبِذِي الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينِ وَالْجارِ ذِي الْقُرْبى وَالْجارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ مَنْ كانَ مُخْتالاً فَخُوراً (٣٦)

قوله: وَالْجارِ ذِي الْقُرْبى وَالْجارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ [٣٦] قال: أما ظاهرها فالجار الجنب: البعيد الأجنبي، والصاحب بالجنب: هو الرفيق في السفر، وقد قيل الزوجة، وابن السبيل: الضيف، أما باطنها فالجار ذو القربى هو القلب، والجار الجنب هو الطبيعة، والصاحب بالجنب هو العقل

(١) تفسير التستري ص ٥١

(٢) تفسير التستري ص ٦٣

المقتدي بالشريعة، وابن السبيل هو الجوارح المطيعة لله، هذا باطن الآية. [١]

ولاشك أن قوله غلط من وجهين، الأول: أن المعنى الباطن هنا يناقض المعنى الظاهر، ولا جامع بينهما برابط، ولا إسناد، الثاني: أنه هنا يفسر لا يشير، وهو تفسير خلاف الإجماع، وهذا ليس تجرء مني على مقامه بل سبق العلماء إلى إنكار مثل هذا القول، كابن الجوزي مثلا، فقد أنكر ذلك غاية الإنكار عليه[٢]

ومما يلاحظ أيضا أنه كلما بعد عن التفسير الظاهر، أو عن تأويل، فإنه يذهب كل مذهب في مثل هذه الشطحات، بقياسات تمثيلية لا تمت للآية بصلة، مثلا عند قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكانُوا شِيَعاً [١٥٩] قال: المحجوب الذي يسلط الله عليه عدوه، لا يجول قلبه في الملكوت، ولا تظهر له القدرة، ولا يشاهد الله، والقلب القاسي أن يكله الله إلى تدبيره وأسبابه، وإنما مثل ميل القلب اللسان إذا تكلم اللسان بشيء لم يتكلم بغيره كذلك القلب إذا هم بشيء لم يكن معه غيره، والله سبحانه وتعالى أعلم. [٣]

ولا أدري ما علاقة هذا بالآية، والله أعلم.

ومن أمثلة قياساته التمثيلية التي لا يربطها بالنص رابط، عند تفسيره لقوله تعالى في الآية [١٤٨]: {واتخذ قَوْمُ موسى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ} يقول ما نصه: «عجل كل إنسان مَا أقبل عَلَيه فأعرض به عن الله من أهل وولد، ولا يتخلص من ذلك إلا بعد إفناء جميع حظوظه من أسبابه، كما لم يتخلص عَبَدة العجل من عبادته إلا بعد قتل النفوس». [٤].

* * *

(١) تفسير التستري ص ٥٣

(٢) انظر تلبيس إبليس لابن الجوزي

(٣) تفسير التستري ص ٦٤

(٤) تفسير التستري ص ٧٥

المبحث الثاني

حقائق التفسير (للسلمى)

التعريف بمؤلف هذا التفسير:

مؤلف هذا التفسير، هو أبو عبد الرحمن، محمد بن الحسين بن موسى، الأزدي السلمى، المولود سنة ٣٣٠ هـ (ثلاثين وثلاثمائة من الهجرة)، وقيل غير ذلك.

كان شيخ الصوفية وعالمهم بخراسان، له اليد الطولى في التصوف، والعلم الغزير، والسير على سنن السَلَف، أخذ الطريق عن أبيه، فكان موفقاً في جميع علوم الحقائق ومعرفة طريق التصوف. وكان على جانب عظيم من العلم بالحديث، حتى قيل: إنه حدَّث أكثر من أربعين سنة إملاءً وقراءة. وكتب الحديث بنيسابور، ومرو، والعراق، والحجاز، وصنّف سننًا لأهل خراسان، وأخذ عنه بعض الحفَّاظ: منهم الحاكم أبو عبد الله، وأبو القاسم القشيري، وغيرهما، ولقد خلَّف من الكتب ما يزيد على المائة: منها ما هو في علوم التصوف، ومنها ما هو في التاريخ، ومنها ما هو في الحديث، ومنها ما هو في التفسير.

وقد كانت وفاته سنة ٤١٢ هـ (اثنتى عشرة وأربعمائة من الهجرة)، فرحمه الله رحمة واسعة.

منهج المؤلف في هذا الكتاب

وللتعرف على منهج المؤلف نسوق أولا كلمة له في المقدمة تبين لنا مراده، فهو خير من يفصح عن نفسه بقوله: قال: «.. لما رأيت المتوسمين بالعلوم

الظواهر سبقوا في أنواع فرائد القرآن: من قراءات، وتفاسير، ومشكلات، وأحكام، وإعراب، ولغة، ومجمل، ومفسر، وناسخ، ومنسوخ، ولم يشتغل أحد منهم بجمع فهم خطابه على لسان الحقيقة إلا آيات متفرقة، نُسبت إلى أبى العباس ابن عطاء، وآيات ذُكِر أنها عن جعفر بن محمد، على غير ترتيب، وكنت قد سمعت منهم في ذلك حروفاً استحسنتها، أحببت أن أضم ذلك إلى مقالتهم، وأضم أقوال مشايخ أهل الحقيقة إلى ذلك، وأرتبه على السور حسب وسعى وطاقتي، واستخرتُ الله في جمع شيىء من ذلك، واستعنتُ به في ذلك وفى جميع أُمورى، وهو حسبى ونعم المعين».

إذن فكتابه مقتصر على الإشارات، ممحض لها، مختص بها، لكن ترى فيه شطحا كثيرا، ومعاني لا ترتبط بالنص الظاهر ولا تسند إليه وسوف آتيك بطرف منها، يدلك على ما ورائها.

وهذا الرأي لم أبتدعه أيضا من عند نفسي بل سبقني الإمام الحافظ السيوطي رضى الله عنه فذكر أبا عبد الرحمن السلمى في كتابه «طبقات المفسرين» ضمن من صَنَّف في التفسير من المبتدعة ويقول: «وإنما أوردته في هذا القسم لأن تفسيره غير محمود». [1]

وهذا عجب عجاب، فالسيوطي وهو حامل لواء التصوف في عصره يجعل هذا التفسير تفسيرا بدعيا، فكأنه لا يرتضيه مطلقا، بل نص على ذلك.

بل سبقني وسبق السيوطي حافظ الدنيا، ومؤرخ الإسلام، الحافظ الذهبي رضى الله عنه بقوله عن تفسير السلمى: «. . وله كتاب يقال له حقائق التفسير، وليته لم يُصَنِّفه. فإنه تحريف وقرمطة، ودونك الكتاب فسترى العجب»[2]

فهذه إحالة من مؤرخ الإسلام، وحافظ الدنيا، الإمام الذهبي، لك على هذا

(١) طبقات المفسرين للسيوطي ص ٩٨

(٢) انظر طبقات المفسرين للسيوطي ص ٩٨

الكتاب، لترى فيه الطوام، والمصايب العظام، لما فيه من التحريف والتبديل.

وهذا الإمام السبكي الصوفي الشافعي يقول عنه أيضا: "وكتاب حقائق التفسير، كثر الكلام فيه من قِبَل أنه اقتصر فيه على ذكر تأويلات، ومحال للصوفية ينبو عنها اللَّفظ"(١).

بل سبق الجميع الإمام أبو الحسن الواحدي بقوله: "صَنَّف أبو عبد الرحمن السلمى حقائق التفسير، فإن كان اعتقد أن ذلك تفسير فقد كفر"(٢).

وهذا هو الإمام ابن تيمية يطعن على تفسير السلمى من ناحية أخرى فيقول: «وما يُنقل في حقائق السلمى عن جعفر الصادق عامته كذب على جعفر كما قد كذب عليه في غير ذلك». (٣)

وبعد هذا العرض المستفيض، وكلمة العلماء مجتمعة على التحذير من هذا الكتاب، وأن ملئه أباطيل وأكاذيب على جعفر الصادق، وجدنا الشيخ محمد حسين الذهبي في كتابه (التفسير والمفسرون) يحاول أن ينتصر لهذا الكتاب انتصار عاريا عن أي دليل، فراح ينتقد السيوطي والذهبي والواحدي، ويقول أنها تأويلات للصوفية!! ولعمر الله أي تأويلات إذا كانت تأويلات سمجة باطلة سيئة تهدم الدين، وتنقض القرآن، أنقبلها لأنها تأويلات للصوفية؟!

أهذا هو المستند الذي نقبلها لأجله، والحق أن هذا الكتاب حشي بالكذب، والقرمطة، والباطنية، ولا ندري كيف دخلت هذه الأشياء على السلمي وهو من هو في جلالته !

وهنا سوف أذكر أمثلة من الشطحات هي أحسن ما في كتابه، فكيف بغيرها!

وهذه الأمثلة التي نذكرها هي شطحات لاشك، لكنها خير شطحات في

(١) طبقات الشافعية ٤/ ١٤٧

(٢) انظر الإتقان ٤/ ٢٤٥

(٣) منهاج السنة النبوية ٨/ ٤٣

كتابه، وإلا فكتابه من أسوأ ما كتب في الباب

فمثلا يقول في سورة الرعد عند قوله تعالى في الآية [٣]: {وَهُوَ الذي مَدَّ الأرض وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ}. . يقول: "قال بعضهم: هو الذى بسط الأرض وجعل فيها أوتاداً من أوليائه وسادة من عبيده فإليهم الملجأ، وبهم النجاة، فمَن ضرب في الأرض يقصدهم فاز ونجا، ومَن كان بغيته لغيرهم خاب وخسر. سمعت عليّ بن سعيد يقول: سمعت أبا محمد الحريري يقول: كان في جوار الجنيد إنسان مصاب في خربة؛ فلما مات الجنيد وحملنا جنازته حضر الجنازة، فلما رجعنا تقدم خطوات وعلا موضعاً من الأرض عالياً، فاستقبلني بوجهه وقال: يا أبا محمد؛ إني لراجع إلى تلك الخربة وقد فقدت ذلك السيد، ثم أنشد شعراً:

وما أسفى من فراق قوم. . . هم المصابيح، والحصون

والمدن، والمزن، والرواسي. . . والخير، والأمن، والسكون

لم تتغير لنا الليالي. . . حتى توفتهم المنون

فكل جمر لنا قلوب. . . وكل ماء لنا عيون»(١)

فبالله قل لي ما الجامع بين مد الأرض، وبين الأولياء!! وما مناسبة ذكر الأولياء هنا !!!

هذا وهذه أخف البلايا، وخير الرزايا!!

وفى سورة الحج عند قوله تعالى في الآية [٦٣]: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله أَنزَلَ مِنَ السماء مَاءً فَتُصْبِحُ الأرض مُخْضَرَّةً}. . يقول: قال بعضهم: أنزل مياه الرحمةَ من سحائب القُربة، وفتح إلى قلوب عباده عيوناً من ماء الرحمة، فأنبتت فاخضرت بزينة المعرفة، وأثمرت الإيمان، وأينعت التوحيد. أضاءت بالمحبة فهامت٠ إلى سيدها، واشتاقت إلى ربها فطارت بهمتها، وأناخت بين يديه، وعكفت فأقبلت

(١) حقائق التفسير ص ١٣٨

عليه، وانقطعت عن الأكوان أجمع، ذاك آواها الحق إليه، وفتح لها خزائن أنواره، وأطلق لها الخيرة في بساتين الأُنس، ورياض الشوق والقدس"(١).

هذه المعاني التي ذكرها معان صالحة في نفسها، لكن ما علاقتها بالنص الظاهر؟! وبأي إسناد أسندت إليه ؟! ليس ثم إلا الشطح.

وفى سورة الرحمن عند قوله تعالى في الآية [١١]: {فِيهَا فَاكِهَةٌ والنخل ذَاتُ الأكمام}. . يقول: «قال جعفر: جعل الحق تعالى في قلوب أوليائه رياض أُنسه، فغرس فيها أشجار المعرفة، أُصولها ثابتة في أسرارهم، وفروعها قائمة بالحضرة في المشهد، فهم يجنون ثمار الأُنس في كل أوان، وهو قوله تعالى: {فِيهَا فَاكِهَةٌ والنخل ذَاتُ الأكمام} أي ذات الألوان، كل يجتنى منه لوناً علَى قدر سعته، وما كوشفت له من بوادي المعرفة وآثار الولاية»(٢).

وأظنك لا يخفاك التخالف والتناقض بين المعنى الظاهر والمعنى الذي يقوله، ولا رابط لهذا بالآية.

وفى سورة الانفطار عند قوله تعالى في الآيتين [١٣، ١٤]: {إِنَّ الأبرار لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الفجار لَفِي جَحِيمٍ}. . يقول: «قال جعفر: النعيم المعرفة والمشاهدة، والجحيم النفوس، فإن لها نيران تتقد»(٣)

* * *

(١) حقائق التفسير ص ٢١٢

(٢) حقائق التفسير ص ٣٤٤

(٣) حقائق التفسير ص ٣٨٥

المبحث الثالث

لطائف الإشارات (للقشيري)

التعريف بصاحب هذا التفسير

الإمام، الزاهد، القدوة، الأستاذ، أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة القشيري، الخراساني، النيسابوري، الشافعي، الصوفي، المفسر، صاحب (الرسالة)

مولد: سنة خمس وسبعين وثلاث مائة[1] عانى الفروسية والعمل بالسلاح حتى برع في ذلك، ثم تعلم الكتابة والعربية، وجود، ثم سمع الحديث، وتفقه، وتقدم في الأصول والفروع، وصحب العارف أبا علي الدقاق، وتزوج بابنته، وجاءه منها أولاد نجباء، صار شيخ خراسان في التصوف، ولزم المجاهدات، وتخرج به المريدون، وكان عديم النظير في السلوك والتذكير، لطيف العبارة، طيب الأخلاق، غواصا على المعاني[2]

توفّي رحمه الله فِي صَبِيحَة يَوْم الْأَحَد السَّادِس عشر من شهر ربيع الآخر سنة خمس وَسِتِّينَ وَأَرْبَعمِائَة وَدفن فِي الْمدرسَة إِلَى جَانب أستاذه أبي عَليّ الدقاق[3]

ولقد أثنى العلماء على كتابه في الإشارات حتى وصفه الإمام الذهبي بأنه من

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٨/ ٢٢٧

(٢) انظر سير أعلام النبلاء ١٨/ ٢٩٩

(٣) طبقات الشافعية ٥/ ١٥٩

أنفس التفاسير[١]

ويقول عنه السبكي في طبقاته: وَمن تصانيف الْأُسْتَاذ التَّفْسِير الْكَبِير وَهُوَ من أَجود التفاسير[٢]

منهجه في كتابه:

«لطائف الإشارات» سفر نفيس كتبه صاحبه محاولا أن يجد في آيات الكتاب ما يشير إلى علوم السلوك والتصوف، وحاول في كتابه ألا يحدث تناقضا بين مراده، ومراد الآية في السياق، علوم الشريعة، وعلم الحقيقة(علم التصوف) (فكل شريعة غير مؤيدة بالحقيقة فغير مقبول، وكل حقيقة غير مقيدة بالشريعة فغير محصول)[٣]

وبالفعل، يعتبر القشيري في تطبيقاته خير من تناول الإشارة في القرآن الكريم، بل إنه من أفضل الأعمال التي أنتجتها قرائح الصوفية في شتى العصور، غير أنه كما سبق أن بينت يحتوي كثيرا من مقامات التفسير على أنها إشارات، وكثيرا من التأويلات، وفيه أيضا إشارات ماتعة، ومع ذلك لم يخل من تلك الشطحات، والقياسات العجيبة الغريبة، لكنه لا شك أقل مما في غيره، بل لم يخل من الآراء التي تناقض المعنى الظاهر، بل تكر عليه بالفساد والبطلان، وإليك مثالا مباشرا، ما قاله عند قوله تعالى(ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون (١٧٩)

في استيفاء القصاص حياة لأنه إذا علم أنه إذا قتل قتل أمسك عن القتل وفى ذلك حياة القاتل والمقتول.

ولكن ترك القصاص- على بيان الإشارة- فيه أعظم الحياة لأنه إذا تلف فيه (سبحانه) فهو الخلف عنه، وحياته عنه أتم له من بقائه بنفسه، وإذا كان الوارث

(١) سير أعلام النبلاء ١٨/ ٢٢٧

(٢) طبقات الشافعية ٥/ ١٥٩

(٣) الرسالة القشيرية ص ٤٦

عنهم الله والخلف عنهم الله فبقاء الخلف أعز من حياة من ورد عليه التلف. [١]

ولا شك أن ما يقوله من ترك القصاص هو ناقض لقوله تعالى(ولكم في القصاص حياة)، وليس هو العفو الذي أمر الله به بعد هذه الآية، فهو هنا يزعم استنباط ترك القصاص من آية القصاص، وهو محض غلط، يكر على معنى الآية بالبطلان.

وفيه أيضا من القياسات غير المرتبطة بالآية شيء كثير، وهو بحاجة إلى دراسة بل دراسات، إذ إن أكثر الكتاب تأويلات بعموم اللفظ ثم تخصيصها بمصطلحات صوفية

وأحب أن أمثل لهذه الفكرة الدقيقة ببعض الأمثلة فتتضح،

يقول عند قوله تعالى (لينذر بأسا شديدا من لدنه] «والبأس الشديد»: معجله الفراق، ومؤجله الاحتراق. [٢]

ويقال هو البقاء عن الله تعالى، والابتلاء بغضب الله.

ولا شك أن البأس في اللغة هو العذابُ[٣]، وهنا السياق يدل على النبي ﷺ جاء يحذر قومه من عذاب الله إن هم عصوه ولم يوحدوه ويعبدوه، لكنه يأخذ هذا المعنى العام الذي هو (العذاب)، ليوظفه بخصوصه المشهور عند أهل التصوف فيقول أن العذاب هنا معناه (الفراق) عن الله ونظره، والاحتراق بنار الآخرة، ولاشك أن هذا من أنواع العذاب، ويصدق أن يطلق عليه عذابا، لكنه أطلق ما يرونه العذاب عندهم، وهو أسلوب مطرد عنده في كتابه، وهو بحاجة أن يفرد ببحث، وتعرض أمثلته على القواعد العلمية، وأذكر أيضا أمثلة أخرى لتتضح الفكرة،

---

(١) لطائف الإشارات ١/ ١٥١

(٢) لطائف الإشارات ٢/ ٣٧٦

(٣) انظر الصحاح ٣/ ٣٠٩

عند قول الله تعالى: [فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون]

ومعلوم أن من ذكر الله ذكره الله بالعطاء والكرم، وكل أنواع الذكر لكننا نجد القشيري يقول: وطريقة أهل الإشارة (فاذكروني) بترك كل حظ (أذكركم) بأن أقيمكم بحقي بعد فنائكم عنكم.

(فاذكروني) مكتفين بي عن عطائي وأفضالي (أذكركم) راضيا بكم دون أفعالكم.

(فاذكروني) بذكرى لكم ما تذكرون، ولولا سابق ذكرى لما كان لاحق ذكركم.

(فاذكروني) بقطع العلائق (أذكركم) بنعوت الحقائق.[١]

وينبغي أن تفرد دراسات علمية، تمحص هذا الكتاب على أساس ما بيناه في الدراسة المصطلحية التي أرسيناها وأصَّلناها.

* * *

(١) لطائف الإشارات ١/ ١٣٧

المبحث الرابع

عرائس البيان في حقائق القرآن (لأبى محمد الشيرازى)

التعريف بمؤلف هذا الكتاب

مؤلف هذا التفسير هو أبو محمد روزبهان بن أبى النصر، البقلي، الشيرازي الصوفي، المتوفى سنة ٦٦٦هـ (ستة وستون وستمائة من الهجرة النبوية).

التعريف بهذا التفسير:

جرى مؤلف هذا التفسير على نمط واحد وهو التفسيرات الباطلة، والتحريفات الغالطة، ولم يتعرض للتفسير الظاهر بحال، يدل على ذلك قوله في المقدمة: "ولما وجدتُ أن كلامه الأزلي لا نهاية له في الظاهر والباطن، ولم يبلغ أحد إلى كماله وغاية معانيه، لأن تحت كل حرف من حروفه بحراً من بحار الأسرار، ونهراً من أنهار الأنوار، لأنه وصف القديم، وكمال لا نهاية لذاته ولا نهاية لصفاته. . قال الله تعالى: {وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأرض مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ والبحر يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ الله} [لقمان: ٢٧]، وقال: {قُل لَّوْ كَانَ البحر مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ البحر قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي} [الكهف: ١٠٩]، فتعرضتُ أن أغرف من هذه البحور الأزلية غرفات من حكم الأزليات، والإشارات والأبديات، التي تقصر عنها أفهام العلماء وعقول الحكماء، اقتداءً بالأولياء، وأُسوة بالخلفاء، وسُنَّة للأصفياء، وصنَّفتُ في حقائق القرآن، ولطائف البيان، وإشارة الرحمن في القرآن، بألفاظ لطيفة وعبارات شريفة، وربما ذكرت تفسير آية لم يفسِّرها المشايخ، ثم أردفتُ بعد قولي أقوال مشايخي مما عباراتها ألطف، وإشاراتها أظرف ببركاتهم، وتركتُ كثيراً منها ليكون كتابي أخف محملاً وأحسن تفصيلاً،

واستخرتُ الله تعالى في ذلك، واستعنتُ به، ليكون موافقاً لمراده، ومواطئاً لسُنَّة رسوله وأصحابه وأولياء أُمَّته، وهو حسبي وحسب كل ضعيف. . وسميته بـ «عرائس البيان في حقائق القرآن». . . إلخ. (١)

فأنت ترى من هذه المقدمة أن صاحبنا يريد موافقة مراد الله، ويدندن حول الصحابة بالموافقة، ويذكر أن ما ذكره في كتابه ما هو إلا سوانح سنحت له من حقائق القرآن، وإشارات تجلَّت له من جانب الرحمن، كما ترى فيها وصفة لكتابه والمسلك الذى سلكه فيه،

ولكنه سلك مسالك ردية، وقال مقالات سيئة، وضرب بالمعاني الظاهرة عرض الحائط، وسأذكر أحسن ما في كتابه على سوءه..

وإليك بعض ما جاء في هذا التفسير:

في سورة التوبة عند قوله تعالى في الآية [٩١]: {لَّيْسَ عَلَى الضعفاء وَلاَ على المرضى وَلاَ عَلَى الذين لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ}. . يقول: «وصف الله زُمرة أهل المراقبات، ومجالس المحاضرات، والهائمين في المشاهدات. والمستغرقين في بحار الأزليات، الذين أنحلوا جسومهم بالمجاهدات، وأمرضوا نفوسهم بالرياضات، وأذابوا قلوبهم بدوام الذكر، وجولاتها في الفكر، وخرجوا بعقائدهم الصافية، عن الدنيا الفانية بمشاهدته الباقية، بأن رفع عنهم بفضله حَرَج الامتحان، وأبقاهم في مجلس الأُنس ورياض الإيقان، وقال: {لَّيْسَ عَلَى الضعفاء} يعنى الذين أضعفهم حمل أوقار المحبة، {وَلاَ على المرضى} الذين أمرضهم مرارة الصبابات، {وَلاَ عَلَى الذين لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ} الذين يتجردون عن الأكوان بتجريد التوحيد وحقائق التفريد، {حَرَجٌ}: عتاب من جهة العبودية والمجاهدة، لأنهم مقتولون بسيف المحبة، مطروحون بباب الوصلة، ضعفهم

(١) عرائس البيان ١/ ٢-٣

من الشوق، ومرضهم من الحب، وفقرهم من حسن الرضا»[١]

ولا يخفاك ما في هذا القول من التحريف، والتخريف، ولا يحتاج بطلان هذا الكلام لشيء يبطله.

ولا أعجب إن أردت عجبا، هذا الهتر الذي قاله: عند قوله تعالى في الآيتين [٢٠، ٢١]: {وَتَفَقَّدَ الطير فَقَالَ مَالِيَ لاَ أَرَى الهدهد أَمْ كَانَ مِنَ الغائبين * لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ}. . يقول: «إن طير الحقيقة لسليمان طير قلبه فتفقده ساعة، وكان قلبه غائباً في غيب الحق، مشغولاً بالمذكور عن الذكر، فتفقده وما وجده. فتعجب من شأنه. . أين قلبه إن لم يكن معه؟. . فظن أنه غائب عن الحق وكان في الحق غائباً، وهذا شأن غيبة أهل الحضور من العارفين ساعات لا يعرفون أين هم، وهذا من كمال استغراقهم في الله، فقال: {لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ}: لأُعذبنه بالصبر على دوام المراقبة والرعاية، وألقينه في بحر النكرة من المعرفة، ليفنى ثم يفنى عن الفناء، أو أذبحنه بسيف المحبة أو بسيف العشق، أو ليأتيني من الغيب بسواطع أنوار أسرار الأزل..»[٢]

ولعل هذه المضحكات المبكيات، تبعث النشاط لطالب علم حتى يفرد له بحثا، يتحفنا بهذه التأويلات الفاسدة الكاسدة، ويطابقها بقواعدنا، ويميز الخبيث من الطيب إن وجد فيه طيب، بل ملئه هذا الشطح والنطح، ونعوذ بالله أن نتجرأ على مراد، وخطابه.

* * *

(١) عرائس البيان ١/ ٣٣٩

(٢) عرائس البيان ٢/ ٨١٣

التأويلات النجمية
(لنجم الدين داية، وعلاء الدولة السمناني)

التعريف بمؤلفي هذا التفسير:

أَلَّف هذا التفسير نجم الدين داية، ومات قبل أن يتمه، فأكمله من بعده علاء الدولة السمناني، إذن فقد اشترك نجم الدين داية وعلاء الدولة السمناني في هذا التفسير، وإذن لزم الكلام عن حياة كل من الشيخين.

أما نجم الدين داية:

فهو الشيخ نجم الدين، أبو بكر بن عبد الله بن محمد بن شاهادر الأسدي الرازي المعروف بـ «داية»، المتوفى سنة ٦٥٤هـ (أربع وخمسون وستمائة من الهجرة).

كان من خيار الصوفية «أخذ الطريق عن شيخه نجم الدين أبى الجناب المعروف بالبكري، وكان مقيماً أول أمره بخوارزم، ثم خرج منها أيام حروب جنكيز خان إلى بلاد الروم، وهناك لقى صدر الدين القنوي وأخذ عنه، ويقال: إنه استشهد في حروب جنكيز خان، كما يقال إنه مدفون بالشونزية ببغداد، قرب السرى السقطي والجنيد»[٣].

وأما علاء الدولة السمناني:

فهو أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد السمناني، البيانانكي، الملقب بعلاء الدولة، وركن الدين، والمولود سنة ٦٥٩ هـ (تسع وخمسين وستمائة). تفقه

---

(٣) التفسير والمفسرون ٢/ ٣٧٦

وطلب الحديث على كثير من شيوخ عصره، حتى برع في العلم، قال الذهبي: «كان إماماً جامعاً. كثير التلاوة، وله وقع في النفوس، وكان يحط على ابن عربي ويُكَفِّره، وكان مليح الشكل، حسن الخُلُق، غزير الفتوة، كثير البر، يحصل له من أملاكه نحو تسعين ألفاً فينفقها في القرب. أخذ عن صدر الدين بن حمويه، وسراج الدين القزويني، وإمام الدين بن عليّ مبارك البكري. وذكر أن مصنفاته تزيد على ثلاثمائة».

وكان قد دخل بلاد التتار، ثم رجع وسكن تبريز وبغداد، ومات في رجب سنة ٧٣٦ هـ (ست وثلاثين وسبعمائة من الهجرة)[١].

التعريف بهذا التفسير

يقول الشيخ محمد حسين الذهبي: يقع هذا التفسير في خمس مجلدات كبار، ومنه نسخة مخطوطة بدار الكتب، وهى التي رجعنا إليها. ينتهى المجلد الرابع عند قوله تعالى في الآيتين [١٧، ١٨] من سورة الذاريات: {كَانُواْ قَلِيلاً مِّن الليل مَا يَهْجَعُونَ * وبالأسحار هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ}. . وهذا هو نهاية ما وصل إليه نجم الدين داية في تفسيره، أما المجلد الخامس، فهو تكملة لهذا التفسير، كتبه علاء الدولة وجعله تتمة لكتاب نجم الدين داية، وقد قدَّم لهذه التكملة بمقدمة طويلة لا يفهمها إلا من [ابتلي بأباطيله وأسماره][٢]، فسَّر الفاتحة على طريقة القوم، مع أن نجم الدين فسَّرها أول الكتاب. ثم بعد ذلك ابتدأ بسورة الطور، وانتهى عند آخر القرآن. ويُلاحَظ أنه لم يكمل تفسير سورة الذاريات، التي مات نجم الدين قبل أن يفرغ من تفسيرها.

والذى يقرأ في هذا التفسير، ويقارن بين ما كتبه نجم الدين داية، وبين ما كتبه السمناني، يلحظ أن هناك فرقاً بين التفسيرين، ذلك أن الجانب الذى كتبه

(١) التفسير والمفسرون ٢/ ٣٧٦

(٢) أضفناها لمناسبتها لمقام الحال.

نجم الدين يتعرض فيه أحياناً للتفسير الظاهر، ثم يعقبه بالتفسير الإشاري قائلاً: والإشارة فيه إلى كذا وكذا، وما يذكره من التفسير الإشاري سهل المأخذ، لأنه لا يقوم على قواعد من الفلسفة الصوفية. كما أنه يربط بين الآيات.

أما الجانب الذى كتبه السمناني فلا يعرج فيه على المعاني الظاهرة، كما أنه ليس فيه السهولة التي في الجانب الذى كتبه نجم الدين، بل هو تفسير معقد مغلق، والسر في ذلك: أنه بناه على قواعد فلسفية صوفية، هذه القواعد ذكرها في مقدمة التكملة، وهى يطول ذكرها، ويصعب فهمها، ويكفى أن أشير هنا إلى بعض منها.

فمثلاً نراه يقرر في هذه المقدمة: أن كل آية لها سبعة أبطن، كل بطن يخالف الآخر، ثم يوضح لنا هذه البطون السبعة: فبطن مخصوص بالطبقة القالبية، وبطن مخصوص باللطيفة النفسية، وبطن مخصوص باللطيفة القلبية، وبطن مخصوص باللطيفة السرية، وبطن مخصوص باللطيفة الروحية، وبطن مخصوص باللطيفة الخفية، وبطن مخصوص باللطيفة الحقيَّة[١]

ولا يخفاك أن آخر هذا الكلام، يقطع ببطلانه في دين الله، بل هي من محض البدع والخرافات في الدين، وهذا الكتاب ملئه سمادير وأوهام وتحريفات ومنها

في سورة البقرة عند قوله تعالى في الآية [٢٤٩]: {فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بالجنود قَالَ إِنَّ الله مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مني إِلاَّ مَنِ اغترف غُرْفَةً بِيَدِهِ}. . يقول: «والإشاري فيها: أن الله تعالى ابتلى الخلق بنهر الدنيا، وماء زينتها، وما زَيَّن للخلق الآية، ليُظهر المحسن من المسيئ، وليُميز الخبيث من الطيب، والمقبول من المردود، ثم امتحنهم وقال تعالى: {فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مني} يعنى من أوليائه، ومحبى وطلابي، وله اختصاص بقربى، وقبولي، والتخلق بأخلاقي، ونيل الكرامة منى، كان النبيﷺ يقول: «أنا من الله، والمؤمنون منى»، {إِلاَّ مَنِ اغترف غُرْفَةً بِيَدِهِ}: يعنى: مَن قنع

(١) التفسير والمفسرون ٢/ ٣٧٧

من متاع الدنيا على ما لا بد منه: من المأكول، والمشروب، والملبوس، والمسكن، وصحبة الخلق. على حد الاضطرار بمقدار القوام، كما كان النبي ﷺ وأصحابه. وكان يقول: «اللَّهم ارزق آل محمد قوتاً» - أي ما يمسك رمقهم»[١].

وأيضا هذا التمثيل باطل من كل وجه، بل الشرع نهى عن ترك الدنيا بالكلية، واليد العليا خير عند الله من اليد السفلى، والدنيا طريق الآخرة وسبيلها، فكيف يكون خير الناس من يدعها بالكلية، أمر عجب والله أن تنسب هذه الأباطيل إلى الشرع الشريف.

وفى سورة التوبة عند قوله تعالى في الآية [١٢٣]: {يا أيها الذين آمَنُواْ قَاتِلُواْ الذين يَلُونَكُمْ مِّنَ الكفار وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً واعلموا أَنَّ الله مَعَ المتقين}. . يقول: {يا أيها الذين آمَنُواْ} أي صدَّقوا محمداً ﷺ فيما دلَّهم إلى الله بإذنه، {قَاتِلُواْ الذين يَلُونَكُمْ مِّنَ الكفار} أي جاهدوا كفار النفس وصفاتها بمخالفة هواها صفاتها، وتبديلها وحملها على طاعة الله، والمجاهدة في سبيله، فإنها تحجبك عن الله، {وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً} أي عزيمة صادقة في فنائها بترك شهواتها ولذَّاتها ومستحسناتها، ومنازعتها في هواها، وحملها على المتابعة في طلب الحق، {واعلموا أَنَّ الله مَعَ المتقين} بجذبة الوصول، ليتقوا به عما سواه، كما يتقى المرء بترسه عن النشاب، والرمح والسيف». [٢]

وهذا أيضا باطل، فالله لم يأمرنا بقتل أنفسنا بل أمرنا بجهادها حتى تستقيم حية على طريق الله، ثم إن هذه التأويل باطل من جه آخر بل من كل وجه، وهو أن النفس هي ذات الإنسان لا جنبه، فحتى التأويل باطل على القياس نفسه، وقتل النفس ومثل هذه الأشياء من تلبيس إبليس على متزهدة الصوفية.

وأعجب العجب، بل وأعجب من صوم رجب، ما قاله: في سورة يوسف

(١) التأويلات النجمية ١/ ٤٥

(٢) التأويلات النجمية ٢/ ١٤

عند قوله تعالى في الآيتين [٣٠، ٣١]: {وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي المدينة امرأة العزيز تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ * فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَئاً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّيناً وَقَالَتِ اخرج عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ للَّهِ مَا هاذا بَشَراً إِنْ هذا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ}. . يقول: "يشير بالنسوة إلى صفات البشرية النفسانية من البهيمية، والسبعية، والشيطانية في مدينة الجسد، {امرأة العزيز} وهى الدنيا، {تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ} تطالب عبدها وهو القلب. كان عبداً في البداية لحاجته إليها للتربية. قلما كمل القلب وصفا عن دنس البشرية استأهل المنظر الإلهي، فتجلى له الرب تبارك وتعالى فتنوّر القلب بنور جماله وجلاله، فاحتاج إليه كل شيىء، وسجد له حتى الدنيا، {قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً} أي أحبته الدنيا غاية الحب، لما ترى عليه آثار جمال الحق.

ولما لم يكن لنسوة صفات البشرية اطلاع على جمال يوسف القلب، كن يلمن الدنيا على محبته، فقلن: {إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ}. . {فَلَمَّا سَمِعَتْ} زليخا الدنيا {بِمَكْرِهِنَّ} في ملامتها، {أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ} أي الصفات، {وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَئاً} أي هيأت طعمة مناسبة لكل صفة منها، {وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّيناً} وهو سكين الذكر، {وَقَالَتِ} زليخا الدنيا ليوسف القلب، {اخرج عَلَيْهِنَّ} وهو إشارة إلى غلبة أحوال القلب على صفات البشرية، {فَلَمَّا رَأَيْنَهُ} أي وقعن على جماله وكماله، {أَكْبَرْنَهُ} أكبرن جماله أن يكون جمال بَشَر، {وَقُلْنَ حَاشَ للَّهِ مَا هاذا بَشَراً} أي جمال بشر، {إِنْ هذا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ} ما هذا إلا جمال ملك كريم، وهو الله تعالى[١].

وهذا الكلام الشرع منه بريء، بل العقل منه بريء، لأنه علم بالقطع أن هذه المعاني التي ذكرت في القصة معان حقيقة علمت بالقطع حدوثها، أفأين مدخل المجاز فيها إلا عند المتخبطة الجهال الذين انفلت عقالهم، وضلت أفهامهم !

(١) التأويلات النجمية ٣/ ٥٠

ألا إني أشهد أنه إذا لم يكن هذا تفسيرا باطنيا، فليس على الأرض تفسير باطني.

بل وإذا رمت أن يذهب عقلك كل مذهب، وبل ترى أعجب من العجب، فاقرأ قوله في سورة النمل عند قوله تعالى في الآيتين [١٧، ١٨] {وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الجن والإنس والطير فَهُمْ يُوزَعُونَ * حتى إِذَآ أَتَوْا على وَادِ النمل قَالَتْ نَمْلَةٌ يا أيها النمل ادخلوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ}.. يقول: {وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الجن} أي صفته الشيطانية، {والإنس} أي صفته النفسانية، {والطير}، أي صفته المالكية، {فَهُمْ يُوزَعُونَ} عن طبيعتهم بالشريعة. ليسخِّروا لسليمان القلب وينقادوا له، {حتى إِذَآ أَتَوْا على وَادِ النمل} وهو هوى النفس الحريصة على الدنيا وشهواتها، {قَالَتْ نَمْلَةٌ} وهى النفس اللَّوامة، {يا أيها النمل} أي الصفات النفسانية، {ادخلوا مَسَاكِنَكُمْ} محالكم المختلفة وهى الحواس الخمس، {لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ}، {سُلَيْمَانُ} القلب، {وَجُنُودُهُ} المسخَّرة له، {وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ} لأنهم الحق، وأنتم الباطل، فإذا جاء الحق زهق الباطل، كما أن الشمس إذا طلعت تبطل الظلمة وتنفيها، وهى لا تشعر بحال الظلمة وما أصابها»(١)

قولوا هذا لمن يدعي أن إشارات الصوفية التي من هذا الجنس لا تعارض التفسير الظاهر، بل ألقوه في وجوههم فليستجيبوا لكم إن كانوا صادقين.

واقرأ هذه الخرافة الخرافة الأخرى، وادع الله أن يسلم لك عقلك، ويحفظه فإن مثل هذا القول حري به أن يذهب عقل العقلاء، في سورة التحريم عند قوله تعالى في الآية [١١]: {وَضَرَبَ الله مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ امرأت فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابن لِي عِندَكَ بَيْتاً فِي الجنة وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ القوم الظالمين}.. يقول: {وَضَرَبَ الله مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ} يعنى القوى المؤمنة من قوى النفس

(١) التأويلات النجمة ٤/ ٥

اللوَّامة، {امرأت فِرْعَوْنَ} يعنى القوة الصالحة القابلة تحت القوة الفاسدة الفاعلة المستكبرة، ما ضرَّها كفر القوة الفاعلة الفاسدة إذا كانت صالحةهي بنفسها، {إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابن لِي عِندَكَ بَيْتاً فِي الجنة وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ القوم الظالمين} يعنى إذ قالت اللطيفة الصالحة القابلة في مناجاتها مع ربها: ابن لي بيتاً في أخص أطوار القلب، وقالت أيضاً في مناجاتها: نجنى من هذه القوة الفاسدة والفاعلة وعملها. ونجنى من أنوائها وقواها الظالمة...». [١]

وأحسن شيء أن لا أعلق على مثل هذه الأقوال، حتى لا يذهب تعليقي بشاعتها، والله يهدينا ويقينا شر مثل هذه الأقوال والخرافات.

وفى سورة الشمس عند قوله تعالى في الآيات [١١] وما بعدها: {كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا * إِذِ انبعث أَشْقَاهَا}. . . (إلى أخر السورة).

يقول: {كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا * إِذِ انبعث أَشْقَاهَا} يعنى إذ انبعثت اللطيفة، وأسرعت إلى الطاغية انبعث أشقى قوى النفس على إثر اللطيفة الصالحة، ليعقر ناقة شوقها، {فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ الله} أي اللطيفة، {نَاقَةَ الله وَسُقْيَاهَا} أي احذروا عقر ناقة الشوق وشربها من عين الذكر، {فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا} بتكذيبهم صالح اللطيفة النفسية، وعقروا ناقة الشوق، {فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنبِهِمْ}، أي أهلكهم الله، {فَسَوَّاهَا} أي عمَّهم بذلك العذاب، {وَلاَ يَخَافُ عُقْبَاهَا} ولا يخاف القوى العاقرة في عقر ناقة الشوق عاقبة الأمر، فأهلكهم بطغيانهم لرسوله وتكذيبهم إياه[٢]

* * *

(١) التأويلات النجمية ٥/ ٦٠

(٢) التأويلات النجمية ٥/ ٩٠

المبحث الخامس

التفسير المنسوب لابن عربي

مَن مؤلف هذا التفسير؟

اختلف الناس في نسبة هذا التفسير، فبعض الناس يعتقد أن هذا التفسير من عمل ابن عربي نفسه، والبعض الآخر لا يصدق أن هذا التفسير من عمل ابن عربي، بل يرى أنه من عمل عبد الرزاق القاشاني، وإنما نُسب لابن عربي ترويجاً له بين الناس، وتشهيراً له بشهرة ابن عربي. وممن يرى هذا الرأي الأخير: المرحوم الشيخ محمد عبده ينقل عنه الشيخ رشيد رضا بقوله: "وقد اشتبه على الناس فيه كلام الباطنية بكلام الصوفية، ومن ذلك: التفسير الذى ينسبونه

للشيخ الأكبر محيى الدين ابن عربي، وإنما هو للقاشاني الباطني الشهير، وفيه من النزعات ما يتبرأ منه دين الله وكتابه العزيز"[(١)].

يؤيده الشيخ محمد حسين الذهبي بقوله: هذا. . وإني حين أميل لهذا الرأي – أعنى كون التفسير للقاشاني – أؤيده بما يأتي:

أولاً: أن جميع النسخ الخطية منسوبة للقاشاني، والاعتماد على النسخ المخطوطة أقوى، لأنها الأصل الذى أُخذت عنه النسخ المطبوعة.

ثانياً: قال في كشف الظنون: «تأويلات القرآن» المعروف بتأويلات القاشاني، هو تفسير بالتأويل على اصطلاح أهل التصوف إلى سورة (ص) للشيخ كمال الدين أبى الغنائم عبد الرزاق جمال الدين الكاشي السمرقندي، المتوفى سنة

---

(١) تفسير المنار ١/ ١٨

٧٣٠ هـ (ثلاثين وسبعمائة)، أوله: الحمد لله الذى جعل مناظم كلامه مظاهر حسن صفاته. . . « إلخ، وقد رجعنا إلى مقدمة التفسير المنسوب لابن عربي، فوجدنا أوله هذه العبارة المذكورة بنصها.

ثالثاً: في تفسير سورة القصص من هذا الكتاب عند قوله تعالى في الآية [٣٢]: {واضمم إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرهب} يقول: «. . . وقد سمعت شيخنا نور الدين عبد الصمد قدّس روحه العزيز في شهود الوحدة ومقام الفناء عن أبيه أنه. .. إلخ». ونور الدين هذا هو نور الدين عبد الصمد ابن عليّ النطنزي الأصفهاني، والمتوفى في أواخر القرن السابع، وكان شيخاً لعبد الرزاق القاشاني، المتوفى سنة ٧٣ هـ (ثلاثين وسبعمائة من الهجرة). كما يُستفاد ذلك من كتاب نفحات الأُنْس في مناقب الأولياء (ص ٥٣٤ - ٥٣٧). وغير معقول أن يكون نور الدين عبد الصمد النطنزي المتوفى في أواخر القرن السابع الهجري شيخاً لابن عربي المتوفى سنة ٦٣٨ هـ (ثمان وثلاثين وستمائة من الهجري).

لهذا كله نستطيع أن نؤكد أن هذا التفسير ليس لابن عربي، وإنما هو لعبد الرزاق القاشاني الصوفي. [١]

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

هذا التفسير جمعه مؤلفه على طريقة الباطنية، وإن سموه إشاريا -زورا وبهتانا - وكله يخالف التفسير الظاهر بكل حال من الأحوال.

فغالبه يقوم على مذهب وحدة الوجود، ذلك المذهب الذى كان له أثره السيء في تفسير القرآن الكريم، كثير منه لا نفهم له معنى، ولا نجد له في سياق الآية أو لفظها ما يدل عليه، ومما جعل الكتاب مغلقاً، وموهماً لمن يقرؤه أن هذا مراد الله من كلامه، كما كان هذا هو السبب الذى من أجله قال الأستاذ الإمام في القاشاني: إنه باطني.

(١) التفسير والمفسرون ٢/ ٣٨٣

-نماذج من هذا الكتاب المظلم

في سورة البقرة عند قوله تعالى في الآية [١٢٦]: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجعل هاذا بَلَداً آمِناً وارزق أَهْلَهُ مِنَ الثمرات مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بالله واليوم الآخر قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إلى عَذَابِ النار وَبِئْسَ المصير} . يقول ما نصه: «وإذ قال إبراهيم ربِّ اجعل هذا الصدر الذى هو حرم القلب، بلداً آمناً من استيلاء صفات النفس، واغتيال العدو اللَّعين، وتخطف جن القوى البدنية أهله، وارزق أهله من ثمرات معارف الروح أو حكمه أو أنواره، {مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بالله واليوم الآخر} مَن وَحَّدَ الله منهم وعلم المعاد، {قَالَ وَمَن كَفَرَ} أي: ومن احتجب أيضاً من الذين سكنوا الصدر، ولا يجاوزون حده بالترقي إلى مقام العين، لاحتجاجهم بالعلم الذى وعاؤه الصدر، فأُمتعه قليلاً من المعاني العقلية، والمعلومات الكلية، النازلة إليهم من عالَم الروح على قدر ما تعيَّشوا به، ثم أضطره إلى عذاب نار الحرمان والحجاب، وبئس المصير مصيرهم لتعذبهم بنقصانهم، وتألمهم بحرمانهم»(١).

وفى سورة الأنعام عند قوله تعالى في الآية [٩٥]: {إِنَّ الله فَالِقُ الحب والنوى يُخْرِجُ الحي مِنَ الميت وَمُخْرِجُ الميت مِنَ الحي ذلكم الله فأنى تُؤْفَكُونَ} . يقول ما نصه: «إن الله فالق حبة القلب بنور الروح عن العلوم والمعارف. ونور النفس بنور القلب عن الأخلاق والمكارم، ويخرج حي القلب عن ميت النفس تارة باستيلاء نور الروح عليها ومخرج ميت النفس عن حي القلب أخرى بإقباله عليها، واستيلاء الهوى وصفات النفس عليه، ذلكم الله القادر على تقليب أحوالكم، وتقليبكم في أطواركم، فأَنَّى تُصرفون عنه إلى غيره»(٢).

وفى سورة آل عمران عند قوله تعالى في الآية [١٩١]: {رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا

(١) تفسير ابن عربي ١/ ٥٧
(٢) تفسير ابن عربي ١/ ٢١٥

بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}. . يقول: «ربنا ما خلقت هذا الخلق باطلاً، أي شيئاً غيرك، فإن غير الحق هو الباطل، بل جعلته أسماءك ومظاهر صفاتك. سبحانك: ننزهك أن يوجد غيرك، أي يقارن شيىء فردانيتك أو يُثَنِّي وحدانيتك..». [١]

وفى سورة الواقعة عند قوله تعالى في الآية [٥٧]: {نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلاَ تُصَدِّقُونَ}. . يقول: «نحن خلقناكم بإظهاركم بوجودنا وظهورنا في صوركم». [٢]

وفى سورة الحديد عند قوله تعالى في الآية [٤]: {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ}. . يقول: «وهو معكم أينما كنتم بوجودكم به، وظهوره في مظاهركم»[٣].

وفى سورة المجادلة عند قوله تعالى في الآية [٧]: {مَا يَكُونُ مِن نجوى ثَلاَثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ}. . . الآية، يقول: «لا بالعدد والمقارنة، بل بامتيازهم عنه بتعيناتهم. واحتجابهم عنه بماهياتهم ونياتهم، وافتراقهم منه بالإمكان اللازم لماهياتهم وهوياتهم، وتحققهم بوجوبه اللازم لذاته، واتصاله بهم بهويته المندرجة في هوياتهم، وظهوره في مظاهرهم، وتستره بماهياتهم ووجوداتهم المشخصة، وإقامتها بعين وجوده، وإيجابهم بوجوبه، فبهذه الاعتبارات هو رابع معهم، ولو اعتبرت الحقيقة لكان عينهم، ولهذا قيل: لولا الاعتبارات لارتفعت الحكمة»[٤].

وفى سورة المزمل عند قوله تعالى في الآيتين [٨، ٩]: {واذكر اسم رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً * رَّبُّ المشرق والمغرب}. . يقول: «واذكر اسم ربك الذى هو أنت - أي اعرف نفسك - واذكرها، ولا تنسها، فينسك الله، واجتهد لتحصيل كمالها بعد معرفة حقيقتها، {رَّبُّ المشرق والمغرب} أي الذى ظهر عليك نوره، فطلع من أفق وجودك بإيجادك، أو المغرب الذى اختفى بوجودك، وغرب نوره

(١) تفسير ابن عربي ١/ ١٤١
(٢) تفسير ابن عربي ٢/ ٢٩١
(٣) تفسير ابن عربي ٢/ ٢٩٤
(٤) تفسير ابن عربي ٢/ ٣٠٠

فيك واحتجب بك». (١)

وعند قوله تعالى في الآيتين [١٩-٢٠] من سورة الرحمن: {مرج البحرين يلتقيان * بينهما برزخ لا يبغيان}. . . يقول: {مرج البحرين} بحر الهيولي الجسمانية الذى هو الملح الأجاج، وبحر الروح المجرد الذى هو العذب الفرات، {يلتقيان} في الوجود الإنساني، {بينهما برزخ} هو النفس الحيوانية التي ليست في صفاء الروح المجردة ولطافتها، ولا في كثرة الأجساد الهيولانية وكثافتها، {لا يبغيان} لا يتجاوز أحدهما حده فيغلب على الآخر بخاصيته، فلا الروح يجرد البدن ويخرج به ويجعله من جنسه، ولا البدن يجسد الروح ويجعله ماديا. . . سبحان خالق الخلق القادر على ما يشاء». (٢)

عندما تعرض لقوله تعالى في أول سورة النساء: {يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة}. . . الآية، نجده يقول: {اتقوا ربكم} اجعلوا ما ظهر منكم وقاية لربكم، واجعلوا ما بطن منكم - وهو ربكم - وقاية لكم، فإن الأمر ذم وحمد، فكونوا وقايته في الذم، واجعلوه وقايتكم في الحمد تكونوا أدباء عالمين». (٣)

وفى تفسيره لقوله تعالى في الآيتين [٢٩-٣٠] من سورة الفجر: {فادخلي في عبادي * وادخلي جنتي}. . يقول: {وادخلي جنتي} التى هي سترى، وليست جنتي سواك، فأنت تسترني بذاتك الإنسانية فلا أعرف إلا بك، كما أنك لا تكون إلا بي، فمن عرفك عرفني، وأنا لا أعرف فأنت لا تعرف، فإذا دخلت جنته دخلت نفسك، فتعرف نفسك معرفة أخرى، غير المعرفة التي عرفتها حين عرفت ربك بمعرفتك إياها، فتكون صاحب معرفتين: معرفة به من حيث أنت، ومعرفة به بك من حيث هو لا من حيث أنت، فأنت عبد رأيت ربا، وأنت رب لمن له فيه أنت

(١) تفسير ابن عربي ٢/ ٢٥٢
(٢) تفسير ابن عربي، التفسير والمفسرون ٢/ ٢٥٣
(٣) تفسير ابن عربي ١/ ٦٠

عبد، وأنت رب وأنت عبد لمن له في الخطاب عهد». . . إلخ. [١]

وفى سورة آل عمران عند قوله تعالى في الآية [١٩١]: {ربنا ما خلقت هذا باطلا}. . . يقول: «أي شيئا غيرك، فإن غير الحق هو الباطل، بل جعلته أسماءك ومظاهر صفاتك، {سبحانك} ننزهك أن يوجد غيرك، أي يقارن شيىء فردانيتك يثنى وحدانيتك».

ومثلا عند قوله تعالى في الآيتين [٩-١٠] من سورة الشمس: {قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها}. . . يقول: «تحقيق هذا الذكر أن النفس لا تزكو إلا بربها، فيه تشريف وتعظيم في ذاتها، لأن الزكاة ربو، فمن كان الحق سمعه وبصره وجميع قواه، والصورة في الشاهد صورة خلق، فقد زكت نفس من هذا نعته، وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، كالأسماء الإلهية لله. والخلق كله بهذا النعت في نفس الأمر، ولولا أنه هكذا في نفس الأمر ما صح بصورة الخلق ظهور ولا وجود، ولذلك خاب من دساها، لأنه جهل ذلك فتخيل أنه دسها في هذا النعت، وما علم أن هذا النعت لنفسه نعت ذاتي لا ينفك عنه ويستحيل زواله. لذلك وصفه بالخيبة حيث لم يعلم هذا، ولذلك قال: {قد أفلح} ففرض له البقاء، والبقاء ليس إلا لله، أو لما كان عند الله، وما ثم إلا الله، أو ما هو عنده، فخزائنه غير نافدة، فليس إلا صور تعقب صورا». [٢]

وعند تفسيره لقوله تعالى في أول سروة الرحمن: {الرحمان * علم القرآن * خلق الإنسان * علمه البيان * الشمس والقمر بحسبان *والنجم والشجر يسجدان * والسماء رفعها ووضع الميزان * ألا تطغوا في الميزان * وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان} [الرحمن: ١-٩]. يقول ما نصه: {الرحمان * علم القرآن} على أي قلب نزل، {خلق الإنسان} فعين له الصنف المنزل عليه، {علمه البيان} أي نزل له البيان، فأبان عن المراد الذى في الغيب، {الشمس والقمر بحسبان} ميزان حركات الأفلاك، {والنجم والشجر يسجدان} لهذا الميزان، أي من أجل هذا الميزان، فمنه

---

(١) تفسير ابن عربي، والتفسير والمفسرون ٢/ ٢٥٤

(٢) انظر التفسير والمفسرون ٢/ ٢٥٤

ذو ساق وهو الشجر، ومنه ما لا طاق له وهو النجم، فاختلفت السجدتان، {والسماء رفعها} وهى قبة الميزان، {ووضع الميزان} ليزن به الثقلان، {ألا تطغوا في الميزان} بالإفراط والتفريط من أجل الخسران، {وأقيموا الوزن بالقسط} مثل اعتدال نشأة الإنسان، إذ الإنسان لسان الميزان، {ولا تخسروا الميزان} أي لا تفرطوا بترجيح إحدى الكفتين إلا بالفضل. وقال تعالى: {ونضع الموازين القسط} [الأنبياء: ٤٧]. . فاعلم أنه، ما من صنعة ولا مرتبة ولا حال ولا مقام إلا والوزن حاكم عليه علما وعملا، فللمعاني ميزان بيد العقل يسمى المنطق، يحتوى على كفتين تسمى المقدمتين، وللكلام ميزان يسمى النحو يوزن به الألفاظ لتحقيق المعاني التي تدل عليه ألفاظ ذلك اللسان، ولكل ذي لسان ميزان وهو المقدار المعلوم الذى قرنه الله بإنزال الأرزاق فقال: {وما ننزله إلا بقدر معلوم} [الحجر: ١]، {ولاكن ينزل بقدر ما يشاء}. . وقد خلق جسد الإنسان على صورة الميزان، وجعل كفتيه: يمينه وشماله، وجعل لسانه: قائمة ذاته. فهو لأى جانب مال، وقرن الله السعادة باليمين، وقرن الشقاء بالشمال، وجعل الميزان الذى يوزن بالأعمال على شكل القبان، ولها وصف بالثقل والخفة، ليجمع بين الميزان العددي وهو قوله تعالى:

{بحسبان}، وبين ما يوزن بالرطل، وذلك لا يكون إلا في القبان، فلذلك لم يعين الكفتين، بل قال: {فأما من ثقلت موازينه} [القارعة: ٢] في حق السعداء، {وأما من خفت موازينه} [القارعة: ٨] في حق الأشقياء، ولو كان ميزان الكفتين لقال: وأما من ثقلت كفة حسناته فهو كذا، وأما من ثقلت كفة سيئاته فهو كذا. وإنما جعل ميزان الثقل هو عين ميزان الخفة كصورة القبان، ولو كان ذا كفتين لوصف كفة السيئات بالثقل أيضا إذا رجحت على الحسنات، وما وصفها قط إلا بالخفة فعرفنا أن الميزان على شكل القبان[١]

والكتاب مظلم -كما ترى- ملئه تحريف وتخريف، وقول بوحدة الوجود، وقول بالحلول والاتحاد، وكثير من هذه الكفريات والعياذ بالله تعالى.

---

(١) يراجع تفسير ابن عربي، وما نقله عنه صاحب (التفسير والمفسرون) ٢/ ٢٥٢

خاتمة

بعد هذا العناء، من الله بهذا العطاء، والفضل لله وحده، واستخلصنا ما يلي

١-التفسير: هو ما يكون به الكشف عن المعنى الظاهر

٢-التأويل: هو ما يؤل إليه الكلام من وقوع الخبر، وتنفيذ الطلب

٣-الاستنباط عملية عقلية يكشف بها عن المراد من التأويل أو الإشارة

٤-الإشارة: استنباط غير مراد له إسناد وشاهد

٥-الشطح: معنى صحيح في نفسه لا إسناد له إلى الآية

٦-التفسير الباطن: ما لا إسناد له ولا شاهد

٧-الإشارات يستدل بها في استخراج الأحكام

٨-الإشارات لها تطبيقات كثيرة في مختلف العلوم الشرعية

٦- لا يشترط في الإشارة الخفاء، كما لا يشترط في التأويل الجلاء

٧- كثير من كتب الإشارات بها مقام التفسير والتأويل على أنه إشارة

التوصيات

مما نوصي به في ختام كتابنا ما يلي:

١ - أن يولى هذا العلم علم الإشارات اهتماما يضبط هذا العلم ويؤصله، فهو باب من العلم خطير ومهم.

٢-أن يعاد النظر في علم الإشارات على وفق ما أوضحت في كتابي، وأن توضع نظريتنا محل بحث وفحص وتحليل.

٣-أن تؤخذ كتب الإشارات بهذا القانون فيميز الخبيث من الطيب حتى لا يختلط الحابل بالنابل.

٤- أن يولي الباحثون وجوههم شطر ما أشرت إليه من التنازع بينن هذه المصطلحات ليبحثوها من خلال تطبيقات المفسرين في كتبهم.

٥-أن يجتهد من وفقه الله في إخراج كتاب إشاري كامل للقرآن الكريم، فهذا دين لم توف به الأمة حتى الآن إلى القرآن الكريم.

قائمة لبعض المراجع

- التفسير من سنن سعيد بن منصور
- الإكليل في استنباط التنزيل
- الإتقان في علوم القرآن
- مجموع الفتاوى لابن تيمية
- إعلام الموقعين. لابن القيم
- كتاب الحسد حقيقته أنواعه –مصادره–الوقاية منه–علاجه
- الفروق اللغوية
- مقاييس اللغة، لابن فارس
- مقدمتان في علوم القرآن
- والبرهان في علوم القرآن
- والتيسير في قواعد علم التفسير.
- مفهوم التفسير والتأويل لمساعد الطيار
- روح المعاني
- ينظر: مقدمة جامع التفاسير، للراغب
- المحرر الوجيز
- البحر المحيط
- فتح القدير
- التحرير والتنوير
- تفسير الطبري
- مفردات ألفاظ القرآن

- تفسير سورة الإخلاص، لابن تيمية،
- تفسير ابن كثير
- فتح الباري
- شرح النووي على صحيح مسلم
- الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي
- صحيح البخاري
- الفقيه والمتفقه
- المحصول لابن العربي
- العباب الزاخر واللباب الفاخر، للصغاني،
- مفهوم التفسير والتأويل للطيار
- تفسير الطبري، تحقيق: شاكر .
- العباب الزاخر واللباب الفاخر، للصغاني، تحقيق: محمدحسين آل ياسين.
- تفسير البغوي
- مفاتيح الغيب للرازي
- تفسير الإمام الشافعي
- تأويلات أهل السنة
- تفسير السمعاني
- أحكام القرآن لابن العربي
- التفسير البسيط
- مناهل العرفان
- التفسير والمفسرون
- التبيان في علوم القرآن
- الفوز الكبير في أصول التفسير
- شرح الزركشي على جمع الجوامع

- الموافقات، لطائف الإشارات
- إحياء علوم الدين
- وسنن الدارمي
- سنن الترمذي
- شعب الإيمان
- تلبيس إبليس
- جامع بيان العلم وفضله
- البحر المديد
- التفسير الكبير
- التفسير في القرن الرابع عشر
- التفسير في القرن الرابع عشر
- العدد سبعة في القرآن الكريم
- زاد المسير في علم التفسير
- بيان في عد أي القرآن، للداني
- فضائح الباطنية
- ينظر آراء الإمام أبي بكر ابن العربي الكلامية
- الفرق بين الفرق
- المواقف
- التبصير في الدين
- الموافقات
- الوشيعة في نقد عقائد الشيعة
- مدارج السالكين
- صحيح مسلم
- الفكر السياسي عند الباطنية وموقف الغزالي منه
- أحكام القرآن للكيا الهراسي

- تفسير التستري
- انظر طبقات المفسرين للسيوطي
- طبقات الشافعية
- منهاج السنة النبوية
- أعلام النبلاء
- الرسالة القشيرية
- الصحاح
- عرائس البيان
- التأويلات النجمية
- تفسير المنار
- تفسير ابن عربي

تم بحمد الله ومنه بين العشائين

الاثنين الموافق١٦/ ٩/ ٢٠١٩

كتبه الفقير إلى ربه/ محمد يحيى جادو

سائلا الله القبول والوصول

٠١٠٦٩٧٧٤٠٩١

الفهرس